قامات فكرية
وإبداعية سامقة

قامات فكرية
وإبداعية سامقة

أ. د سمير عبد الرحمن هائل الشميري





الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر 2018 م - 1440 هـ

ردمك 978-9948-01-000-0

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

كابتال تاور، مركز أبو ظبي للمعارض ADNEC
ص.ب: 27977، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 6766700 (2-971+) فاكس: 6766972 (2-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
بريد إلكتروني: smartd_1@eim.ae

تصميم الغلاف: **ثناء أسامة**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

المقدمة

نعيش في مرحلة اضطراب فكري ومعيشي وحياتي شامل، وحالة كثيفة من الفساد والعزلة النفسية والصعود الفوضوي للتعصّب والتشظّي والتيبّس العقلي والفكري الكئيب، واضطراب التأقلم والهوية والقلق الزماني والمكاني والعاطفي في زمن تخلخل فيه الإبداع والإنتاج الفكري وتحطّمت فيه شكيمة التماسك الاجتماعي والنسق القيمي الشائع.

لمعت في ذهني فكرة هذا الكتاب عندما رأيت الانهيار في الفضاء العمومي وتراجع دور الفكر والكلمة الشريفة في تشكيل الوعي المجتمعي، وتسيّد الجهل والتعصب والشعارات الملتهبة الفضفاضة التي تغيّب العقل وتشحن العواطف بالضغائن والحقد بصيغ غامضة وملتبسة وبظلام مطلسم. وما زاد الطين بلّة، عُسر الحياة المعيشية للمجتمع وانهيار مؤسسات الدولة وصعود الإرهاب الفكري والمادي بهستيريا متشنّجة مصحوباً بعنف الغوغاء ورطانة الماكرين وتجذّر عبثيّة الفوضى وانكسار الوعي التنويري لصالح الأوغاد وأهل الفسفسة والأصوات الصاخبة وأصحاب المواهب المهلهلة الذين يشجّون رؤوسنا بالصراخ والعويل والشكوى والشهقات المصطنعة وذرف الدموع لحجب وإخراس أصوات المبدعين الذين ينيرون العقل ويغذون الوجدان بإبداعاتهم وسعة اطلاعهم ووفرة علمهم وقدرتهم الثاقبة على البصر والإبصار لنهضة العقول وتنمية الوعي واللذة الحسية والعاطفية والذكاء الوجداني.

وفي حومة هذه الفضاءات الملتهبة والمترجرجة أردت أن يشمل هذا الكتاب نصوصاً إبداعية وفكرية وتنويرية لقامات فكرية وإبداعية سامقة تركت آثاراً حميدة في عقولنا ووجداننا لشحذ همم العقول الشابة للإبداع ولاقتفاء

أثر هذه القامات الإبداعية وتكسير النظام القيمي والإبداعي المتكلّس ومقاومة الانزواء والتعفّن الإبداعي ولرصد مظاهر اعتلال المجتمع والخراب النفسي والأخلاقي والحياتي الذي كسر العقول النيرة وقيّد الطاقات المبدعة بالهزيمة والخمول والانصياع لصوت الباطل الذي اتّسعت مساحته.

النصوص في هذا الكتاب عبارة عن بحوث متنوعة نشرت البعض منها والبعض الآخر لم يُنشر وتشتمل على:

دراسة البصمات التنويرية للأستاذ/ محمد علي لقمان، والخطاب التنويري للأستاذ/ أحمد محمد نعمان، وأهم قسمات هذا الخطاب التنويري (الفصل الأول). ثم نسير بخطوات هادئة في الفصل الثاني لتعريف القارئ إلى سوسيولوجيا العاطفة والإبداع عند الشاعر/لطفي جعفر أمان، وتأثير التنشئة الاجتماعية على موهبة هذا الشاعر مع توضيح الذكاء العاطفي ومفردات سوسيولوجيا الإبداع الشعري عنده. ثم نعرف القارئ إلى الشاعر عبد الرحمن فخري الذي يتميز شعره بالغموض واللمسات الفنية الراقية. وفي الفصل الثاني أيضاً نطل على إبداعات القاص أحمد محفوظ عمر الذي يخط أفكاره في مساحة صمت ثم نقدم مشاهد بانورامية قصصية.

أما الفصل الثالث فهو مكرس لاستعراض مكانة صحيفة «الأيام» العدنية في الفضاء الإعلامي وتأثيرها الكاسح في الفضاء العمومي ومحاربة هذه الصحيفة وحجبها ومصادرتها من قبل السلطة، ثم نرفق في هذا الفصل ملحقات وهي عبارة عن مقالات لي تصب في بوتقة التضامن مع صحيفة الأيام وضد ممارسات الإرهاب والمنع والحجر والتضييق عليها والعذابات التي تعرضت لها هذه الصحيفة الشائقة، مع إشارات مكثفة إلى الوضع العام المأزوم الذي يئن بالفساد والظلم والشقاء والفقر والفوضى.

الفصل الأول

مفكران تنويريان

المبحث الأول: بصمات تنويرية في نص سوسيولوجي.

المبحث الثاني: قراءة سوسيولوجية في خطاب النعمان التنويري.

مدخـل

في هذا الفصل سنركز عدسة الضوء على مفكرين تنويريين هما:

الأسـتاذ/ محمد علـي لقمان، والأسـتاذ/ أحمد محمد نعمان، حيث سـنقوم بقـراءة متفحصة لخطابهما التنويري وأهم القسـمات الشـاخصة لهـذا الخطـاب الـذي كان له أثـر طيب في ذلـك الزمان، حيـث تميزت أطروحاتهما التنويرية بالعمق والنطاسة والثراء الثقافي والمعرفي.

المبحث الأول

بصمات تنويرية في نص سوسيولوجي

المقدمة:

لا أجد حرجاً في القول إني كنت أجهل كثيراً من كتابات ومؤلفات حامل شعلة النهضة الأستاذ محمد علي لقمان (1889–1966م)، وبعد أن فرغت من القراءة والدرس، اندهشت لغزارة تفكيره وخلفيته المعرفية والعلمية، حيث وضع أسس مداميك التنوير في اليمن لملاحقة الركب الإنساني ولتحريك النفوس وتوجيه العقول في عز ظهيرة حياته الثقافية والتنويرية.

فالأستاذ محمد علي لقمان قمة سامقة في الثقافة والانفتاح، طازج الوعي والبصيرة، له باع طويل في الكتابة الصحفية والإبداعية، وله فضل محمود في غرس شتلات النهضة، حيث أحدث قفزة ظافرة في حياتنا الثقافية والتنويرية مع ثلة من العقلاء الأحرار والمتنورين.

عاش حياة قلقة جميلة الجرس وعالية اللذة فيها سلسلة من الاقتحامات، وفي صفحات منها مؤلمة وبغيضة محفوفة بالشقاء والخطوب.

لقد أرّقه موضوع تقدم الغرب وتقهقر الشرق:

فكيف تقدم الغربيون؟ سؤال قديم – حديث، يطن في آذاننا، وله رنين أنيق يحفز العقل على التبصر والتأمل والاجتهاد.

هذا السؤال بسطه الأستاذ محمد علي لقمان في مؤلفه: بماذا تقدم الغربيون؟ (1932م)، وقبل ذلك بقليل، كان هذا السؤال محل مُدارسة وتفحص من قبل المثقف والمتنور العربي شكيب أرسلان (1898–1946م).

هـذا السـؤال الشـائق والمقلق دفـع المتنوريـن العرب منـذُ بدء عصر النهضـة (1798م)، وحتـى اللحظـة للاشـتغال بمسـببات التطـور الحضاري للغرب، والتقهقر الحضاري للشـرق، وبدأت تنتصب الأسئلة في اتجاهات مختلفة:

«ما هي أسباب ضعف الشرق حتى يتمكن الغرب من اجتياحه والتغلب عليـه؟ مـا هـو الداء؟ ومـا هو الدواء؟ كيـف يكون التعامل مـع الغرب وما طبيعتـه؟ هـل نقبـل علـى الثقافـة الغربيـة أم نرفضها كليـاً أو جزئيـاً؟ كيف ننهـض مـن كبوتنا ونصلح حياتنا؟ ما هي السُـبل للخـروج من حالة الركود والانحطـاط والجهـل والتخلـف إلى الحركـة والتعلم والعلـم والقوة؟ هل نصلـح المجتمـع بالعلـم أم بالدين؟ ما موقفنا من النظام السياسـي السـائد وكيـف يمكـن إصلاحـه أو تحويلـه؟ هـل نصلحه أم نسـتبدله بنظـام آخر؟ هـل نحافظ علـى الخلافة الإسـلامية والثقافة الدينية أم نسـتقل عنها ونقيم مجتمعات قومية علمانية؟»[1].

ويغنـي جعبتنـا الثقافيـة والمعرفيـة الأسـتاذ محمـد علي لقمان بأسـئلة ملحاحة:

هل أخلاق الأوروبيين هي التي مكّنتهم من التسلّط على الشعوب والفوز فـي مضمـار الحيـاة أم أن النظـام التعليمي الأوروبـي كان المدماك الرئيسـي للنهوض الحضاري؟ أم أن الطقس المعتدل سـاعدهم على الرقي الإنسـاني؟ لماذا تسيطر ثقافة التوكل والعادات البغيضة والخزعبلات على أذهان الشرقيين وأفكارهم؟ لماذا لا نؤسس جمعيات خيرية ونقابات وشركات ونوادي رياضية ومنظمـات مدنيـة؟ لماذا لا نفكـر بأهمية الوقـت والاهتمام بالتربيـة والتعليم والثقافـة وتوطين العلوم فـي ديارنا؟ لماذا يغيب النظام والتخطيط في حياتنا؟ وهـل يُرجـى للمسـلمين تقدم في وضع تعيش فيه النسـاء فـي وديان الخمول والجهل ويرتعن بالأساطير ويرضعن من لبان الجمود؟

وهل الدين الإسلامي يقف حجر عثرة في سبيل رُقينا؟ لماذا لا ننفض الكسل ونمارس الرياضة ونتحلى بالصبر والعزم وثقافة التسامح؟ لماذا لا نبني دولة مؤسسات مقيدة بقانون ودستور لقمع الغرائز والشهوات المضرة بالصالح العام؟

إذاً:

بماذا تقدم الغربيون؟ ولماذا تقهقر الشرق؟

وما هي أبرز العلل السلوكية والأخلاقية في المجتمعات الشرقية؟ وما هي أهم قسمات الخطاب التنويري لمحمد علي لقمان؟

1- لقمان والحضارة الغربية:

لم يقف لقمان موقفاً معادياً للحضارة الغربية وإن كان ينتقد بعض شوائبها، فهو كغيرة من مفكري عصر النهضة، ظل منبهراً بحضارة الغرب وبأخلاقهم وسلوكياتهم، وبتطورهم الصناعي والزراعي والتجاري والعلمي والتكنولوجي، وبمؤسساتهم العلمية والتربوية والثقافية. لم يكن جامداً ولا متكلّساً بل كان منفتحاً مع عظيم اعتزازه بالشرق وثقافته وحضارته، وفي أكثر من موضع يؤكد أن حضارة الشرق حضارة روحية، وحضارة الغرب حضارة مادية.

ومع ذلك لا يضع سوراً صينياً بين حضارة الشرق وحضارة الغرب، فهو مع التفاعل والمثاقفة والحوار الحضاري، وليس مع القطيعة الحضارية ما بين الشرق والغرب. فثقافته المستنيرة وسفره إلى بلدان الشرق والغرب، واختلاطه بشعوب وثقافات العالم، وتفاعله مع كل ذلك، مكّنه التفاعل من الاغتراف العقلاني والمنطقي من ثقافات الشرق والغرب. فلم يكن متعصباً ولم يمقت عناصر الصلاح في الحضارة الغربية كما فعل نزر من المتنطّعين الذين لا يفرقون ما بين المفسدة والمصلحة، حيث يقول:

«نحن اليوم بحاجة ماسة لتعلم علوم النفس والأخلاق والفنون الجميلة والهندسة والرياضيات والكيمياء والملاحة والجندية والطيران والطب ولا سبيل إليها إلا بتعلم اللغات الأجنبية وهي الإنجليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية والروسية على وجه الخصوص وبقية اللغات الحية على وجه العموم»[2].

النص التنويري الذي بين أيدينا: (بماذا تقدم الغربيون؟) سطّره الأستاذ محمد علي لقمان عام 1932م[3]، وهو يندرج تحت ما نسميه في علم الاجتماع بالدراسات الأنثروبولوجية الثقافية، حيث استخدم المؤلف المنهج المقارن مع اعتماده على أساليب الملاحظة والمعايشة والمشاركة، وهي طرق شائعة في الدراسات الأنثروبولوجية، والتي أسس أسسها كوكبة من علماء الاجتماع أمثال: هربرت سبنسر، راد كليف براون، فورنس، ليفي ستراوس، وفرنز بواس، ومالينوفسكي... وفي عالمنا العربي د. أحمد أبو زيد أحد أعمدة الدراسات الأنثروبولوجية العربية..

وعن منهجه في النص يقول المؤلف: «إن الموضوع الذي أخذت على عاتقي الكتابة فيه وعر المسالك، كثير الأغوار، ولكنني سأقول كلمتي المقرونة بحسن النية مستنداً على ملاحظاتي الشخصية للأوروبيين الذين عشت معهم السنين الطوال من إنكليز وأفرنسيس وألمان وروس وطليان وبلجيك وهولانديين ودنمركيين ونمساويين وأسبانوليين وغيرهم – مستعيناً بما طالعته في كتبهم، وأنا اليوم في العقد الرابع من العمر قضيت أكثره بين الأوروبيين لا أنفك ألاحظ أخلاقهم عند كل كلمة ولدى كل بادرة، ولهذا لن أبحث في أي خلق يشترك الأوروبي والشرقي، بل سيكون همي ذلك السلوك الذي صار أظهر ما يكون في الإفرنج والذي بسببه نجحوا نجاحاً بهر العالم المتمدن»[4].

لقد أراد لقمان أن يسلك مسرباً غير مطروق بالنسبة لقسط معتبر من المفكرين في ذلك الزمان فأخذ يدرس ويشاهد ويلاحظ وقرأ بإمعان الواقع ولم يتغافل عن كثير من الحقائق والمسلكيات فقدم صوراً ومشاهدات حية عن عادات وأخلاق الأوروبيين وألوان حياتهم دون رياء أو مبالغات مجانية فاستطاع أن يضع أصبعه على الجرح.

فزميله في الفكر والعقيدة والوجدان شكيب أرسلان توصل بعد فحص ومُدارسة وتأمل وتحليل حصيف إلى مسببات تخلف العرب والمسلمين عن الركب الإنساني في كتابه الموسوم: {لماذا تأخر العرب والمسلمون ولماذا تقدم غيرهم} 1930م، فهو لا يبسط سبباً واحداً لتأخر العرب والمسلمين، بل عرض عدة أسباب نبتسرها على النحو التالي:

1. الجهل «الذي يجعل فيهم من لا يميز بين الخمر والخل، فيتقبل قضية مسلمة ولا يعرف أن يرد عليها»[5].
2. العلم الناقص «الذي هو أشد خطراً من الجهل البسيط، لأن الجهل إذا قيض الله له مرشداً عالماً أطاعه ولم يتفلسف عليه، فأما صاحب العلم الناقص فهو لا يدري ولا يقتنع أنه لا يدري»[6].
3. فساد الأخلاق.
4. فساد الحكام وانحطاطهم.
5. العلماء المتزلفون لأمرائهم.
6. تغلغل الجبن والهلع في قلوب المسلمين.
7. التفرق والانغلاق على النفس.
8. الاستعمار الأجنبي الذي فرق المسلمين.
9. التطرف والجمود، أو بعبارة الأستاذ شكيب أرسلان «ضياع الأمة بين الجامدين والجاحدين»[7]، ويشرح هذه العبارة بقوله «إن آفة

الإسلام هي الفئة التي تريد أن تلغي كل شيء قديم، بدون نظر فيما هـو ضـار منه أو نافع، كذلك آفة الإسـلام هي الفئـة الجامدة التي لا تريـد أن تغيـر شـيئاً، ولا ترضى بإدخال أقـل تعديل على أصول التعليـم الإسـلامي ظنـاً منهم بأن الاقتـداء بالكفار كفـر، وأن نظام التعليم الحديث من وضع الكفار»[8].

10. عدم محافظة المسلمين على قومياتهم ودينهم وثقافتهم.
11. الجمـود والبـلادة في معرفة الدين والدنيـا، «فالجامد هو الذي مهد لأعـداء المدنية الإسـلامية الطريق لمحاربة هـذه المدنية محتجين بأن التأخر الإسلامي إنما هو ثمرة تعاليمه. والجامد هو سبب الفقر الذي ابتلي به المسلمون لأنه جعل الإسلام دين آخرة فقط. والحال أن الإسلام دين دنيا وآخرة... والجامد هو الذي شهر الحرب على العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية وفنونها وصناعاتها بحجة أنها علوم الكفار»[9].
12. فقـدان الثقـة بالنفس، «مـن أعظم أسـباب انحطاط المسـلمين في العصـر الأخير فقدهم كل الثقة بأنفسـهم وهو من أشـد الأمراض الاجتماعيـة وأخبـث الآفـات الروحيـة لا يتسـلط هذا الـداء على الإنسـان إلا أودى به... فكيف يصلح المجتمع الإسلامي ومعظم أهلـه يعتقـدون أنهم لا يصلحون لشـيء ولا يمكن أن يصلح على أيديهـم شـيء وأنهـم اجتـدوا أو قعـدوا لا يقـدرون أن يصارعـوا الأوروبيين في شيء»[10].
13. انصراف المسلمين إلى التعصب والعصبيات والبحث عن الأنساب والأصول. قال تعالى: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ**﴾[11].

فمحمـد علـي لقمـان آمن بالقيـم الحضارية الغربية وعلى رأسـها العلم

والتكنولوجيا وتحرير العقل والديمقراطية وحقوق الإنسان والتسامح والمساواة، «فالحرية وحدها هي الكفيلة بانتصار الحق وتقدم العالم نحو الكمال»[12].

فهو ليس مع الأطروحات التي تشدد على القطيعة بين الشرق والغرب وخصوصاً تلك العبارة التي كان يرددها **ردیارد کبلنج** «الشرق شرق والغرب غرب، ولن يلتقيا»[13].

تأثر بالحضارة الغربية بطريقة لا تجرح الاعتدال، ولم يذهب كما ذهب البعض من المغرمين بالحضارة الغربية حيث رفضوا الحضارة العربية والإسلامية مثلما جاء على طرف لسان **طه حسين** في كتابه (**مستقبل الثقافة في مصر**):

«بأن مصر كانت دائماً جزءاً من أوروبا في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية على اختلاف فروعها». وأن «علينا أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يُحب منها وما يُكره، أو ما يُحمد منها وما يُعاب»[14].

ومن الدعوات المتطرفة كتلك الدعوات التي كانت تدعو إلى «استبدال الحروف الأبجدية العربية بأخرى لاتينية ومثّل هذا الاتجاه سلامة موسى، عبد العزيز فهمي، وسعيد عقل»[15].

فلقمان يرى أن من أسباب تخلف المسلمين هو ابتعادهم عن الدين الإسلامي حيث قذفوا «بتعاليم الدين الحنيف عرض الحائط وأتت الأنفس مُناها وأقبلت على دنياها فجعلت إلهها هواها فوهنت قواها..»[16].

وهذا الضرب من البسط شبيه بما طرحه رواد النهضة المتنورون كجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وشكيب أرسلان.. الذين كانوا يؤكدون على ضرورة تنقية الدين الإسلامي من الشوائب وتجديد روح الإسلام بما يتلاءم مع روح العصر وإيقاعاته المتسارعة.

فلقمان ضد الخزعبلات والبدع التي شوهت الإسلام وضد الكهنوتية في الدين الإسلامي التي أصبحت عائقاً حقيقياً أمام تقدم الشعوب العربية والإسلامية، حيث ينتقد السماجة والجمود عند بعض رجالات الدين حيث يقول:

«إنك إذا ذكرت للفقيه مخاطبة أهل المريخ قال: أستغفر الله. وإذا نطقت بنظرية داروين استعاذ بالله من الكفر، وهو ما يذكرني بقيام الكنيسة على كرستوف كولمبوس عندما أعلن عزمه على اكتشاف أمريكا إذ وجد القسوس أن ذلك مخالف لقواعد كتبهم الدينية، وإنا لنرى بأم أعيننا ونسمع بآذاننا رؤسنا في الجزيرة العربية أقوام يرون كفراً القول بدوران الأرض والشمس رغم كل الشواهد التي لا تقبل النقض والإبرام»[17].

فلقد عانى المسلمون من قهر بدني وفكري في الحقب التاريخية الفارطة، والتي ما زالت جاثمة بظلالها حتى يومنا هذا. فالقيود الفكرية والحياتية والتهكم والوصاية والقسر وتعطيل العقل والاجتهاد والمبادرة، كل ذلك أدى إلى توقفنا عن إنتاج ما هو ضروري وقيّم في حياتنا.

لقد نجحت الأنظمة القاهرة بفسيفساءاتها المختلفة وبلبوسها الزاهية مرفوقة بمؤسسات ووجوه ومقامات روحية متيبسة في تسييج الإنسان من الناحية المادية والروحية، أما أسوأ صنوف القهر والإذلال، القهر الروحي وقتل روح المبادرة والتطلع في سويداء قلب الإنسان، والتدخل الفج في ضمير ورؤى وأفكار وخواطر وهواجس الإنسان.. فاستطاعت المكينة الهمجية المتخلفة أن تدجن الإنسان على عادات وتقاليد تتصادم في أحايين كثيرة مع القيم الدينية السمحاء، وتقيّد إنتاج الإنسان من الناحية المادية والروحية بصورة شوهاء إلى درجة تعطيل العقل، وإخماد فعاليته، وتعطيل ملكة الفكر ومن ثم إنتاج عادات وتقاليد وسلوكيات سمجة وبليدة خارج

قارعة الحضارة والتمدن، وبعيدة عن جوهر العقيدة الإسلامية.

فابتعاد المسلمين عن جوهر الدين واهتمامهم ببعض الطقوس والشعائر وفهمهم القاصر للدين وحصره في زاوية ضيقة غير متلازمة مع سلوكيات المسلمين وأخلاقهم، ووجود بون شاسع ما بين عقيدة المسلم ومسلكه الحياتي جعل الإمام **محمد عبده** (1849–1905م)، ينبهر بسلوكيات الغربيين التي تقوم بوجه عام على الصدق والاستقامة والأمانة، حيث قال عندما زار باريس:

«وجدت في الغرب إسلاماً بلا مسلمين وفي الشرق مسلمين بلا إسلام».

وعلى الغرار ذاته يشير لقمان إلى أن الأوروبي «كأنه تخلّق بأخلاق القرآن من حيث لم نعمل بها...»[18].

وفي نفس الاتجاه، ينتقد الأستاذ محمد علي لقمان القيم السلفية الصلدة وتعطيل ملكة العقل عند المسلمين والاهتمام بسفاسف الأمور التي تحجب القضايا الجوهرية في حياة المسلمين، وطريقة المطارحات والمساجلات الحادة التي تلتهم الوقت وتجمد الذهن وتضع المسلمين في أقفاص فكرية وحياتيه متكلسة تسبح في السطوح الراكدة حيث يقول:

«لكن المسلمين اليوم في عراك هائل في هل يصح أن يترجموا القرآن إلى اللغات الأجنبية أم لا؟ وكيف لا يجب ذلك...

ترجموه أو قولوا ترجموا معناه ولكن لا تتجادلوا فيما لا فائدة من ورائه»[19].

«علماء الدين مشغولون بصلاة العيد أين تكون؟ في المسجد أو في الميدان، يشغلون الرأي العام بسنة من سنن الدين والدين نفسه مهدد بالصهيونية والاستعمار من كل جانب»[20].

جملة، يمكن القول إن لقمان مع عناصر الصلاح في الحضارة الغربية

والاستفادة من رقيها وتمدنها ولا يرى تناقضاً جوهرياً ما بين الإسلام والمدنية الغربية، ولا يميل بتاتاً إلى مسألة التصادم ما بين الحضارتين على طريقة المفكر الأمريكي صموئيل هنتنجتون، وموقفة شبيه بموقف المتنورين العرب **كرفاعة رافع الطهطاوي** (1801–1873م)، الذي أكد أن الإسلام لا يتصادم مع مبادئ الثورة الفرنسية ولا مع المدنية الأوروبية و»جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية التي وصلت عقول أهالي الأمم المتمدنة إليها وجعلوها أساساً لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم قل أن تخرج عن تلك الأصول التي بُنيت عليها الفروع الفقهية. فما يسمى عندنا بعلم أصول الفقه يسمى ما يشبهه عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية وهي عبارة عن قواعد عقلية تحسيناً وتقبيحاً يؤسسون عليها أحكامهم المدنية. وما نسميه بالعدل والإحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية»[21].

2- علل المجتمعات الشرقية:

انحطاط المجتمعات الشرقية – حسب لقمان – يعود لانحطاط أخلاقها وتغلغل العادات الخبيثة إلى نسيجها المجتمعي و»دخلت على الشرقيين عادات قبيحة كثيرة كالمخدرات في مصر، والشاي في الحجاز، والقات في اليمن والحبشة وبلاد الصومال، والتامبول في الهند وشرق أفريقيا، والأفيون في الصين، والتدخين والخمر في جميع الممالك الشرقية، وقد أولع الناس بقتل الوقت بلعب الورق والدومنة والطاولة الساعات الطويلة بل الأيام المتوالية وهم بقتل الوقت إنما يقتلون أنفسهم أدبياً وهذا هو الانتحار الأدبي... أصبح شباب الشرق مدمنين على أخس العادات، وأصابهم الخمول ودب إليهم الكسل فصاروا من طلاب الرفاهية والراحة يقترفون الكبائر للتحصل على راحة الجسم وإشباع نهم النفس، وقد مات وجدانهم

وضاعت أوطانهم»[22].

وانتشرت المفاسد «واستسلمت الأمم الإسلامية اليوم للشهوات ولذلك خارت عزائمها وأصابها البوار»[23].

فالخمر و»المقامرة والزنا واللواط والفسق بكل صنوفه وقد أصبحت عادات راسخة بين كثير من الشرقيين وما يليق بهم وبلادهم مهبط الوحي ومنبع العرفان والتمدن»[24]، لأن العادة «توجد بعد تكرار الشيء حتى يصبح الأمر معتاداً فيما بين الأفراد... ويقصد من كلمة التعود والعادة عند علماء الاجتماع هي نوع من السلوك الفردي الذي أخذه عن طريق التعليم والتدريب»[25].

وبما أن العادة مكتسبة يمكن التخلص منها تدريجيا إذا ما وجدت الإرادة والنوايا الحسنة فهي ليست قدراً محتوماً، ومن هنا يؤكد لقمان إمكانية التخلص من العادات السيئة وكل فرد يبدأ بنفسه «وإذا ما أراد الإنسان أن يتغلب على نفسه ويصير كاملاً فاضلاً قوي الإرادة فما عليه إلا أن يتغلب على بعض عاداته أولاً كشرب الدخان والقات والخمر والكوكايين والحشيش ويتعود مع العزم قول الصدق وكبح جماح النفس. وقد تركت أنا عادة شرب الدخان ومضغ القات وأكل التمبول وشرب الشاي فوجدت في أخلاقي تبدلاً وتحسناً ومتانة»[26].

لقد أعجب لقمان بالإنسان الأوروبي الذي «أخضع الطبيعة وأجبرها على أن تخدمه خدمة العبد لسيده.. وخرج من قيود الرجعية إلى ميادين العلم والعمل، فتعلم اللغات على اختلافها وجاء إلى الشرق فلم يقتدِ بتلك العادات التي كانت منتشرة بين الناس متى وجدها لا تلائم ذوقه ولا توافق مشربه، ولكنه أخذ عن الشرق الفلسفة والحكمة والأدب والتصوف والرسم والنقش والعمارة وغير ذلك، وهكذا ميز بين الطيب والخبيث»[27].

3- أسباب رُقي الأوروبيين:

إن مواجهة الجهل والفقر والمرض وتخلف الذهنيات السائدة لن تتم إلا عبر نشر العلم والثقافة، حيث يقول لقمان «إن أول ما يعتني به المدرسون في المدارس والكليات والجامعات الأوروبية، هو تهذيب أخلاق التلاميذ وإفهامهم معنى الحياة وما هم مقدمون عليه من نضال وتنازع، فيأخذ الطفل عن أساتذة دروساً في شتى الفنون والعلوم، وقلما تجد فيهم شاباً غير ملم بقسط وافر من علم النفس، كما تجد المعلم يملي على تلامذته العلوم الكثيرة ويشوقهم إلى الارتشاف من مناهلها العذبة مما يجعل أنفسهم في تعطش مستمر»[28].

والمدارس التي حلم بوجودها لقمان ليست تلك المدارس التي تنفر الناشئة من الدراسة «حيث يبقى التلميذ في المدرسة كأنه سجين، وإذا قذف به في مُهامه الحياة وجد نفسه في بحر خضم تتقاذفه أنواؤه وتهز به أمواجه، وهو غض رطب لا يقوى على مقاومة ذلك التيار الجارف فيقع»[29].

فهو مع نظام التعليم الحديث في المدرسة الذي يحقق هدفين رئيسيين وهما:

التعلم والتكييف، حيث يشير علماء التربية إلى أن «الجو المدرسي السليم من أهم الدوافع للتعلم، فعندما يشعر المتعلم أن المدرسة بيئة مرغوبة لديه، وأنه يحظى بتقدير زملائه فإن ذلك يزيد من نشاطه وإنتاجيته»[30].

فالمدرسة عند لقمان لا بد أن «تحتوي على ميادين الرياضة، والمكاتب الحافلة بأثمن الكتب، والمتاحف، ودواوين المحاضرات والمناظرات، وأماكن العبادة ووسائل النزهة وترويح النفس بالنظر إلى الصورة المتحركة والتمثيل وسماع الموسيقى»[31].

لقد فطن محمد علي لقمان منذ وقت مبكر أن التعليم أس من أسس

التقـدم والنماء، أو على حد تعبير الأسـتاذ مصطفى نبيـل رئيس تحرير مجلة الهلال المصرية أن «التعليم هو المدخل الصحيح للنهضة»[32].

فالجهـل عدو للعلـم والثقافة والتنويـر، ورجال الإكليـروس في أوروبا في عصر النهضة: «حاربوا العلم وأهله حتى خرج عليهم لوثير الشـهير وتبعه كالفيـن، وكانت الحركة الإصلاحية التي هذبـت النفوس وأبرزت رجالاً هم غـرر التاريـخ الحديـث والأدب والفلسـفة والعلـوم على اختلافهـا والفنون جميعها»[33].

والديانة الإسـلامية «تشـجع على ارتشـاف لبان العلـوم ولا تقف حجر عثـرة في سـبيل رقي الإنسـان بل تدله علـى طريق التقدم وتأمره بالاسـتعداد وتمنحه الحرية المطلقة في عقيدته..»[34].

وفي السياق ذاته حث لقمان على تعليم الفتاة قبل أكثر من سبعين سنه، ومـا يحـز في النفس أنـه ما زالت هناك سـلوكيات غير متأقلمـة مع العصر، وعقول متحجرة في الخيال الاجتماعي تدور في دائرة المنع والنبذ والتحريم لتعليم الفتاة، وتصر على أن تعليم الفتاة يتقاطع مع الدين الإسـلامي. وهذا ما خطب به خطيب مسجد في يوم الجمعة 3/ 3/ 2006م، حيث شن «هجوماً مقذعاً على تعليم الفتاة والتحاقها بالمدرسة وعدّه محرماً تحريماً شرعياً»[35].

لقـد صدق الأسـتاذ محمد علـي لقمان حين قال: «لا يُرجى للمسـلمين تقدمـاً ونسـاؤنا فـي وديان الخمول يرتعن بالأسـاطير ولا يفهمـن في العلوم الدينيـة والدنيويـة شـيئاً، فهـذه مُصابـة بالزار وتلك بالسـحر وأخـرى أقلقت راحتها الأرواح الإبليسية، وقد تعلقن بالأوهام ورضعن لبان الجمود ووجدن أنه لا وظيفة لهن في هذا الوجود سوى إشباع نهمة الرجل.

حـرام على المسـلمين أن يرضوا لبناتهم هـذا الانحطاط الأدبي والتأخر الأخلاقي وهم يرون بأم أعينهم تدهور الأبناء بسبب جهل الأمهات، ولينظروا إلى أوروبا فيجدون العالمات المهذبات والصحفيات الراقيات والمحاميات

والوزيرات والطبيبات والخ، أليس من العار أن عدن مثلاً، فيها معلمة واحدة عربية تجيد القراءة والكتابة والحساب؟... ما بال **مس نايدو** الشاعرة الهندية لم يفسد أخلاقها العلم والأدب؟

إن العلم يصلح ولا يفسد والله يهدي من يشاء»[36].

وعن أسباب رقي الأوروبيين يسرد لقمان بطريقة حصيفة مترعة بالعمق والتحليل أسباب رقيهم وانحطاط الشرقيين:

1. التعليم «من أهم أسباب رقي الأوروبيين نظام المدارس ووسائل التربية فيها وتعليم البنات على وجه الخصوص..»[37].
2. الاعتماد على النفس، حيث يلاحظ لقمان أن التنشئة الاجتماعية في الشرق لا تربي في الناشئة روح الاعتماد على النفس فتجد «العائلة العربية المؤلفة من 15 عضواً فيها الوالد والأم والأولاد والبنات والأقارب جميعهم يعتمدون على فرد واحد وهو رأس العائلة عادة فإذا مات تشتت شمل هذه العائلة وذهبت بها عاديات الدهر أدراج الرياح وتدهورت في بؤر الفساد وذهبت تتكفّف أيدي الناس لأن أفرادها لم يُعوّدوا الاعتماد على النفس»[38]، «إن التواكل جرّ على الشرق كل بلاء»[39].
3. العمل، تفوق الأوروبيون بأعمالهم وانضباطهم، فالعمل مقدس عند الأوروبي حيث: «يعمل الإفرنجي ويفتش عن مواطن النقص في جميع أعماله ويصلح الخلل في كل لحظة حتى يبلغ بأعماله درجة الكمال»... فهو «مضطر إلى الكسب ليقدم بأود نفسه لأنه يعرف أنه قد يموت جوعاً قبل أن يحسن إليه أحد من الناس»[40].
4. الرياضة، يعتبرها لقمان من أسباب رقي الحضارة الغربية، فقبل أن ينصح الشرقيين بممارسة الرياضة مارسها لقمان بنفسه وبشكل يومي. يتذكر الأستاذ جعفر مرشد في معرض ذكرياته عن الفقيد

محمد علي لقمان «كان الفقيد رياضياً يعشق التنس الأرضي ويمارسها يومياً وعندما انتقل إلى منزله الذي بناه من عرق جبينه في الخليج الأمامي، جعل من الساحة المقابلة للمنزل ملعباً للتنس الأرضي يمارس فيه رياضته المفضلة..»[41].

5. العزم، تختلف غايات الناس في هذه الحياة وللوصول إلى الغايات المنشودة لا بد من عزم وجزم وتضحية للوصول إلى المآرب «وهكذا قد تتوق نفس كنفس عبد الرحمن الناصر إلى توطيد مُلك راسخ البنيان، وتتشوق روح كروح نابليون إلى امتلاك ناصية العالم، ويود رجل كغاندي أن ينال الاستقلال لوطنه، ولكن هل يجدون في ذواتهم وفي أنفسهم العزم لتنفيذ تلك الرغائب»[42]. فقوة الإرادة وقمع شهوات النفس سُلم للوصول إلى المجد «وأمامنا الهندوس الذين يضربون لنا المثل العظيم في الصرامة في معاملة النفس إلى حد الامتناع عن الأكل والشرب واللباس وترك الشهوات واللذائذ جميعها، وكذا قل عن بعض السادة الصوفية الذين يأبون الاستسلام لهوى النفس»[43].

6. الاستعداد، الاستعداد المدروس وغير العشوائي للحوادث والنوازل عملية من عمليات التبصّر «فمن أستعد لحوادث الدهر بات آمناً مطمئناً قرير العين هادئ الجأش ناعم البال»[44]، «وما الاستعداد إلا التفكير في العواقب والنتائج والأخذ بالأحوط لما قد يأتي به الزمان في مستقبل الأيام من حوادث لم تكن في الحسبان»[45]، فمن «واجب الشرقيين اليوم هو أن يحذوا حذو الغربيين في الاستعداد للطوارئ ولا يوجد طريقة أجدى وأحمد من تعلم الناشئة والبنات بنشر الثقافة الإسلامية والشرقية عموماً وبث العلم وتشجيعه والبذل والسخاء لعمارة المدارس والمعاهد العلمية وإرسال البعثات من

نجباء الشبان إلى أوروبا للتخرج من كلياتها لإعلاء كلمة الشرق والأوطان»[46].

7. اغتنام الفرص، على الإنسان ألا يضيع فرص النجاح حيث قد لا تتكرر الفرصة مرة أخرى، ويورد لقمان العديد من الوقائع المتعلقة باغتنام الفرص حيث يقول إن: «الدكتور بترى المبشر في» الشيخ عثمان» بجوار عدن يغتنم فرصة مرض حفيدة الإمام يحي في تعز فيرافق البعثة الطبية كمستشار للطبيبات ويعود حاملاً تقريراً عن اليمنيين يقول فيه إنهم قوم يعتقدون بالخرافات والأوهام وكرامات ابن علوان الخارقة»[47].

فلقمان يشعر بغصة ألم في قلبه حين ضاعت من بين يديه فرصة مواصلة الدراسة العليا في الجامعات الإنجليزية بسبب مرض زوجته التي ماتت، ولكنه يعجب بالأستاذ أحمد محمد سعيد الأصنج «حين سافر إلى قحقحة لبعض الأعمال فجعل طريقه على هرر ودردوة ثم لاحت له فرصة الرحلة إلى أديس أبابا فلم يضيعها، لأنه قد لا يتمكن من زيارة الحبشة مرة أخرى في المستقبل كما هو الواقع، وكان قبل هذه الرحلة قد تمكن من السفر إلى عواصم أوروبا مغتنماً أسعد الفرص»[48].

8. النظام والترتيب، لقد كانت الدقة والنظام والترتيب والانتظام العام محل استحسان الأستاذ محمد علي لقمان، فلقد درج الأوروبيون على تنظيم أعمالهم وحياتهم الشخصية في أدق الأشياء فيقول: «عرفت الخواجة بيس العصامي الفرنسي فإن تراكم الأشغال بين يديه لا يعيق قيامه بالألعاب الرياضية، وكثرة واجباته لا تمنعه عن ملاحظة مستخدميه والسؤال عنهم وفحص أشغالهم وما ذلك إلا لأن الغربي تعوّد أن يضع كل شيء في محله ويقوم بكل واجب

فـي حينـه، فـإذا ما وصله خطـاب وضعه في الملـف المعد له عند وصوله»[49].

فالعربـي واليمنـي لا يخطّط لحياته ولا ينظـم أعماله ولذلك تجده «كئيباً مهموماً كثير الأشغال... لا يجد فرصة للمطالعة ولا لحضور الحفلات الأدبية ولا للرياضة ولا للنزهة»[50]، فالغربي إذا وعد وفى بوعده، والشرقي لا يستطيع الوفاء بالوعد لعدم ترتيبه لأموره «خذ خطابـاً من أوروبا تجده بالغاً الدرجة القصوى في الحصافة والدقة والنظافـة والنظـام والجـذاب بخط جميل ومداد واضـح أو مكتوباً بالآلـة الكاتبـة المتقنـة، ولكنك لا تجد ما يضاهـي هذه الخطابات بيـن خطوط الهنـود والصينييـن... ولاحظت منذُ سـنين أن أوراق دعـوات الـزواج في عدن تصدر مفعمة بالغلطـات المطبعية بحجة أنهـا تطبع في مطابع أجنبية، ولكـن أصحاب الدعوات لا يكلفون أنفسـهم تصحيـح غلطات المصفف حتى صـارت بعض الغلطات مما يمجّها الذوق السليم وتأباها الأسماع»[51].

وعـن سـر تقدم الأوروبيين يشـير لقمـان أنه عائد إلـى «نظام تربية الناشـئة وتهذيبها وفي أسـاليب التعليم الحديثة التي قام يدعو إليها أمثـال العالـم «ديوي» الأمريكي الشـهير، وفي تعلم علوم الفلسـفة النفسـية أو كما يسـميها بعضهم علم السـلوك الإنسـاني التي آتت الإفرنج قوة الملاحظة ومعرفة مدارك الناس[52].

ولقـد اسـتفاد لقمـان من قـوة الملاحظـة والمعرفة عنـد الأوروبيين حيث يعجب بدقة ملاحظاتهم التي يتم تسجيلها في مذكرات خاصة، ويروي لنا قصة سفره إلى الصومال مع تاجر حضرمي ظل طوال فترة الرحلة نائماً «حتى عدنا إلى بربره والشيخ لم يعرف من رحلته سوى اسم مدينتين واسم رجل واحد في كل مدينة ولم يستطع بعد الإياب

أن يقول لنا هل كانت الأرض زراعية أم جرداء أم رملية؟»[53].

وعلى خلاف سفره مع تاجر إنجليزي من جفجقة إلى مدينة برعو في الصومال حيث لاحظ «إن التاجر الإنجليزي تمكن في بضع ساعات.. من تدوين أسماء المحلات التي مررنا بها ودرس الأرض وجبالها وماءها وأشجارها وحيواناتها ونظام معيشة أهلها، وأخذ صوراً عديدة للمناظر الطبيعية وقبل تمام الرحلة سمعته يكلم الصوماليين بلغتهم»[54].

9. الأسفار، الأسفار لها فوائد عظيمة في معرفة العالم والمناطق الجغرافية ومعرفة عادات وتقاليد وثقافات الشعوب لمزيد من التخالط والتعارف والتثاقف:

و»الغربيون ألفوا الأسفار وألفوا الكتب وشرحوا في بطونها مشاهداتهم وتاريخ الممالك والأمم ووصف عاداتهم وأخلاقهم وجمعوا من رحلاتهم الأموال الطائلة والعلوم الكثيرة وجمعوا كنوزاً لا تأكلها النيران واستعمروا بلداناً صارت لهم تراثا وأوقافاً حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً»[55].

10. الاتحاد، قوة الغرب تكمن في اتحاده والأوروبي «حريص على حقوقه ضنين بها لا يتنازل مثقال ذرة منها وهو حُر صريح يجاهرك بحقه ويطلبه ولو من فم الأسد ويقيم الدنيا ويقعدها إذا لم ترد إليه حقوقه، بل إنه يتصلب في طلب ما ليس من حقه»[56]. فقوة المسلمين تكمن في اتحادهم وفي الإسلام قوة واتحاد للمسلمين: «خذ نظام الزكاة في الإسلام، خذ نظام الأوقاف في الإسلام، خذ نظام الجهاد في الإسلام، خذ نظام الصلاة في الإسلام، خذ نظام الحج في الإسلام، خذ نظام الزواج في الإسلام، تجد العجب العجاب، تجد في هذه الأنظمة التي شرعها الله لعباده وضمنها

أسس النجاح والفلاح والرفاهية والسعادة والقوة والمتعة، بل أس الوحدة المنشودة»[57].

11. التخصص في العلوم، لشيوع الجهل وقلة المعارف كانت التخصصات الدقيقة غائبة في الشرق لعدم رقي العلم وهشاشة الذخيرة العلمية والمعرفية:
«نجد في أوروبا المجلات الطبية وهذه تنقسم إلى أقسام: فمنها المتخصص في الجراحة، ومنها المختص بالأسنان ومنها الذي لا يخوض في غير مرض العين. ثم تقرأ المجلات الطبيعية في البيولوجي (علم الحياة) والجيولوجي (علم طبقات الأرض) والأثنولوجي (علم طبقات الناس) وكل مجلة تكاد تتخصص في أبحاث دون أبحاث»[58].

والتخصصات الدقيقة شائعة في العلوم الطبيعية والاجتماعية في أوروبا أما الشرق فلا زال في سبات عميق. لقد اندهش الأديب والرحالة اللبناني أمين الريحاني عندما زار اليمن في عشرينات القرن العشرين حيث قال:

«كأنك في السياحة في تلك البلاد السعيدة، قولاً وتقليداً تعود فجأة إلى القرن الثالث الهجري، لا مدارس، ولا جرائد، ولا أدوية، ولا مستشفيات في اليمن. إن الإمام هو المعلم والمحامي والكاهن»[59]، «إن التخصص اليوم شرط من شروط الرقي. وفروض العلم اليوم تجعل التخصص لازماً، فقلما وجدنا طبيباً ومهندساً في آن واحد وميكانيكياً معاً، لأن ما يجب على العالم درسه لإتقان أحد هذه العلوم يمنعه من خوض غمار غيرها»[60] بالإضافة إلى المسائل الآنفة الذكر التي عرضها الأستاذ محمد علي لقمان وأدت إلى نهوض أوروبا استعرض أيضاً أهمية: الشعور القومي، النصح والإرشاد، ومبدأ المصلحة العامة، وحرية الفكر، والتجلّد، والمكافأة وتقدير الخدمات.. والتي كانت من العوامل الحضارية لنهضة أوروبا.

العادات الأخلاقية والسلوكية عند الغربيين والشرقيين
مستمدة من روح ومضمون مؤلف محمد علي لقمان
(بماذا تقدم الغربيون؟)

القيمة الأخلاقية والسلوكية	الغربي	الشرقي
1– التعليم	متعلم	غير متعلم
2– الاعتماد على النفس	يعتمد على نفسه	لا يعتمد على نفسه
3– العمل	متقن لعمله	غير متقن لعمله
4– الرياضة	يمارس الرياضة	لا يمارس الرياضة
5– العزم	لديه قوة عزيمة	خائر القوى وبدون عزيمة
6– الاستعداد	مستعد للحوادث والمفاجآت	غير مستعد للحوادث والمفاجآت
7– اغتنام الفرص	يغتنم الفرص	لا يغتنم الفرص
8– الأسفار	يستثمر أسفاره للمعرفة	لا يستفيد من أسفاره
9– الوحدة	متّحد ومتضامن مع أبناء جلدته	غير متّحد ومنعزل عن أبناء جلدته
10– التخصص في العلوم	متخصص في العلوم	غير متخصص في العلوم
11– الشعور القومي	معتز بهويته وقوميته	قليل الاعتزاز بقوميته
12– النصح والإرشاد	يسمع النصيحة ويرشد أخاه	قليل النصيحة ولا يسمع إلا صوته
13– المصلحة العامة	تهمّه المصلحة العامة	لا تهمّه المصلحة العامة
14– حرية الفكر	حر في تفكيره	مقيد في تفكيره
15– التجلّد	صادق العزم لا يمل	قليل العزم وسريع الملل
16– تقدير الخدمات	يقدر العامل وخدماته	لا يعطي كل ذي حق حقه

4- الخطاب التنويري عند لقمان:

لا نشـك لحظـة فـي أن الأسـتاذ محمد علي لقمـان تأثر بمبـادئ الثورة الفرنسـية وبالثقافـة العالميـة، حيث كان واسـع الاطلاع علـى الثقافة العربية والإسـلامية والشـرقية بوجـه عام، وعلـى الثقافة الغربية: «والدعوة للدسـتور ولحريـة الرأي والقول المحدودة، وحرية التجارة كلها قد بدت كتأثير للثورة العالمية، وبالأخص الفرنسـية، المباشـر وغير المباشـر، إلا أنها كانت – دون شك – تعبيراً عن ضرورات مجتمعية يمنية ملحة»[61].

اعتـرف بـدور العقـل والعلم وحرية الفكـر وتعليم المـرأة وآمن بالتقدم والديمقراطية والإنصاف ونشـر إشـعاعات النور وثقافـة الأنوار للانعتاق من القوالـب الجامدة والأفكار والعـادات المطمورة، حيث يقول: «إن اليمني إذا تعلم فإنه يستطيع أن يصل في التفكير العلمي إلى مستوى الأمريكي والكندي سواء بسواء، لأن نظرية تفوق بعض الناس من البشر على البعض الآخر نظرية قد ذهبت مع الريح»[62].

لقد كان يصرخ منذ أكثر من نصف قرن إن: «الأمة العربية تقف في مفترق الطريـق، إمـا أن ترفع علم الحضارة، وإما أن تظـل تتهدم وتنقرض وتتهافت عليهـا الأمـم لغـرض اسـتعبادها واسـتغلالها»[63]، وأن «أمة لا دسـتور لها لا إصـلاح فيها. إننا نريد حكومة دسـتورية مقيدة وإلا فلـن يرضى اليماني بغير جمهورية ديمقراطية لا تكون فيها الحكومة غير خادمة لهذا الشعب المظلوم والمهضوم. لن يهدأ لنا بال حتى نرى في جنوب الجزيرة وخصوصاً في اليمن هيئات ثلاث: تشريعية، وتنفيذية، وقضائية. ولن نأمن على أولادنا، وأحفادنا حتى نرى هذه الهيئات ينتخبها الشـعب. فهي من الشـعب وإلى الشـعب. لا ملكية في اليمن أو ملكية دستورية مقيدة. هذا هو نداؤنا»[64].

ولقد كان الأستاذ لقمان مع حرية الفكر والعلم والصحافة وحرية الكلمة والمنابر الثقافية، ووجه انتقادات للمؤسسـة الروحية مستشـهداً بما حدث في

أوروبا من «حرب شعواء بين الكنيسة والعلم أولاً، ثم أعقبها حرب أخرى بين الحرية والاستبداد وفاز العلم وفازت الحرية، فكانت الحرية سبباً في إنقاذ أوروبا من ويلات الجهل وظلمات الرجعية»[65].

فهو من دعاة الحرية المتّزنة التي لا تؤدي إلى الفوضى ويرى أن «الحرية التامة تؤدي حتماً إلى الفوضى المادية ولا بد من قوة أو وازع يجعل هذه الحرية تسير سيراً حكيماً كما هو الحال في كثير من ممالك الغرب»[66].

ولقد رفع راية التسامح والإخاء والمساواة والعقلانية وأعجب بروح التسامح في الرأي في البلدان الأوروبية وكيف أن الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية: «طالما رأينا إنكليزيين وفيين مخلصين صديقين وقد احتدم الخصام بينهما على موائد البرلمان وفي قاعات المجالس السياسية لانهما لم يتفقا في المبادئ ولكنهما يعودان إلى الصفاء والوفاء بعد مغادرة تلك المجالس»[67].

وكان لقمان رافعاً لراية تعليم المرأة وتحررها من الضيم الذي يقع عليها، ومن الشائق في هذا الصدد القول إن دعوة لقمان تعد امتدادا للدعوات التي رفع لواءها الطهطاوي وقاسم أمين (1863–1908م) ففي مؤلفه (المصريون، 1894م)، كان قاسم أمين مع فكرة تعدد الزوجات، إلا أنه غيّر قناعته في مؤلف آخر موسوم بـ(تحرير المرأة، 1899م)، حيث أوضح بجلاء لا لبس فيه أنه ضد تعدد الزوجات إلا في حالات استثنائية حيث يقول:

«لا يعذر رجل يتزوج أكثر من امرأة: اللهم إلا في حالة الضرورة المطلقة كأن أصيبت امرأته الأولى بمرض لا يسمح لها بتأدية حقوق الزوجية. أقول ذلك ولا أحب أن يتزوج الرجل بامرأة أخرى حتى في هذه الحالة وأمثالها حيث لا ذنب للمرأة فيها، والمروءة تقضي أن يتحمل الرجل ما تُصاب به امرأته من العلل كما يرى من الواجب أن تتحمل هي ما عساه كان يُصاب به»[68].

أما الأستاذ محمد علي لقمان فله باع مشهود بالنطاسة والعمق والاطلاع على الأديان والحضارات وقوانين الزواج والطلاق، يعرض فكرة المفكر آرثر شوبنهور الذي كان مع مبدأ تعدد الزوجات في أوروبا «لكثرة عدد النساء اللائي لا يجدن أزواجاً»، فلقمان يومئ إلى أن الإسلام أباح الزواج بأربع زوجات «اتباعاً لأوامر القرآن الكريم ﴿... **فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً**...﴾، واشترط العدل بين الزوجات والمساواة بينهن في المعيشة. وقال بعض العلماء بالعدل بينهن حتى في الميل والمحبة". و"الإسلام لم يوجب تعدد الزوجات ولم يندب إليه وأشار إليه بصورة تدل على أن فاعله قلما يسلم من الظلم لأن العدل بين الزوجات لا يتيسر للإنسان...

وأنا لو سئلت عن رأيي الشخصي لقلت أن الزواج بأكثر من واحدة ظلم لا مبرر له"[69]، وإن كان لقمان يعتقد أن رأيه «صادر عن عاطفة لا عن رويّة»، إلا أنه بوجه عام لا يحبّذ تعدّد الزوجات إلا في حالات استثنائية، فمن المتعذّر على الزوج إقامة القسطاس بين الزوجات من زاوية معيشية وجنسية وعاطفية.

وسيكون من المفيد أن نذكر أن الطهطاوي دعا إلى حرية المرأة وحقها في العمل «العمل يطهر المرأة.. ودعا إلى عدم تعدد الزوجات وتعهد لزوجته بأنه لا يأخذ عليها زوجة ثانية ولا سويّة ولا خليلة ولا جارية، فإن فعل ذلك فهي حرّة، ومن حقها أن تحصل على الطلاق»[70].

وحتى لا نطيل نقول إن الخطاب التنويري للأستاذ محمد علي لقمان تميز بالانفتاح والمثاقفة والعقلانية والسجال التنويري وتأثر بالخطاب التنويري العربي حيث: «كانت الفكرة الرئيسة عند المتنورين العرب تتمثل في الاعتراف بالدور الخاص للعقل والعلم في حياة المجتمع. وكان عليهم إنجاز مهمة بالغة الصعوبة، وهي التغلب على الجهل والخرافات والعادات

القديمـة وعلـى التعصب الدينـي. وكانت مأثرتهم الكبـرى تتمثل في محاربة تجهيلية العصور الوسطى، ومحاولة إصلاح المجتمع عن طريق التنوير»[71].

الخاتمة:

ليس غريباً أن تبزغ في سـماء الثقافة والتنوير شـخصية متنورة ومتفتحة كالأسـتاذ محمـد علـي لقمـان، فبيئة عـدن الثقافية والحضاريـة تركت بصمة عزيـزة فـي مسـيرته التنويرية «لأن تطويـر القدرات الإبداعية لـدى المرء منذ الطفولة لا ينفصل عن العملية الشـاملة للتنشـئة الاجتماعية والثقافية والتنشئة التعليمية»[72].

ففي طور باكر من حياته تعلم القرآن والشريعة الإسلامية واللغة العربية، وعشـق الأدب، وحفظ المعلقات السـبع في العاشرة من عمره، ودرس على أيـدي كوكبـة مـن الفقهـاء في المسـاجد، وفـي مدرسـة الإخوان المسـيحية (1913م) فـي التواهـي، كان على همزة وصل قوية بأسـاتذته (القس فاليريان، والقس جريجوري). وأطلع على المدارس الفكرية والفلسفية الحديثة، وترك بصماته التنويرية في الساحة الثقافية[73].

ومنذ عشـرينيات القرن العشـرين بدأت تظهر النوادي الأدبية والتي كان الفضـل لـه فـي زرع بذرتها الأولى (نادي الأدب العربـي 1925م – عدن)، ثم تتالـت الأندية الأدبيـة والثقافية «نوادي الإصلاح العربي الإسـلامي، ومخيم أبـي الطيـب، وكرمة أبي العـلا، ورابطـة الجامعيين العدنييـن، ونادي الأدب والفن، ونادي الشـباب الأدبي، وحلقة الملاح التائه، ونادي الشباب الثقافي، ورابطـة شـباب عـدن، والمنظمة المتحـدة للشـباب اليمني، وجمعيـة المرأة العربية، والرابطة القومية للكتاب العرب، ومؤتمر الخريجين»[74].

وهـو المؤسـس لمخيـم أبـي الطيـب المتنبي فـي 16 مـارس 1939م في عـدن، وكانت شـروط العضوية فيـه «إلزامه لكل عضو بالمشـاركة في إعداد

المحاضـرات وإلقائهـا، وجعل ذلك أحد شـروط العضوية فيـه – إلزامه لكل عضو بالحضور المنتظم»[75].

والطريـف أن كتـاب: **بمـاذا تقدم الغربيـون؟** أعده الأسـتاذ لقمان كمادة تثقيفية لأعضاء نوادي الإصلاح العربي الإسلامي، وتبعه كتاب لأحمد سعيد الأصنج، **نصيب عدن من الحركة الفكرية الحديثة** عام 1934م، وكتاب للأستاذ هاشم عبد الله، **جزيرة العرب تتهم حكامها**، 1947م.

فعدن مدينة يمنية كانت تفوق بتمدنها المدن العربية الأخرى أو تتشـاطأ معها في النمو والتحضّر حيث دخلت المطبعة إلى عدن عام 1854م، وأنشئت أول مدرسة للتعليم الحديث في عدن عام 1856م، وافتتحت المكتبة الحديثة عـام 1884م، وأسـس أول نـادي رياضـي عـام 1887م، وبـزغ المسـرح عـام 1904م، وفي عام 1939م أصدرت جريدة محمية عدن ثم جريدة فتاة الجزيرة عـام 1940م التي أسسـها محمد علي لقمان، وصـدر أول قانون عن النقابات ونزاعـات العمـل عـام 1942م، وافتتحت الإذاعة عـام 1954م، والتلفزيون في سبتمبر 1964م[76].

وغني عن البيان القول إن الأستاذ لقمان يعتبر رائداً للرواية اليمنية حيث ألف رواية (سعيد 1939م)، وترجم الرواية الهندية «زهرة الآلهة (كميلا ديفي)» إلـى العربية، بينما يعتبر الأسـتاذ أحمد البراق رائـد القصة القصيرة في اليمن حيث دشن عمله القصصي بقصة «أنا سعيد في نوفمبر 1940م».

ولعبـت جريـدة «فتـاة الجزيـرة» دوراً رائداً فـي التنويـر المجتمعي وفي تحريك المشـهد الثقافي الذي يمور بالحراك والإبداع والتحديث إلى جانب الصحف الأخرى مثل: «صوت اليمن»، «القلم العدني»، «الفضول»، «الفكر»، «المستقبل»، «النهضة»، «البعث»، «الأيام»، «الجنوب العربي»...

وكانت لمحمد علي لقمان بصمات واضحة لا تخطئها العين على حركة الأحـرار حيـث ارتبط بعـروة وثقى مع قـادة الأحرار اليمنيـن، أحمد محمد

نعمان ومحمد محمود الزبيري وزيد الموشكي، وله بصمات في دعم حزب الأحـرار الدسـتوري، (1944م) ومـن ثـم الجمعيـة اليمنية الكبـرى (1946م)، حيث ترك أثره في حركة الأحرار وله يد في مساندة انقلاب 1948م ضد نظام الإمامة في شمال اليمن «سابقاً»، والتي كانت تطالب بدستور وشورى وحكم عادل ومحاربة المفاسد والجهل والظلام.

وشـهدت الحركـة الثقافية والأدبيـة حركة تنوير وعـراكات ثقافية وأدبية وتنويرية عالية الجودة لا تخرج عن نطاق العقلانية والتنوير ما بين الاتجاهات الثقافيـة بألوانهـا الطيفيـة كتلك السـجالات ما بين: الشـيخ محمد بن سـالم البيحانـي (1908–1972م)، والشـيخ علـي محمد باحميـش (1910–1977م)، وبيـن الأسـتاذ عبـد الله باذيـب (1931–1976م)، والشـاعر لطفـي جعفر أمان (1928–1971م).

ودارت على صفحات «فتاة الجزيرة»، المطارحات النقدية ما بين الشاعر محمـد عبـده غانم والمثقف محمد أحمد بركات، وفي مجلة «المسـتقبل» ما بيـن الشـاعر لطفـي أمان مـن جهة، والشـيخ البيحاني والشـيخ كامل عبد الله صلاح من جهة أخرى حول موضوع (آفاق في الدين والفلسفة والأدب) وعن المعتزلة. وامتدت هذه السجالات الأدبية والثقافية حتى منتصف السبعينيات من القرن العشرين حيث تواصلت المجادلات النقدية المتنورة ما بين الأستاذ عبد الرحمن فخري والأسـتاذ زكي بركات عن الواقعية والواقعية الاشـتراكية في الأدب والفن.

فمحمد علي لقمان كان يقدر دور العلم المحوري في نهضة الشـعوب، فهو يؤكد أن أوروبا تطورت بالعلم والسـنن الحميدة وسـيكون انهزامها على همزة وصل بانحلالها الأخلاقي. فلكي ينهض الشرق لا بد من الأخذ والتفاعل البنـاء مـع الحضارة الغربية مع الحرص على المنـازع الدينية وعدم الانجرار وراء المسـاوئ والموبقـات، فهناك قيم أخلاقية وسـلوكية قـادت الأوروبيين

للمجـد لا بد من الاسـتفادة منهـا: كالعلم، والاعتماد علـى النفس، والعمل، والرياضـة، والعزم، والاسـتعداد، واغتنام الفـرص والوحدة، والتخصص في العلوم، والشـعور القومي، والنصح والإرشـاد، والمصلحة العامة، والتجلد، وتقدير الخدمات.

أمـا خطابـه التنويري فلا ينتمي لجنس الأصـوات الصاخبة والممجوجة ولـم يتميز بالرومانسـية أو بمفاهيم عارية من الصحة، بل كان واقعياً وله بعد تنويـري يرفـض انخراس وقتـل ملكة التفكيـر ولا يتنطع بتمسـكه بالحضارة الغربيـة علـى اعتبـار أن هذه الحضـارة تحمل بيـن جنباتها عناصـر للصلاح والطـلاح، ويجـب توظيـف عناصـر الصلاح لنهضـة الأمة مـن كبوتها وعدم الركـون للكسـل والتـواكل، فلا بـد من عزيمة وإصرار لكسـر قيـود العادات الرتيبة المعيقة للتمدن لبلوغ المقاصد والمجد.

أما أهم البصمات التنويرية في نص الأستاذ محمد علي لقمان فتتجلى في:

- الحرية البعيدة عن مناخات القهر والاعتساف.
- تحديث الدولة والمؤسسات الديمقراطية.
- نشر العلم والثقافة والتنوير للخروج من كهف التخلف.
- الدعوة للعقلانية والانفتاح الحضاري.
- بناء المجتمع المدني الحديث.
- الدعوة للنهوض والتنمية المجتمعية.
- المناداة بالوحدة العربية والإسلامية.
- تحديث الثقافة والمعرفة.
- حرية العقل والفكر للتخلص من ترسانة الأوهام والبدع العقلية.
- التسامح المدني.
- المثاقفة والتفاعل الحضاري.
- عدم التنافر بين العقل والإيمان.

- نبذ التيبّس والتحجّر الديني ونشر قيم الاستنارة.
- حرية الكلمة والإعلام والصحافة.
- حرية السوق والتجارة.
- التحرر من الاستعمار.
- مناهضة الظلم والاستبداد والعبودية.
- الدعوة لحرية الفرد من ربقة الظالمين وعدم التدخل الفج في ضميره ومعتقداته.
- الدعوة لحرية المرأة وتعليمها لكسر شرنقة الجهل والجمود وملامسة أصابع النور.
- مناداته بالدستور وفصل السلطات لبناء منطاد دولة الحق والقانون.

وختاماً نقول كما قال الأستاذ عبد العزيز المقالح ذات يوم: «آن لنا بعد هذه التجربة العميقة والطويلة أن نجعل الأفكار – كل الأفكار – تدخل من الأبواب ونتعامل معها كزائر يسمع منا ونسمع منه بدلا من أن تتسلل إلينا من النوافذ وتدخل إلى منازلنا كاللص دون استئذان لتسرق أجمل ما ندّخره ونعتز به»[77].

الهوامش

1. حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر (بحث استطلاعي اجتماعي)، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية (ط3، 1986م)، ص 398.
2. المجاهد محمد علي لقمان المحامي (رائد النهضة الفكرية والأدبية الحديثة في اليمن)، الأعمال المختارة: جمع وإعداد ودراسة: أ. د. أحمد علي الهمداني. (ط1، 1426هـ–2005م)، (دون معلومات إدارية) ص 79.
3. المجاهد محمد علي لقمان، بماذا تقدم الغربيون؟ مرجع سابق، ص 59–138.
4. المرجع السابق، ص 62–63.
5. شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، (بيروت: منشورات دار الحياة، 1965م)، ص 73.
6. المرجع السابق، ص 73.
7. المرجع السابق، ص 88.
8. المرجع السابق، ص 88–89.
9. المرجع السابق، ص 15.
10. المرجع السابق، ص 149.
11. المرجع السابق، ص 164.
12. المجاهد محمد علي لقمان، مرجع سابق، ص 67.
13. مجموعة من الكتاب، الغرب بعيون عربية، الجزء الثاني، (الكويت: كتاب العربي، 60)، (15 إبريل 2005م)، ص 193.
14. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، (القاهرة: مطبعة المعارف، 1938م)، ص 26، 45.
15. طيب تيزيني، من التراث إلى الثورة، حول نظرية مقترحة في التراث العربي، (بيروت: دار ابن خلدون، ط1، 1976م)، ص 121.
16. المجاهد محمد علي لقمان، مرجع سابق، ص 87.
17. المرجع السابق، ص 81.
18. المرجع السابق، ص 80.
19. المرجع السابق، ص 80.
20. محمد علي لقمان، (ما هو الدستور)، فتاة الجزيرة (عدن)، العدد 294، (2/ 11/ 1947م)، ص 1–2.

21. أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي مع النص الكامل لكتابه: (تخليص الإبريز)، دراسة وتعليق د. محمود فهمي حجازي، (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 1974م)، ص 41.
22. المجاهد محمد علي لقمان، مرجع سابق، ص 88.
23. المرجع السابق، ص 57.
24. المرجع السابق، ص 87–88.
25. محمد محمد طاهر آل شبير الخاقاني، علم الاجتماع بين المتغير والثابت، (بيروت: دار مكتبة الهلال، 1987م)، ص 222.
26. المجاهد محمد علي لقمان، مرجع سابق، ص 87.
27. المرجع السابق، ص 64.
28. المرجع السابق، ص 65.
29. المرجع السابق، ص 66.
30. صالح محمد علي أبو جادو، سيكولوجية التنشئة الاجتماعية، (عمانْ: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط1، 1998م – 1418هـ)، ص 254.
31. المجاهد محمد علي لقمان، مرجع سابق، ص 65–66.
32. الغرب بعيون عربية، مرجع سابق، ص 105.
33. المجاهد محمد علي لقمان، مرجع سابق، ص 67.
34. المرجع السابق، ص 67.
35. الأيام (عدن)، السنة 25، العدد 4727، (5/ 3/ 2006م)، ص 1.
36. المجاهد محمد علي لقمان، مرجع سابق، ص 69–70.
37. المرجع السابق، ص 65.
38. المرجع السابق، ص 71.
39. المرجع السابق، ص 74.
40. المرجع السابق، ص 75–76.
41. المرجع السابق، ص 48.
42. المرجع السابق، ص 85.
43. المرجع السابق، ص 88.
44. المرجع السابق، ص 90.
45. المرجع السابق، ص 90.
46. المرجع السابق، ص 93.
47. المرجع السابق، ص 95.
48. المرجع السابق، ص 96.

49. المرجع السابق، ص 97.
50. المرجع السابق، ص 97.
51. المرجع السابق، ص 98.
52. المرجع السابق، ص 101.
53. المرجع السابق، ص 102.
54. المرجع السابق، ص 102.
55. المرجع السابق، ص 108.
56. المرجع السابق، ص 109–110.
57. المرجع السابق، ص 111.
58. المرجع السابق، ص 115.
59. أمين الريحاني، ملوك العرب، (بيروت: مطابع صادر الريحاني، ط3، 1951م)، ص 167.
60. المجاهد محمد علي لقمان، مرجع سابق، ص 117.
61. عبد العزيز المقالح، عبد الله البردوني وآخرون، زيد الموشكي شاعراً وشهيداً، سلسلة أعلام الحرية في اليمن (2)، (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، بيروت: دار الآداب، ط1، 1984م)، ص 11.
62. محمد علي لقمان، (وسائل النهوض بجنوب الجزيرة)، فتاة الجزيرة (عدن)، العدد 359، (16/ 12/ 1947م)، ص 1–2.
63. محمد علي لقمان (ما هو الدستور)، مرجع سابق، ص 1–2.
64. محمد علي لقمان، (نريد حكومة دستورية مقيدة)، فتاة الجزيرة (عدن)، العدد 389، (21/ 9/ 1947م)، ص 1، 8.
65. المجاهد محمد علي لقمان، مرجع سابق، ص 129.
66. المرجع السابق، ص 129.
67. المرجع السابق، ص 122.
68. محمد عمارة، قاسم أمين – الأعمال الكاملة، (القاهرة: دار الشروق، ط2، 1989م)، ص 395.
69. محمد علي لقمان، (تعدد الزوجات)، في: أقلام المخيم (مخيم أبي الطيب)، (عدن: مطبعة فتاة الجزيرة، 1942م)، ص 11، 12، 13.
70. ندوة: (الحركات السياسية الإسلامية في مصر السمات العامة، القاعدة الاجتماعية، مصادر الخطاب، أسباب العودة والانبعاث)، مجلة النهج (دمشق)، العدد 25، (1989م)، ص 10.
71. ز. ك. ليفين، الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث (في لبنان وسوريا ومصر)، ترجمة: بشير السباعي، (بيروت: دار ابن خلدون، 1978م)، ص 51.
72. شوقي جلال، (الإبداع.. هل هو موهبة فردية؟)، العربي (الكويت)، العدد 529، (ديسمبر

2002م)، ص 25.

73. لمزيد من الاسترسال انظر: محمد علي لقمان (ذكريات 1–6)، في كتاب: عبد الرحمن خبارة، نشوء وتطور الصحافة في عدن 1937–1967م، (شركة الأمل للطباعة والنشر د.ت) ص 119–129.
74. علوي عبد الله طاهر، عدن في التاريخ بين الازدهار والانهيار، (27 أغسطس 1997م)، (بدون معلومات إدارية)، ص 99.
75. الموسوعة اليمنية في أربعة مجلدات، المجلد 4، (صنعاء: مؤسسة العفيف ج. ي، يناير 2003م)، ص 2570.
76. لمزيد من الاسترسال انظر: د. سمير عبد الرحمن الشميري (عدن المدنية والحراك الثقافي)، مجلة المستقبل العربي (بيروت)، السنة 23، العدد 259، (9/ 2000م)، ص 80–94.
77. عبد العزيز المقالح، أحمد الحورش الشهيد المربي، (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمنية، بيروت: دار الآداب، ط1، إبريل 1983م)، ص 100.

المبحث الثاني

قراءة سوسيولوجية
في خطاب النعمان التنويري

المقدمة:

أحمد محمد نعمان (1909–1996م)، شخصية قلقة ومتنورة يمكن قراءتها على غير وجه، وسنتعسف التاريخ لو نظرنا إليه بمنظار اليوم غير مكترثين بالظروف التاريخية التي عاشها وبالمشقات التي كابدها وبكؤوس المرارات التي تجرّعها.

فهذا الرجل حمل فأس التغيير لتهشيم هامة التخلف بطيوفه وألوانه، فتعرض للسجن والقيود والعزلة والإهمال، تعرض للذل والمهانة وللجور والاعتساف الشنيع، وللنفي الجسدي والنفسي، ولكتم الأنفاس. وفي غير مرة كان بينه وبين الموت شعرة معاوية، نجا بأعجوبة من مقصلة الجلاد، وطار بلا أجنحة في سماء الحرية يشدو لها ويترقب انبلاج فجر السعادة والنماء والإنصاف.

لقد تحمل النعمان نتائج مواقفه الشجاعة وحمل رأسه بين يديه متشحاً بالنبل ومزداناً بالكبرياء فهو شخص معارض غير مستقر تنقل بين السجون والمنافي القسرية والاختيارية...

وكان، على غير وفاق مع العسكري ولو كان باسم الثورة والتغيير لينتهي به المطاف قبيل اعتزاله السياسة نزيل السجون الحربية في مصر... حيث كان يصرخ في وجه السجان في سجن القلعة بالقاهرة: لا نريد حرية القول.

أعطونا حرية البول[1].

1- أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في رصد مفردات الخطاب الثقافي والتنويري للأستاذ/ أحمد محمد نعمان ومستوى الرُقي الثقافي والتنويري الذي وصل إليه هذا المثقف والمنور.

فالخطاب التنويري للأستاذ النعمان هو امتداد لحلقات التنوير في المجتمع اليمني التي بزغت على صفحات مجلة الحكمة اليمانية (1938-1941م) - أحمد عبد الوهاب الوريث، وأحمد المطاع، وعبد الله العزب، أو حلقات التنوير المبكرة التي قادها الأستاذ محمد علي لقمان (1898-1966م) في مدينة عدن مع ثلة من المفكرين والمبدعين على صدر صفحات «فتاة الجزيرة 1940م» أو في إطار النوادي الثقافية والتنويرية، كنادي الأدب العربي 1925م، والمخيمات الأدبية والفكرية الأخرى.

2- هدف البحث:

يهدف البحث إلى:

1. توضيح مفهوم الخطاب الثقافي - والتنويري.
2. ربط الخطاب التنويري للنعمان بالبيئة الاجتماعية.
3. رصد مراحل تطور خطاب النعمان التنويري.
4. تبيان أهم ملامح وقسمات الخطاب التنويري عند الأستاذ/ أحمد محمد النعمان.

3- منهج البحث:

استند هذا البحث على منهج تحليل المضمون (**cont net analysis**)،

الـذي يفـكك ويحلـل بُنيـة الخطـاب الثقافي بمنأى عـن التلبـك والتهويش. وانتخبنا نصوصاً ثقافية وتنويرية للأسـتاذ النعمان التي تتشـاطأ مع غايتنا التي دأبنا للوصول إليها.

إن الهـدف مـن منهج تحليـل المضمون هو أخذ كل الـدلالات اللغوية والمعنويـة والواقعيـة المفصليـة للخطـاب طبقـاً لأبعـاده الأربعـة، ووضـع النـص في سـياقه الاجتماعـي وفي آلياته الاتصالية، ومعرفـة النص بأكبر قدر مـن الموضوعية والشـمول من أجـل العثور على بنية الفكر وهي نفسـها بنية الموضـوع. وهـو نوع مـن التطابق كضمان للموضوعية، بيـن الفكر والواقع، بين المعرفة والوجود[2].

4- تساؤلات البحث:

إذا كان الخطاب على حد تعبير المفكر الفرنسي ميشال فوكو هو: سلسلة من الجمل والافتراضات، ويمكن تعريفة كمجموعة كبيرة من الأحكام تنتمي إلى نظام تشكيلة واحدة – ما يسمى بالتشكيلة الخطابية... وسيكون بمقدوري أن أتكلـم عـن خطاب عيادي، خطاب اقتصادي، وخطـاب التاريخ الطبيعي، خطاب طب الأمراض العقلية[3].

تلح على ذهني أسئلة تقع في صميم تساؤلات البحث:

- ما نوعية الخطاب الذي بسطه الأستاذ/ أحمد محمد نعمان؟
- في أي بيئة اجتماعية وُلد هذا الخطاب؟
- وما المراحل التي مر بها خطاب النعمان التنويري؟
- وهـل توجـد علاقـة بيـن الخطـاب التنويـري للنعمان وممارسـاته العملية؟
- وما خصائص خطاب النعمان التنويري؟

5- مصادر جمع المعلومات:

البحث الذي بين أيدينا اعتمد على الدراسة المكتبية، حيث تم قراءة الكتب والمقالات والأبحاث التي أصدرها الأستاذ/ أحمد محمد النعمان وتمكنا من الاطلاع على بعض الرسائل للأستاذ/ النعمان... وأهجس أن إنتاجاً معتبراً من فكره ما زال في طي النسيان أو أننا لم نتمكن من الوصول إليه، وعلى ضوء ما وصل إلينا واستطعنا الاطلاع عليه صغنا هذا البحث الذي يحاول أن يتلمس طريقه صوب الحقيقة ويعطينا البصيرة الواضحة لمسار خطاب النعمان التنويري.

6- الإطار الزمني للبحث:

عاش المنور والمثقف اليمني أحمد محمد النعمان في غميس أوضاع متعاجمة ومتناقضة، وشديدة القتامة، ومترعة بالجهل والبؤس والتخلف، وسار فوق صفيح ساخن غير مرتكن لليأس والقنوط، وخاض حروباً قاسية في أوضاع معتمة ووعرة وجاهد مع كوكبة من المتنورين. وتبعاً لذلك فالإطار الزمني لهذا البحث يشمل منتصف الثلاثينيات وحتى منتصف سبعينيات القرن العشرين، ففي عام 1934م بدأ النعمان نشاطه التنويري وأسس مدرسة للتعليم ونادي الأدب العربي وفي منتصف السبعينيات اعتزل التنوير والحياة السياسية (13 يونيو 1974م).

7- هيكلة البحث:

هذا ويتكون البحث من النقاط التالية:

1. مفهوم الخطاب.
2. البيئة الاجتماعية للخطاب.
3. مراحل تطور خطاب النعمان التنويري.

أ- مرحلة المدح والنصيحة والتقويم (1935-1948م).
ب- مرحلة الثراء الثقافي (خمسينيات وستينيات القرن العشرين).
ج- مرحلة الواقعية والتذمّر (نهاية الستينيات - منتصف سبعينيات القرن العشرين).

1- مفهوم الخطاب:

الخطاب كما يشير عالم الاجتماع أنتوني غدنز: منهج فكري في مجال محدد في الحياة الاجتماعية. وعلى سبيل المثال، فإن خطاب التجريم يعني الطريقة التي يفكر بها الناس في مجتمع ما ويتحدثون بها عن الجريمة[4].

والمراد بالخطاب - حسب تعبير د. عبد الأمير زاهد - مجموعة المنتجات الفكرية التي يراد إيصالها إلى متلقٍّ عبر نصوص مكتوبة أو مسموعة أو مرئية تقدم موقفاً شمولياً - أو جزئياً - من قضية أو مشكلة... ولا يسمى المنتج الفكري هذا خطاباً إلا إذا تلقاه المتلقون، وإن تعددت توصيفاتهم سواء كانوا من المثقفين أم من عامة الناس، وتفاعلوا معه وفهموا مقاصده وغاياته في ما يُجمل بتسميته «قراءة الخطاب»، فيكون الخطاب وسطاً للعلاقة بين منشئ لديه رغبة في إيصال فكرة ما - ومتلقٍّ يقرؤه ويستوعبه، سواء بقراءة محايدة أم بقراءة متضامنة أم بقراءة محايدة سلبية أم بقراءة ناقدة وواعية[5].

والخطاب ثمرة من ثمرات الإنتاج الفكري والكدح الذهني، وهو رسائل مقروءة أو مسموعة يرسلها رجل الكلمة والفكر إلى المجتمع، أو إلى جماعات اجتماعية محددة.

وعندما نتحدث عن الفكر العربي - أو أي فكر، ونحن نعني منتجات هذا الفكر، فإننا نقصد أساساً مجموعة من النصوص. والنص رسالة من الكاتب إلى القارئ فهو خطاب.

فالاتصال بين الكاتب والقارئ إنما يتم عبر النص تماماً مثلما أن الاتصال

بين المتكلم والسامع إنما يتم عبر الكلام، أي عبر الإشارات الصوتية...

فكما أن المعنى الذي تحمله الإشارة الصوتية هو، في آن واحد، من إنتاج المتكلم والسامع، فكذلك المعنى الذي يحمله النص، في آن واحد، من إنتاج الكاتب والقارئ.

الكاتب يريد أن يقدم فكرة أو وجهة نظر معينة في موضوع معين، وهذا خطاب، والقارئ يتلقى هذه الفكرة أو وجهة النظر كما يستخلصها هو من النص بالطريقة التي «يختارها».. تأويلاً للخطاب أو قراءةً له. هناك إذن جانبان يكونان الخطاب: ما يقوله الكاتب وما يقرأه القارئ[6].

وتبسط لنا أ. د. حميدة سميسم جملة من التعاريف لمصطلح الخطاب لثلة من المفكرين:

1. يعرف معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة الخطاب بأنه «مجموع التعابير» الخاصة تحدد بوظائفها الاجتماعية ومشروعها الأيديولوجي.
2. أما «فوكو» فيرى أن الخطاب هو (النصوص والأقوال كما تغطي بمجموع كلماتها ونظام بنائها وبنيتها المنطقية أو تنظيمها البياني).
3. فيما تعرفه بعض الأدبيات البنيوية بأنه (الطريقة التي تشكل بها الجمل نظاماً متتابعاً تسهم نسق كلي متغاير ومتحد الخواص، وعلى نحو يمكن معه أن تتألف النصوص نفسها في نظام متتابع لتشكل خطاباً أوسع ينطوي على أكثر من نص مفرد).
4. كما يشير مصطلح الخطاب إلى نظام فكري يتضمن منظومة من المفاهيم والمقولات النظرية حول جانب معين من الواقع الاجتماعي بغية تملّكه معرفياً، ومن ثم تفهّم منطقه الداخلي، وذلك من خلال (هيراركية) فكرية محددة تنتظم بناء المفاهيم والمقولات، بشكل استدلالي يحكم الضرورة المنطقية التي

تصاحب عملية إنتاج المفاهيم[7].

والتعريف الإجرائي للخطاب في هذا البحث هو جملة من الأطروحات والاجتهادات الذهنية المقروءة والمسموعة، المرسلة من عقل ووجدان المثقف والمفكر إلى عامة الناس، تحمل بين جنباتها شحنة مفعمة بالنقد لوضع اجتماعي حالك الظلمة، وينير مضائق الأذهان ويوقظ الضمائر والعقول لاختراق الحجاب السميك من العتمة والجهل والتخلف الكمي والزمني، للخروج من شرنقة البؤس ودياجير الظلام والجمود والتحجر والتسلط الأرعن، وللتخلص من الاغتصاب المستمر لحياة الناس بدون وجه حق، ومصادرة حقوقهم وإذلال آدميتهم.

2- البيئة الاجتماعية للخطاب:

وُلد خطاب النعمان التنويري من رحم بيئة اجتماعية تقليدية مستبدة، ونقصد بالبيئة الاجتماعية:

البشر والطبقات والفئات والعلاقات الاجتماعية والبُنى والمؤسسات والمكانة الاجتماعية والأدوار والأقارب والمحيط الاجتماعي، والنظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية والثقافية والتعليمية والأخلاقية.

والبيئة التي نعيش فيها نوعان: بيئة طبيعية وبيئة اجتماعية.

يقصد بالبيئة الطبيعية كل ما يحيط بالإنسان من الأمور المادية. أما البيئة الاجتماعية فيُقصد بها المجتمع البشري وعلاقات أفراده وجماعاته بعضهم ببعض.

فالبشر والعلاقات البشرية، على اختلاف أنواعها، سواء كانت اقتصادية أم سياسية أم مهنية أم ثقافية أم سيكولوجية أم غير ذلك تتألف منها البيئة الاجتماعية...

ويسمي **هربرت سبنسر** البيئة الاجتماعية بالبيئة فوق العضوية في مقابل

البيئتين العضوية وغير العضوية[8].

فالفضاء الاجتماعي الذي عاش فيه الأستاذ/ أحمد محمد نعمان، فضاء متحجر ومغلق ومعادٍ لكل ما هو عصري وحديث، حيث تميزت البيئة الاجتماعية بالتحجّر والتخشّب ومعاداتها للثقافة والعلم والانفتاح والتسامح.

لقد ضرب الأئمة على اليمن عزلة كاملة ومنعوا الثقافة الحديثة وتداول الصحف والكتب والمجلات، ولم تشهد هذه الفترة مشاريع تنموية صحية أو تعليمية أو شق للطرقات أو تشييد للبُنى التحتية، وحتى فترة قريبة من قيام ثورة 26 سبتمبر 1962م، كان الراديو من الممنوعات ومن يكتشف أن لديه راديو أو مسجلة يتعرض للسجن والتعزير.

وكان التعليم مقتصراً على العلوم الدينية (قرآن، حديث، سنّة نبوية شريفة)، ويبدأ في المعلامة المنتشرة في القُرى اليمنية وغالباً ما تكون في المسجد، والتي تتلخص مهمتها في تعليم الناشئة مبادئ القراءة والكتابة. ولعل أشهر المدارس الفقهية آنذاك هي: المدرسة الشمسية في ذمار، والمدرسة العلمية في صنعاء، ومدرسة زبيد، التي درس فيها الأستاذ/ النعمان بعد أن ختم القرآن في قرية ذولقيان عزلة ذبحان قضاء الحجرية لواء تعز.

استمرت دراسته للعلوم الشرعية في زبيد من عام 1923–1930م. وتعمق لدى النعمان، خلال السنوات السبع التي قضاها في زبيد، الإيمان الشديد بأهمية العلم وبشكل مطلق في بناء الشعوب والدول، وبالمرونة وعدم التعصب لمذهب أو عقيدة أو اتجاه، وهي صفات ظلت تلازمه طوال حياته السياسية[9].

وكانت المهمة الرئيسية للتعليم آنذاك تأهيل الطلاب من أبناء الفئات العليا للقيام بمهام تحصيل الضرائب والزكاة والمهام الحكومية التنفيذية القهرية المرهقة للسواد الأعظم من الشعب.

فالتنشئة الاجتماعية آنذاك كانت مهمتها المفصلية المحافظة على النظام

الاجتماعي القائم وحفظ التراتب الاجتماعي في المجتمع اليمني والمكانة الاجتماعية، حيث كان التدرج الاجتماعي يتسلسل حسب ما تؤكده المصادر العلمية على النحو التالي:

1- السادة 2- القضاة 3- مشائخ القبائل 4- كبار ملاك الأراضي والتجار 5- صغار التجار 6- الفلاحون 7- الصناع والحرفيون 8- اليهود 9- العبيد والأخدام[10].

وكان الخوف يحتل مرتبة معتبرة في أفئدة الناس، حيث يُربى الطفل منذُ نعومة أظافره على طاعة الله وولي الأمر وعدم الخروج عن طاعته حتى في حالة خروجه عن قسطاس العدالة والإنصاف ومخالفته للشريعة الإسلامية. يقول الأستاذ/ أحمد محمد نعمان:

لقد ورثنا عن آبائنا تقديس ولي الأمر، والسمع والطاعة لهم، والدعاء لهم سراً وجهراً، لأنهم خلفاء الله في الأرض، وقد مات آباؤنا على حبهم وولائهم[11].

فالفضاء الاجتماعي الذي عاش فيه الأستاذ/ النعمان مترع بالظلم والفوضى والاستبداد والفساد والرشوة والاعتساف لآدمية الإنسان. ولقد استطاع الشاعر محمد محمود الزبيري (1910-1965م)، أن يصف وصفاً دقيقاً ما يعانيه الناس والفئات المستضعفة في المجتمع من كبت وظلم وفقر وجهل ومرض، حيث يقول:

ماذا دها قحطان؟ في لحظاتهم بؤس وفي كلماتهم آلام
جهل وأمراض وظلم فادح ومخافة ومجاعة وإمام
....
والناس بين مكبل في رجله قيد وفي فمه البليغ لجام
والاجتماع جريمة أزلية والعلم إثم والكلام حرام

فالفلاحون هم الغالبية العُظمى من السكان، حيث كان يتوجب على الفلاحين دفع ضرائب وإتاوات مختلفة في كل موسم زراعي، ويمكن بسطها على النحو التالي:

1. المخمِّن: وهو المبعوث من قبل الحكومة عندما تنبت الأرض بالزرع لتقدير حجم الأرض المزروعة وسعتها.
2. الكاشف: وهو المبعوث من قبل الحكومة للكشف عن أحوال الزراعة ومحاصيلها، وذلك عندما تحمل الأرض بالسنابل.

   إذ يتحمل الفلاحون أعباء هذين الرجلين من صرفيات ومأكل ومشرب، ويلزم شيخ القرية الفلاحين بدفع نقود للكاشف والمخمن، حتى لا يكونا أكثر ظلماً في تقديراتهم للمحصول والضرائب على المواطنين.
3. الأعشار (ضريبة الأرض): وتبعاً لذلك يسدد الفلاحون للحكومة عشر المحصول في كل موسم زراعي إذ أن القائمين على هذا العمل يأخذون أكثر بكثير من عشر المحصول.
4. زكاة المخضر: ويعني زكاة على كل ما ينبت في الأرض من خضار وفواكه.
5. زكاة النخل: تؤخذ من الفلاح ضريبة على ذلك حتى ولو كان الفلاح يملك نخلة واحدة.
6. زكاة المواشي: تأخذ من الفلاح زكاة على المواشي حتى ولو كان يملك شاة واحدة.
7. زكاة الباطن: ضريبة على كل مغترب خارج الوطن حتى ولو كان في (عدن).
8. الخطط والتنافيذ: وهذا أسلوب قهري يستخدمه الإمام وأعوانه لقمع أي تمرد أو أي انتفاضة أو أي استياء من قبل المواطنين، إذا

رفضوا أن يدفعوا ما كان عليهم باطلاً. وترسل السلطات مجموعة من الجنود إلى القرية المعنية ويتسلطون على أهلها[12].

كانـوا يذهبـون إلى بيوت الفلاحين، يعيشـون ضيوفاً علـى الفلاحين ثم يطالبـون هـؤلاء الفلاحين بأن يطعموهم مما يتمنـى الفلاح أن يأكله ولو مره واحـدة في السـنة. يفرض عليه تغذيتهم بالدجـاج والبيض ويضربونهم ضرباً عنيفاً إذا امتنعوا.. كانوا يجلسون عند الفلاح حتى يذهب إلى الحاكم ويسدد مطالب الحكومة ثم يأتي بوصل يعترف له بأنه سدد ما عليه.. إذا تمرد الفلاح أو خالف ترسـل مجموعة من الجنود ليتسلطوا على القرية بأكملها، ويعيشوا في القرية على نفقة الفلاحين.

وكانـت جميـع القرى المجـاورة مجبرة علـى تحضير الطعـام وتقديمه للجنـود إلى المركـز الموجود في القرية، أو يبقى الجنود في بيوت الفلاحين يعيشون على نفقة هؤلاء الفلاحين[13].

ففي هذه البيئة الاجتماعية عاش الأسـتاذ/ أحمد محمد نعمان وتحسس بأنامله أوجاع وآهات الناس، واستمع إلى زفراتهم الحزينة التي تطلق في ليل دامس العتمة.

لقد عاش وتشـبع الأسـتاذ/ النعمان بما يعتمل في غميس الواقع، وجاء خطابـه التنويـري ليعكس مفـردات الحياة اليومية للشـعب اليمني وحلمه في التحرر من ربقة الظلم والاستبداد وللخروج من الأقفاص الحديدية بمضامينها المادية والرمزية.

3- مراحل تطور خطاب النعمان التنويري:

أ- مرحلة المدح والنصيحة والتقويم (1935-1948م):

تبـدأ هـذه المرحلـة بانتهاء الحرب اليمنية السـعودية وحـرب الإمام مع الإنجليـز في جنوب الوطـن وانهزام المملكة المتوكليـة اليمنية في الحربين،

حيث بدأ الشباب في كل من تعز وإب والبيضاء وصنعاء والحديدة بالتقرب من الأمير أحمد للتأثير عليه من أجل مصلحة الأمة وتنتهي هذه المرحلة بفشل حركة 1948م.

قبل قليل أو أقل من دخول مرحلة النصح والإرشاد للإمام وولي عهده أحمد الذي تقلد هذا المنصب عام 1937م، أقدم النعمان والزبيري وآخرون على التقرب من ولي العهد أحمد بمدحه والإعلاء من شأنه تمهيداً لولوج مرحلة النصح والإرشاد والتقويم للإمام وولي عهده أحمد.

واتفقا (النعمان والزبيري) على أن يشيدا بولي العهد رجاء أن يخطو خطوات مستقيمة في طريق الإصلاح، ويجعل لواء تعز الذي كان يحكمه أنموذجاً للتطور، وأن ينفخا في غروره ليشعراه بأنه هو الأمل المرتجى لإنقاذ اليمن... فكانا يتباريان في إطرائه والثناء عليه في كل مناسبة، هذا يقوم خطيباً يشجعه على النهوض بالبلاد بنشر العلم ورفع الظلم ببراعة فائقة في اختيار اللفظ وجودة السبك، ما أثار إعجاب ممدوحه فسماه خطيب اليمن، وكان الزبيري يفعل الشيء نفسه شعراً فسماه شاعر اليمن[14].

ويشير الأستاذ أحمد محمد نعمان إلى إننا:

كنا نعتقد أن ولي العهد الذي سيصبح فيما بعد الإمام أحمد، مع تجاوبه معنا ومشاركته في مجالسة في المساجلات الأدبية إننا ربما نستطيع في بعض المناسبات أن نقنعه بإدخال العلوم واستقدام المدرسين من الخارج وإرسال البعثات.

وكانت تقام حفلات بمناسبة الأعياد، وبصفتي مدير المعارف كنت أتقدم والقي كلمة بين يدي ولي العهد أذكر فيها اقتراحاتي وتمنياتي، ويقف آخر يلقي قصيدة شعرية، فيعجب بها الأمير.

فكانوا يحاولون أن يوموا بالأفكار إيماء من خلال المدح، وعلى سبيل المثال، الأستاذ الزبيري.. قال في مناسبة أحد الأعياد:

العيد من بسمات ثغرك يشرق والدهر حول جلال عرشك مطرق
والأرض نيرة بوجهك تزدهي والشعب أفئدة بحبك تخفق
ربتك أمك التي ترجو بما صنعته مجداً في يديك يحقق
فنشأت في أجفانها وقلوبها تخشى عليك من النسيم وتشفق
تأوى بصدر حنانها لم تفتقد في عابدين ولا احتواك خورنق[51]

وفي إطار قراءته النقدية للخطاب العربي أشار الأستاذ معن بشور إلى أن الخطاب العربي اتسم بأسلوبين:

الأسلوب الأول هو أسلوب التبرير الدائم لكل الأخطاء وأحياناً لكل خطيئة، تقع فيها أنظمتنا أو أحزابنا أو قياداتنا، وهو أسلوب يفقد صاحبه الحد الأدنى من المصداقية المطلوبة للارتقاء بأدائه السياسي العام، كما يفقد الحد الأدنى من المصداقية المطلوبة للارتقاء أولاً وتحليل أسباب الوقوع فيها ثانياً.

أما الأسلوب الثاني فهو أسلوب التشهير الدائم الذي لا يرى سوى الجوانب المظلمة.

وهو أسلوب يعزز الخطاب التناحري ويقيم المتاريس العصبوية بين أبناء المجتمع الواحد، ويعطل فرص التطور الديمقراطي الذي يستحيل حدوثه دون تطور مماثل في الحزبية[16].

أما خطاب النعمان التنويري فقد تجنب أسلوب التبرير للنظام الإمامي الاستبدادي القائم، ولم يتقوم على مدماك الشتم والتشهير، وكان حريصاً شديد الحرص ألاّ يقع في دوائر التبرير والتشهير ولم يتخذ من أساليب المغالطة والتزييف للحقائق منطلقاً لأطروحاته، حيث يقول النعمان: لسنا نقصد تشويه سمعة الحكومة والبلاد كما يقول من لا يهمهم أمر وطنهم[17].

بل إن هذا الخطاب منذُ (الأنة الأولى) 1937م، حاول أن يضع الأصبع على الجرح دون مواربة أو خوف ودون مساحيق أو رتوش:

مـن ينكـر اليـوم أن في البـلاد مظالم يجب أن تزول وفقـراً مدقعاً يجب أن يعالج وعطالة ملء السهل والجبل في حاجة إلى مقاومة شديدة وأمراضاً فتّاكـة فـي الأخـلاق والنفـوس وثـروة مهملـة لا ينتفـع بهـا أحـد واحتـكار للمناصـب والوظائف وتكالب على ذلك حتى غدا كبار الموظفين عبارة عن مديري شركات تجارية والوظائف سلع تعرض للبيع والشراء؟ من ينكر اليوم أن سـيل الهجـرة الجارف يجتـاح الرجال والأطفال والشـباب وعصا الجوع تسوقهم وسوط الظلم يشردهم وينفرهم؟ فهل من عطف وإشفاق؟ هل هناك عدل يعود الناس إلى ظله ويتدثرون ببروده؟

أم أن الحالة لا تزال هي هي، ورجال الظلم هم هم؟[18].

لقد حاول النعمان أن يسـدي النصيحة إلى ولي الأمر، عسـى أن يتراجع عـن غيه ويصلح الأمور لما من شـأنه سـعادة ورخاء الأمـة وتجنبها الويلات والكـوارث، وتميـزت خطاباتـه بالليونـة والحكمة وعدم قطع حبـل المودة. وحاول عبر هذا الخطاب بداية أن يحتفظ بشـعرة معاوية مع الإمام عسـى أن يعود إلى الطريق السوي حيث يقول:

يـا صاحـب الجلالـة، إن أملنـا عظيـم فيكـم ورجاءنا كبير سـيما ونحن حريصون على أن نشـرح لكم آلام الأمة التي تهمكم قبل كل إنسـان، نقص على جلالتكم من أخبارها ما حال بينكم وبين سماعه المغرضون المستبدون الجائـرون الحاكمون بأمرهـم. ولن نخرج عن المبادئ التي دعوتم إليها أول أمركـم حين كنتم تحاربـون الأتراك وتثورون عليهم وتقدمون مطالبكم إليهم وتنشدون للأمة السعادة وتعدونها وتمنونها وهي مواعيد صادقة وأماني لذيذة لو وجدتم «الوقت المناسب» لحققتموها. ومثلكم يا صاحب الجلالة إذا قال صـدق وإذا وعـد وفـى وإذا حلف لم يفجر. وحاشـا لله أن تكـون مواعيدكم وأمانيكم من قبيل «يعدهم ويمنيهم»[19].

وعلـى نفس المنوال ينصـح المربي والعلامة محمد بن سـالم البيحاني

(1908–1972م) الصديق الحميم للأستاذ/ أحمد محمد نعمان والشاعر محمد محمود الزبيري، ينصح الإمام يحيى من مغبّة التغاضي عن المظالم التي تقع علـى رؤوس النـاس ومن التدخلات الفظّة والخشـنة للجنود في حياة الناس العادية والبصمات السـلبية التي تتركها التصرفات غير الإنسـانية على الرعية، حيث يقول:

يا أمير المؤمنين. إن دخول الجنود بيت الرعية لجباية الأموال أو لتأديبهم أو لأي شـيء آخر أمر لا يقره دين ولا ترضى به شـريعة ولا يقبله أي قانون أو ذوق سليم...

والعالـم جميعه يعلمـون أو يظنون أن في اليمن مالاً كثيراً وثروة عظيمة لا يستهان بها، ولكن كيف يكون أمرهم ومن الذي سيتولاها؟ وما هو المراد من جمعها وتكديسـها في الخزائن والمغارات والكهوف كما يشـيعون ذلك. ولأي شيء تدخر سوى إصلاح البلاد وإسعاد بنيها؟ فما أجمل أن تحصوها وتضبطوها ضبطاً تاماً ثم تجعلوها تحت إشـراف الجامعة العربية التي يهمها أمر اليمن كما يهمكم. فإن لم تثقوا بها وتعتمدوا عليها فما أسـهل أن تؤلفوا هيئة من رجال العلم الصالحين والموثوق بدينهم وأمانتهم لحفظها، وتسليمها إلـى مـن يتولى الأمر من بعدكم من أبنائكـم الغر أو من الذين ترضاهم الأمة لدينها ودنياها، وبذلك تكونون قد أبرأتم ذمتكم وحفظتم المسلمين في بيت مالهم. وأنتم تُعرفون بزهدكم وورعكم وأنكم لم تبددوا ثروة الشعب وأمواله في سبيل لذاتكم والمصالح الشخصية...

إن اسـتياء رعيتكـم مـن الحالة الحاضـرة يزج بالبلاد فـي الهاوية ويهدد المملكة بالزوال. وأعداؤكم كثيرون..[20].

لقد حاول المتنورون ومنهم الأستاذ أحمد محمد نعمان في هذه الحقبة التاريخية إصلاح الأمور بالتي هي أحسـن بعيداً عن الانقلابات والاهتزازات القويـة، إلا أن الأمـور سـاءت باتجاه التجمّد والتشـدّد من قِبَـل الإمام وعدم

الاعتراف بالمظالم الواقعة على الرعية.

واستخدم الإمام خطاب التخوين والتكفير والتشكيك بالروح الوطنية للرعيل الأول من المناضلين مستغلاً فشل حركة 1948م حيث خاطب الإمام أحمد في رسالة له إلى السادة وشيوخ القبائل وعامة الناس بقوله: هل يرضيكم قتل الإمام يحيى وأولاده، وأن يحل محل شريعة الله حكم القانون ويُستبدل القرآن كتاب الله بالدستور وتُباع اليمن للنصارى[21].

لقد واجه الإمام أحمد ثوار حركة 1948م بالحديد والنار وجز أعناق الأحرار الذين طالبوا بقوانين ودستور وتقليص للسلطة الشمولية الثيوقراطية المستبدة حيث كان يصرخ إن الدستوريين (يريدون اختصار القرآن).

ولما سقطت الحكومة الدستورية في عام 1948م أعدم دون محاكمة:

عبد الله بن أحمد الوزير، زيد بن علي الموشكي، سيف الحق إبراهيم، محمد بن علي الوزير، محمد بن محمد الوزير، عبد الله بن علي الوزير، حسين الكبسي، وأحمد المطاع، ومحمد سري الشائع، وجمال جميل العراقي، وكذلك المشائخ والأدباء: محي الدين العنسي، محمد صالح المسمري، أحمد حسن الحورش، أحمد البراق، عبد الوهاب نعمان، الخادم غالب الوجيه، محسن هارون، عزيز يعنى، صالح بن حسين الشائف، محمد ريحان، هارون بن محسن هارون، علي بن ناصر القردعي، محمد الراعي، أحمد العجبة، عبد الله أبو رأس، محمد حسن أبو رأس، علي سنهوب، محمد بن ناجي الحسيني، محمد قائد الحسيني، عبد الله الحسيني، حمود الحسيني[22].

إن محنة الفكر العربي في العصر الحديث قد تجسدت من خلال الاضطهاد الذي عانى منه المفكرون ومن خلال مصادرة آرائهم أو الزج بهم في السجون. فإن محنة الفكر في اليمن قد تجسدت من خلال قتل الفكر وقتل المفكرين أنفسهم، ومن خلال ذبحهم بالسيوف الحديدية كما تذبح

النعاج، أو من خلال صيدهم بالرصاص كما تصطاد الظباء والوعول البرية[23].

كانت غاية الخطاب في هذه الحقبة الزمنية إجراء ترميمات للنظام الاجتماعي باتجاه كسر شرنقة احتكار السلطة صوب مزيد من المشاركة والانفتاح على الشعب والكتل الاجتماعية المختلفة والتأكيد على ضرورة وجود دستور للدولة، ومجلس شورى بما لا يتناقض مع كتاب الله والسنة النبوية الشريفة، وأن يتم انتخاب الإمام ومبايعته من قبل أهل الحل والعقد، وأن يكون الإمام محل مساءلة في حالة خروجه عن الإجماع وجرحه للشريعة الإسلامية.

ولم يتردد هذا الخطاب في محاربة الظلم والرشوة والفساد والفوضى والدعوة إلى تنظيم الزكاة والضرائب والجباية وبناء الدولة، ورفض مسألة تقديس الإمام باعتباره ظل الله في الأرض:

لقد ظن – هؤلاء – أن قانونكم يكلف الأمة بتقديس جلالتكم وعدم انتقادكم في شيء من الأمور التي تجري على خلاف الشرع والعدل والإنصاف. وهم يريدون أن يلبسوا ثوب القداسة والعصمة فلا يُنقدون ولا يُسألون عما يفعلون.

وما عرفوا أنكم لم تباشروا الحكم بأنفسكم وتتدخلوا في الصغير والكبير من الأمور وأنتم تريدون النقد والنصح كما أمرتم به.

إن هؤلاء لم يعرفوا أنكم تنزعجون كثيراً من التقديس إلى حد العصمة التي خص الله بها نفسه وأنكم مقيدون بشريعة الله التي لا تحترم غير الحق والتي يقول حماتها وأنصارها في خلفاء الرسول الأعظم (من رأى منكم اعوجاجاً فليقوِّمه)، ويقول: وُلّيت عليكم ولست بخيركم فإن زغت فقوِّموني، ويقول: أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم. حتى كان الفرد من المسلمين يقوم في وجه الخليفة الأعظم ويخاطبه بقوله: والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بحد سيوفنا...

إنا سنقتصر هذه الكلمة التي حملناها تحية الأمة وإخلاصها وولاءها ونضع بين أيديكم مطالبها العادلة التي لا سعادة لها إلاّ بتحقيقها. وللشعب أمل في عدلكم وإنصافكم ورحمتكم[24].

❖ مفردات خطاب النعمان التنويري (المرحلة الأولى) {أ}

1- يا صاحب السمو.

2- رعيتكم المخلصين.

3- يخاطبون منقذاً عظيماً

4- آلام رعيتكم.

5- ما أخوفهم من الأنين والتوجع.

6- لا نقصد تشويه سمعة الحكومة.

7- في البلاد مظالم.

8- فقر مدقع.

9- عطالة ملء السهل والوادي.

10- أمراض فتّاكة.

11- ثروة مهملة.

12- احتكار للمناصب والوظائف.

13- سيل الهجرة الجارف.

14- سوط الظلم.

15- رجال الظلم هم هم.

16- أُغلقت في وجوهنا أبواب العدل.

17- انسدت علينا طرق الإنصاف.

18- لا نرى غير ظلم ظلام.

19- يأخذ أموالنا كل موظف ظالم.

20- يسومنا العذاب.

21- نموت ونحيا تحت ظل الراية المتوكلية.

22- الله علينا شهيد ورقيب.

23- احتلال العسكري لبيوت الرعية.

24- فداحة الضرائب.

25- تقديس ولي الأمر.

26- السمع والطاعة لولي الأمر.

27- أملنا فيكم عظيم.

28- حريصون على أن نشرح آلام الأمة.

29- أنتم تريدون النقد والنصح كما أمرتم به.

30- مقيدون بشريعة الله.

31- مثلكم يا صاحب الجلالة إذا قال صدق.

32- للشعب أمل في عدلكم وإنصافكم ورحمتكم.

33- تنزعجون من التقديس إلى حد العصمة.

ب- مرحلة الثراء الثقافي «خمسينيات - وستينيات القرن العشرين»

الأستاذ/ أحمد محمد نعمان عاش في فترة عصيبة تمور بالترجرجات والاضطرابات والثورات، أضفت على شخصيته سمة التقلّب والاضطراب وعدم الثبات في موقع واحد. فعقدا الخمسينيات والستينيات شهدا ثورات في المنطقة العربية هزت عروش الاستعمار والأنظمة الملكية - الثورة المصرية 1952م، الثورة العراقية 1958م، العدوان الثلاثي على مصر 1956م، الثورة الجزائرية 1954-1962م...

وشهدت الساحة الداخلية اليمنية انقلاب 1955م، ثم ثورة 26 سبتمبر 1962م، ثم ثورة 14 أكتوبر 1963م في الجنوب والذي توج بالاستقلال الوطني عام 1967م..

ففي عقدي الخمسينيات والستينيات وُلدت الكثير من الأحزاب والتنظيمات الوطنية على طول وعرض الساحة اليمنية - رابطة أبناء الجنوب 1950م، الجبهة الوطنية الديمقراطية 1955م الاتحاد الشعبي الديمقراطي 1957م، حزب البعث العربي الاشتراكي 1956م، حركة القوميين العرب 1959م، حزب الشعب الاشتراكي 1962م، الجبهة القومية 1963م.

فالأحداث الداخلية اليمنية والعربية والعالمية تركت بصمات على الفكر التنويري للأستاذ/ أحمد محمد نعمان.

فخطاب النعمان له نكهة خاصة في هذه المرحلة التاريخية التي تميزت بالديناميكية والحراك بعد أن خرج من سجن حجة 1950م، وانتقاله إلى مصر عام 1955م، ليمارس دوراً تنويرياً في إذاعة صوت العرب، وعبر صحيفة (صوت اليمن)، وتنقلاته من بلد إلى آخر يشرح حالة الأوضاع في المملكة المتوكلية اليمنية ويحث المهاجرين اليمنيين في بلاد المغرب العربي (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب) وبريطانيا وفرنسا لدعم حركة المعارضة اليمنية وللتوجه صوب العلم والمعرفة ودعم جهوده الحميدة في افتتاح كلية بلقيس (1960-1961م).

فجاءت التشكيلة الخطابية لهذه المرحلة مفعمة بروح العصر والعقلانية وإشعاعات النور وحرية التفكير والمعتقد، والنفور من كل صنوف الاستبداد والظلم والفوضى والفساد والتخلف الكمي والزمني، والمناداة بحكم الشعب والانتخابات البرلمانية والمحلية، والتنديد بكل أشكال العنف المادي والرمزي التي تمارس ضد الرعية وضد من ليس لهم لا عضد ولا سند، وضد ممارسة أهل القوة لأساليب مصادرة أملاك الناس وأموالهم بدم بارد ومع سيادة القانون وسلطة القضاء وهيئات الضبط العادلة. والتأكيد على تعليم المرأة ونشر العلم والمعرفة للتخلص من الجهل وعتمة الظلام.

فلقد طالب النعمان مع رفيقه محمد محمود الزبيري بـ:

1. المحافظة على استقلال اليمن وحريتها ووحدتها.
2. تطهير اليمن من الظلم والرشوة والاختلاس والفساد ومع إعطاء الموظفين المرتبات التي تغنيهم عن الرشوة.
3. تنظيم الجيش وتحسين أحواله ومسكنه وملبسه وسلاحه ومعاشه حتى يكون في غِنى عن التنافيذ قادراً على القيام بمهمته الطبيعية كحارس أمين للبلاد.
4. التحقيق في إجراءات الإعدام وإدانة المسؤولين عنها وتسليم دية الشهداء الذين أُعدموا.. وإعادة ما نهب منهم.
5. إلغاء الخطط والتنافيذ والتخمين وجعل الزكاة أمانة في اليمن كلها.
6. إلغاء البقايا.
7. إلغاء الاحتكار وإطلاق حرية التجارة.
8. إعلان تحريم قطع الرؤوس وزج الناس في السجون إلا بحكم قضائي صادر عن محكمة مختصة.
9. إطلاق سراح المسجونين السياسيين والرهائن[25].

والجدير بالذكر أن النعمان تأثر كثيراً في هذه الحقبة الزمنية بالفكر

الليبرالـي ودعـاة التنوير وبمبادئ حقوق الإنسـان العالميـة «الإعلان العالمي لحقـوق الإنسـان الصـادرة في 10 ديسـمبر1948م عن الجمعيـة العامة للأمم المتحـدة»، حيـث أن «الميثـاق الوطنـي»، الـذي صاغـه وزميلـه فـي الكفاح الشـاعر محمد محمود الزبيري مشـحون بمضامين الإعلان العالمي لحقوق الإنسـان، وكل ما يهمنا في الأمر هو تطور خطاب النعمان التنويري ليشـمل آدمية الإنسـان، وفي هذا السـياق يشـير أحد دعـاة التنويـر الأوروبي هولباخ (1723–1789م):

وهنـاك واجبـات لا بـد منها لأي نظـام حكم صالح وقائـم على العقل. وهـذه الواجبـات تتمثل باحترام حقوق الإنسـان الطبيعية وعدم المسـاس بها من قبل الحاكم. وهذه الحقوق الطبيعية تتجسد بالحريات الشخصية للإنسان مثل حرية التفكير وحرية الضمير وحرية الكلام وحرية الطباعة. وينبغي على الحكـم الصالـح أن يراعي هذه الحريات ويسـمح لجميع رعايـاه أن يفكروا وأن يسترسـلوا فـي تفكيرهم كيفما شـاءوا فحريـة التفكير والـكلام والكتابة دعامة لكل حكم صالح[26].

والملفـت للانتبـاه أنـه في هذه المرحلـة الخصيبة من النشـاط التنويري للأسـتاذ/ أحمد محمـد نعمـان أسـس كليـة بلقيـس في عـدن فـي 16 أكتوبر 1961م بتبرعات أهل الخير على غرار ما فعل زميله في النهج والكفاح الشيخ محمد بن سالم البيحاني عندما أسس المعهد العلمي الإسلامي في عدن في خمسينيات القرن العشرين.

لقد قدر بشكل رفيع أهمية العلم حيث إنه قال:

لا حل ولا علاج.. إلا بالعلم[27].

وأكـد بشـكل مسـتنير أن الديـن الإسـلامي لا يقف ضـد العلم ووظف الآيـات القرآنيـة والأحاديـث النبويـة الشـريفة للتدليـل على أن الإسـلام مع الحضـارة والعلـم والنهضـة والعقلانيـة والنمـاء المجتمعـي علـى خـلاف

التوظيفـات التقليديـة الصلدة والمتجمدة التي تنفخ في أذهان العامة فكرة أن الإسلام ضد العلم والمدنية.

وخاطب المغتربين اليمنيين في بريطانيا:

إن الواحد منكم قضى معظم عمره في هذه الأرض ولم يفقه شـيئاً ولم يحـاول أن يسـتفيد حتـى من العمـل الذي ينفق فيـه ليله ونهـاره وهو كالآلة الصماء.. ثم فسر لهم الآية الكريمة:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾...

والعلم لا شيء غير العلم.. علم الحياة.. علم الكون.. علم ما خلق الله لعباده في السـماء والأرض)**وَسَـخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**... (، هكـذا خاطب الله المسـلمين أتباع القرآن الكريـم ولكنهم زهدوا في ذلك وتركـوه لأعـداء الله الكافريـن ينتفعـون بـكل مـا في الكـون وما في السـماء والأرض، وسـيطرت علـى عقـول الأغبياء الخرافة اللاهوتيـة التي قالت لهم إن الله قـد خلـق الكافريـن لخدمة المسـلمين يسـتخرجون كل ما في الأرض من ثروات هائلة ويجهدون أنفسـهم ويقدمونها للمسـلمين غنيمة باردة دون تعب ومشقة....

والإسلام لم يكن في يوم من الأيام ضد الحياة الدنيا أبداً بل قال القرآن)... **رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَـنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَـنَةً**...(. وما كان الجهل سـلاح المسلمين الأوائل، وإنما كان العلم هو السلاح)... **وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**([28].

ومـن الأفكار المسـتنيرة للأسـتاذ/ أحمد محمد نعمان، أنـه نادى بتعليم المـرأة وعدم النظر إليها من زاوية جنسـية، فـلا بد من احترام المرأة وآدميتها وعدم التقليل من قدرتها واسـتنقاص عقلها، وانتقد القول المأثور أن: المرأة ناقصـة عقـل ودين، وربط مسـألة نقص عقـل المرأة بالجهـل، وعندما تتعلم

المـرأة: فـلا تكون ناقصة عقـل ولا دين.. إن العقل هو العقل في رأس الذكر والأنثى...

ويظـل عقل المرأة وعقل الرجل ودينهمـا ناقصين ما جهلا... والمعرفة وحدها هي التي تكمل عقل الرجل ودينه.. أو عقل المرأة ودينها.. وما اعتقد أن فـي العقـلاء مـن يجادل، ولا يـرى بأن المـرأة المتعلمة هـي أوفى عقلاً، وأكمل ديناً من الرجل الجاهل على أية حال[29].

أمـا أبرز المفردات التنويرية التي اسـتخدمها النعمـان في هذه المرحلة، والتي تعتبر في قلب مدرسة التنوير، فيمكن بسطها على النحو التالي:

❖ مفردات خطاب النعمان التنويري(المرحلة الثانية) {ب}

1- يولد الناس أحراراً.

2- المساواة في الحقوق والواجبات.

3- حق الناس في الحرية والكرامة.

4- الناس سواسية أمام القضاء.

5- حق الآخر في اللجوء للمحاكم.

6- يمنع القبض على الناس خارج نطاق القانون.

7- يعاقب الناس تحت مظلة القانون.

8- حرية المساكن.

9- لا يحق للدولة التدخل في حرية الناس الشخصية.

10- حرية التنقل.

11- لا يجوز أن يُنفى اليمني من بلده.

12- حق التمتع بالجنسية.

13- حق التملّك.

14- الحرية الفردية.

15- حرية العبادات والمذاهب.

16- حرية الفكر والرأي والتعبير.

17- حرية الصحافة.

18- حق تشكيل الجمعيات والنقابات.

19- حق المواطنين في إدارة شؤون البلاد.

20- حق التعلّم.

21- حق تقلّد الوظائف العامة.

22- السلطة مصدرها الشعب.

23- حق العيش الكريم للناس.
24- الانتخابات البرلمانية.
25- اللامركزية في الحكم.
26- الضمان الاجتماعي.
27- إرهاب الشعب.
28- الوعي الشعبي.
29- فتاوى التكفير والفسوق.
30- النصيحة والرأي.
31- التسامح والمحبة.
32- المجتمع المتحضر.
33- الشعب المتنور والواعي.
34- بناء النهضة.
35- سيطرت على العقول الخرافة واللاهوتية.
36- محاربة الوساوس.
37- نشر العلم والمعرفة.
38- الجهل سر مأساتنا.
39- تحرير الوطن من المستعمر.
40- تعليم المرأة.
41- العلم ضروري كالطعام والهواء.
42- حفيدات بلقيس.
43- التربية الديمقراطية.
44- التذوق الجمالي والنفسي.
45- المكتبات والكتب والموسوعة والمسرح.
46- المواطنة المتساوية.
47- سلاح النقد لتصحيح الأخطاء.
48- المدرسة - الكتاب - القلم.
49- عقل الرجل.
50- عقل المرأة.
51- المرأة أكمل عقلاً من الجاهل.

ج- مرحلة الواقعية والتذمر (نهاية الستينيات - منتصف سبعينيات القرن العشرين)

تبدأ المرحلة بسقوط حكومة المشير عبد الله السلال عقب انقلاب أطاح به في 5 نوفمبر 1967م، ووصول الجبهة القومية في الجنوب للسلطة في 30 نوفمبر 1967م وتنتهي هذه المرحلة بانقلاب 13 يونيو 1974م، بقيادة المقدم إبراهيم محمد الحمدي، واعتزال الأستاذ/ أحمد محمد نعمان الحياة السياسية.

القارئ الحصيف لخطاب النعمان التنويري سيلاحظ أن النعمان كان يكتوي بنارين في حياته السياسية، الأولى، نار الكتل الاجتماعية الحديثة،

التـي لم تستسـغ أفـكار النعمـان ورؤاه ومواقفـه لأنها تصـب لصالح القوى التقليديـة. وعلـى الضفة الأخـرى، كان النعمان على تناشـز مع بعض القوى التقليديـة المتحجـرة التي كان لا يروق لها النعمان، وترى أنه يُحدث أضراراً في خاصرة القوى التقليدية المتيبّسة ويعمل لصالح جبهة النهضة والتحديث.

ووسـط هـذه المعمعـة كان النعمان على قناعة تامة بمواقفه وسـار فوق صفيح ساخن، لا يكترث بالرياح والعواصف ولا بنعيق الغربان ولا بسفاسف الأمور التي تعيق حركته وفكره وقناعته.

فكانت رسالته التنويرية تهدف إلى تخليص العقل من الجمود في نظرته إلـى الديـن وتحكيم العقل والمنطق في مناقشـة أمور الحيـاة. ومع ذلك فقد تعـرض الكثيـر منهم للسـجن حيـث نجد أن الشـيخ محمد عبـده على رغم اعتدالـه، حُكـم عليه بالسـجن ثلاثة أشـهر والنفي ثلاث سـنوات امتدت إلى ست سنوات[30].

أما النعمان فقد سُـجن عام 1948م – 1950م في سـجن حجة في اليمن، واعتُقـل فـي القاهرة عـام 1966م إلى عام 1967م، وعرف السـجون والمنافي الداخليـة (عـدن)، والمنافـي الخارجيـة (القاهـرة، بيـروت، جـدة) وفي عام 1967م سـحبت عنه السـلطات اليمنية جنسـيته، وتعرض هو وأسرته للأهوال والمصائب. وكسـرت سـاقه في حادث سـيارة عام 1969م، وقُتل ابنه محمد أحمد نعمان في بيروت في 28/ 6/ 1974م.

مارس النعمان السلطة ولم يستقر في أحضانها، بل كان متمرداً عليها ما أن يتم تعيينه في منصب ما حتى يستقيل منه:

- عام 1964م – عُين رئيساً لمجلس الشورى.
- عام 1965م – عُين رئيساً لمجلس الوزراء.
- عام 1966م – عُين عضواً في المجلس الجمهوري.
- نوفمبر 1967م – استقال من عضوية المجلس الجمهوري.

- 1970م – أصبح عضواً في المجلس الجمهوري.
- 1971م – شكل حكومة برئاسته واستقال هو وحكومته بعد أربعة أشهر من تعيينه.
- 1974م – قدم استقالته من المجلس الجمهوري وكانت الاستقالة متساوقة مع حركة 13 يونيو 1974م.

لقد اكتسب النعمان خبرات ثرية في السلطة وخارجها وتواكب مع ذلك توسع مداركه الثقافية والسياسية والحياتية، وخبر الأوضاع في اليمن بدون رتوش أو فهلوة وتسلح بسلاح الصبر وتحلى بضبط النفس في حقبة حالكة الظلام أضاع فيها الكثيرون بوصلة الحكمة والتبصر ورموا بأنفسهم في طاحونة المناطحات السياسية التي أدت إلى دمار مجتمعي وتشتت بوصلة النضال، وتوصل إلى استنتاج أن الحكومة غير قادرة على حماية الأفراد في وضع غير طبيعي تنتشر فيه الاحترابات والفتن الوطنية، والناس مدججون بالسلاح حتى أسنانهم، والكفة تميل لصالح الأقلية المتسلطة على رقاب الأغلبية:

اليمنيون لا تحميهم حكومة مقيدة بنظام أو ملتزمة بقانون، وإنما تحميهم الصدفة ويحميهم السلاح الذي حصلوا عليه بالصدفة، غير أن هذا السلاح لا يحمي الأغلبية المغلوبة وإنما يحمي الأقلية المتسلطة التي تتخذ منه قانوناً ونظاماً للإرهاب والتسلط والارتزاق(31).

وما دامت الكفة غير متوازنة تميل لصالح القوي فلا بد من:

الحيطة والحذر والحكمة والتبصّر وعدم التورّط في الصراع مع الآخرين..(32).

لا بد من استخدام سلطان العقل والتحلي بالأخلاق الحميدة وضرب أمثولة في حُسن السيرة والسلوك والتخلي عن أنانية النفس الأمّارة بالسوء والأفكار المتسلطة على الذهن التي تفقد الإنسان استبصاره:

إن واجبنا ما دامت الفرصة بين أيدينا أن نعلم أولئك الذين حكمونا بالأساليب الظالمة والقاسية.. نعلمهم كيف ينهجون السبيل القويم، سبيل الرفق والإنصاف.. لا سبيل العنف والإجحاف، حتى يتأثروا بسلوكنا ويعاملونا بنفس المعاملة فيما لو فشلنا وأصبحنا تحت رحمتهم[33].

لقد كان النعمان سلمياً ضد سياسة العنف وسفك الدماء، ومع المصالحة والتسامح وتبادل رسائل الحب والوداد في المجتمع. كان يعطي أهمية أكبر للوعي والإدراك والعلم والمعرفة والعقل المستنير، ولا يرى في السلاح أساساً للنصر والنماء والسكينة والفضيلة والرضوان:

إن الشعوب التي لا تملك السلاح لا تنتصر بالسلاح وحده، ولكنها تنتصر بالإنسان المدرك الواعي... إن الذين لا يفكرون إلا بالسلاح ليستمدوا منه سلطانهم وليواجهوا به مخالفيهم ويقاتلوا به إخوانهم ومواطنيهم، ولا يتبادلون إلا طلقات الرصاص بدلاً من الرأي. إن هؤلاء ليسوا سوى عصابات كل همها إشباع غرائزها.. لا تؤمن بالعقل ولا بالمنطق ولا بالقانون ولا بالإنسان.. والبلد الذي يتحول أبناؤه إلى عصابات يصبح غابة وحوش ضارية يفترس بعضها بعضاً[34].

كان يدرك النعمان أن تحقيق الأمن والسلام الاجتماعي والنماء الحقيقي لن يأتي عبر السلاح والعنف والقتل وشحن النفوس بالضغائن والأحقاد، إنما التغيير الحقيقي لا بد أن يمر عبر قنطرة الديمقراطية والانتخابات الحرة والنزيهة كبديل للتطاحن والتدمير الأهوج للحرث والزرع والنسل الذي يهدم ثروة الأمة ويحول الحياة إلى نار وحروب ودماء ودموع ودخان، حيث يقول:

يا أبناء المعذبين والمستضعفين في الأرض أنتم قبل غيركم مسؤولون عن تحقيق حكم سليم يقوم على الانتخاب الحر وعلى رغبة الجماهير ورضاها... وحتى لا تتكرر مأساة الأجيال والقرون في بلدكم وفي يمنكم، ضعوا حداً للارتزاق بالسلاح والقتل وسفك الدماء فإن استمرارها وصمة

عار على شعبكم.

علّموا الشعب أن للرزق الحلال وسائل شريفة ومجالات واسعة للزراعة والتجارة والأعمال الحرة التي تعيش منها شعوب العالم كلها[35].

ولعل الدارس لفكر النعمان وممارسته سيلحظ دون عناء شديد أنه كان على غير وئام مع الفكر القومي واليساري بوجه عام، ولعل مواقفه المناهضة للوجود العسكري المصري في اليمن ووقوفه في كتلة داعية لخروج المصريين من اليمن، وتعرضه للسجن في القاهرة عام 1966–1967م، قد عزز مواقفه المناهضة للناصرية والدعوات المتحمسة للوحدة العربية التي تقدم العواطف على العقل والمنطق، وتمتطي صهوة الشعارات المدوية مرفقة بممارسة قمعية واستبدادية أدت إلى مزيد من التمزّق والتشظّي في الصف العربي في هذا المنحى. يقول النعمان:

إن الوحدة العربية لم يتخذها الناعقون بها خلال السنوات الماضية إلا مثاراً لتمزيق الوحدة الوطنية[36].

لقد كان النعمان مؤيداً للوحدة العربية قبل المحنة التي حلت به في السجون المصرية، وعاش في أحضان التجربة المصرية في خمسينيات – وستينيات القرن العشرين، وكان صوته يجلجل من إذاعة صوت العرب، منددا بالإمامة والاستبداد، ومؤيداً للنهج الناصري ويدعو للتحرر من ربقة الإمامة والاستعمار تمشياً مع النهوض القومي والتحرري الذي شمل الوطن العربي من الخليج إلى المحيط، وتمشياً مع نهضة الشعوب للتحرر من الاستعمار والأنظمة الملكية والاستبدادية على الصعيد العالمي.

ولقد أشار الأستاذ/ محمد عابد الجابري إلى أن «الردة» على صعيد الفكر مع بقاء الواقع المادي ثابتاً يطرح جوهر العلاقة بين الفكر والواقع. أو بعبارة أخرى، أن تلك الردة تعني أن الفكر العربي قبل حرب 1967م لم يكن يعبّر عن معطيات الواقع العربي الحقيقية القائمة آنئذ بل كان يعبّر عن

«واقع» آخر كان يعيشه العرب على صعيد الحلم. وعندما حلت بهم الهزيمة اصطدموا بالواقع الحقيقي الذي يعيشون في إطاره فتحول حلمهم ذاك، بكل سرعة لازمانية – الحلم، تحول إلى كابوس، وأصبح خطابهم، المنفصل دوماً عن الواقع، يعبر هذه المرة عن (الحلم – الكابوس) بدل التغني بحلم «الثورة» «والوحدة» و»الاشتراكية» حلم «القضاء على إسرائيل»..[37].

واستناداً إلى تجربته السياسية الثرية ينصح الأستاذ/ أحمد محمد نعمان الشباب وعلى رأسهم قحطان محمد الشعبي أول رئيس للجنوب بعد الاستقلال بعدم الإسراف في طرح الشعارات الحماسية وعدم الانجرار في تأميم الممتلكات دون دراسة واعية ومصادرة الأموال بطرق غير متعقّلة، حيث يقول:

أنبهكم إلى أمر هام جداً ابتلينا به قبلكم وابتُلي به قبلنا كثيرون. احذروا من الإسراف بالوعود للجماهير وللناس ومن التبشير لهم بالاشتراكية التي حولها الكثيرون إلى إباحية مطلقة لنهب الناس وسلب أموالهم ولم يكسبوا من وراء ذلك سوى المزيد من الفقر والإفلاس.

راجعوا الشعارات التي ملأت أذهان الجماهير العربية خلال خمسة عشر عاماً وخاصة الوحدة والحرية والاشتراكية وماذا حقق الذين أطلقوا هذه الشعارات لشعوبهم. إنهم لم يحققوا سوى الفرقة والاستبداد والفقر والحرمان وهزيمة 5 حزيران التي لا مثيل لها[38].

ولقد أدرك النعمان ببهاء صعوبة تحقيق العدل والمواطنة المتساوية دون دولة مؤسسات وقوة عادلة، فالبحث عن العدل والإنصاف دون قوة يرتكز عليها المهضومون والمظلومون ثرثرة لا جدوى منها، فالزمن زمن القوة والبطش بالضعيف، زمن تسلط أهل القوة والبأس على الكتل الضعيفة التي ستظل كذلك تحت طائلة النهب والسلب وهضم الحقوق والتوسّل والتودّد طالما أنه لا توجد قوة تناصرها وتدافع عن حقوقها:

الحق والعدل والدساتير والقوانين واللوائح والقرارات لا قيمة لها ولا تساوي الورق الذي تكتب عليه إذا لم تكن هناك قوة تحميها وتدافع عنها. وأنه بدون القوة لا يحق الحق ولا يبطل الباطل ولا تسود العدالة ولا تنمو الحرية.

فيا ولدي لا تنتظر إنصافاً ولا عدلاً ولا حقوقاً ولا دساتير ولا قوانين بدون قوة. نحن نعيش حقاً عصر سقوط الكلمة. وقد سقطت وهانت في كل العصور، وكما قال المتنبي حكيم العرب:

لقد رجعت وأقلامي قوائل لي	المجد للسيف ليس المجد للقلم
فاكتب بنا أبداً بعد الكتاب به	فإنما نحن للأسياف كالخدم
من أقتضى لسوى الهندي حاجته	أجاب كل سؤال عن هل بلم[93]

لقد شعر النعمان بمرارة الواقع واحترقت أنامله بنيران الجهل والتخلف والأوضاع المأساوية التي لم تتغير جذرياً منذُ عهد الإمامة، حيث ظلت الأمور هي هي بجوهرها، وعانى النعمان من مضض روحي، وكان يطرح الأسئلة المحورية التي تؤرق ضميره:

إذاً فلماذا ثرنا على العهد البائد؟ ولماذا أثرنا سخط الشعب عليه، وتصدرنا المعارضة ضد حكمه؟ وهل كان هدفنا زوال الإمام فقط لنخلف السلطة؟ أم كان هدفنا زوال عهد الإمام ونظامه واستبداده ليأتي عهد جديد وحرية معقولة وعدالة ومساواة ووحدة وطنية حقيقية؟...

إن واجبنا منذُ الآن إشعار المواطنين بأسرع ما يمكن بحقيقة عجزنا عن إصلاح ما أفسده الدهر وخلفته الحروب والعهود الفاسدة وعدم قدرتنا على الاستمرار في السلطة...

علينا أن نعلن للمواطنين ونوجههم لاختيار قادة غيرنا ممن يرضونهم ويثقون بهم ويختارونهم بكل حريتهم وملء إرادتهم وحسب مشيئتهم...

إن الدولة تدبر مؤامرة ضد نفسها وتخرب بيوتها بأيديها وأيدي موظفيها ممعنة في خراب كل عامر[40].

لقد ارتفع منسـوب التذمّر والإحباط عند الأسـتاذ أحمد محمد نعمان، عندما رأى بأمّ عينيه أن الأمور تسير على خلاف ما حلم به من حرية وعدالة وتقدم ونماء مجتمعي ومواطنة واحدة، فالأوضاع تسـير من سيئ إلى الأسوأ والمظالـم مـا زالـت تجثم فوق صـدر عامة الناس والفوضى عنـوان بارز في إيقـاع الحيـاة اليوميـة والفسـاد يستشـري في كل الأرجـاء والدولـة هزيلة لا تسـتطيع الوقوف على قدميها، نهشـها الفساد واستأسـد عليها أصحاب القوة والجاه والمال فصارت هيكلاً بلا إرادة ولا روح، والثروة محتكرة في أيادي قلة قليلة من الناس بينما الغالبية العُظمى من أبناء الشـعب يتضورون جوعاً، ولذلك ينصح صديقه المناضل الحاج عبد الله عثمان بالعودة إلى منزله وعدم البحـث عن شـهادة النضال ممن هم أصلاً ليسـوا من هـذا الجنس المناضل، ولا يعرفـون معنـى النضال، ولا يقدرون من حملوا أرواحهم في أيديهم لدك مداميك الجور والاستبداد والتخلف:

فإنـي أنصـح لـك نصيحـة أخ مجـرب أن تريـح نفسـك وأعصابك من البحث عن ذلك حتى لا تفتح على نفسك باب السخرية والهزؤ ممن يؤذيهم أن تزعـم أنـت وأمثالك من الرعية أبنـاء الرعية أنكم ثوار وأحرار ومكافحون وثائرون ومجاهدون ومناضلون ومضحون وأبطال...[41].

فالمواطنـة المتسـاوية لا يمكـن الحصـول عليها في ميـزان مختل يميل لصالـح أهـل القـوة والسـلاح والكربـاج، فمهمـا عمل الإنسـان مـن أعمال بطولية وهو في وضع اجتماعي متدنٍّ وينتمي إلى الكتل الاجتماعية الضعيفة (الرعيـة)، لا يعد شـيئاً في نظـر أهل الكرباج. فالشـجاعة والبطولة والقوة لا تدخـل قامـوس الرعيـة ولا تُحتسـب لهم في حالـة قيامهم بذلـك. وما على هـؤلاء إلا أن يصمتـوا ويرضوا بواقعهم وأن يعيشـوا صامتين ينفذون الأوامر

والتوجيهات ويأتمرون بأوامر أهل القوة كما عاش آباؤهم وأجدادهم:

إننـي لأكرر نصيحتي لـك بحق الأخوة أن تصمت كما صمت الكثيرون مـن زملائك وإخوانك وآبائـك وأجدادك ممن قضوا نحبهم وممن ينتظرون، فـلا تشـرك بالأبطال المسـلحين أحداً ولا تنافسـهم ولا تنتظـر إنصافاً وأنت ضعيـف ولاحقـاً وأنت أعـزل، ولا ذكراً حسـناً وأنت لا تحمل السـلاح ولا تنتمي لفئة من الفئات التي تحمل السلاح والكرباج[42].

وفي ظل انهيار القيم والمعايير الأخلاقية، تسـلق قطار النضال والكفاح ثلة من المتحذلقين، وتوارى عن الأنظار المناضلون الحقيقيون الذين ابتلعوا ألسـنتهم وصمتوا، لكنهم لم يسـلموا من الهزؤ والسخرية من قبل السفهاء أو من الجيل الجديد الذي لا يقدّر نضال هؤلاء وتضحياتهم وسلسـلة الأهوال والعذابات التي مروا بها:

يـا حـاج عبد الله قد امتد بنا العمر إلى جيل يسـتكثر علينا مجرد الحياة، جيـل لا يرحـم ولا يقدر ظروفنا ولا السـنين التي مرت بنـا ولا الأهوال التي طحنتنـا ولا الآلام النفسـية والجسـدية التـي أنهكتنا وأرهقتنـا ولا المصائب والنكبات التي نزلت بنا.

جيـل لا يـدرك أننا نتجلـد ونصبر ونعاني ونضحك وصدورنا مشـحونة بالأحـزان وقلوبنـا تنـزف دمـاً... أقسـم لـك أني زاهـد كل الزهد فـي القول والكتابة وقد نسيت كيف يُحمل القلم[43].

لقـد تعززت قناعة النعمان في هـذه المرحلة بضرورة وجود دولة عادلة دولة مؤسسـات لضمان الأمن والاسـتقرار والسـكينة الاجتماعية، والمواطنة المتساوية، وأكد على الشفافية والمصارحة وعدم حجب الأسرار عن الشعب في حالة الإخفاق وعدم القدرة في إصلاح ما أفسده الدهر. ومن جهة أخرى نستشـف مـن خطاب النعمان أن وجود فئات قوية ومسـلحة خـارج الهيئات النظاميـة، يشـكل عقبـة كأداء أمام بناء الدولة والاسـتقرار ويجهض مشـروع

المواطنة الواحدة والعدل والإنصاف في المجتمع.

❖ **مفردات خطاب النعمان في (المرحلة الثالثة) {ج}**

1. الشعوب تنتصر بالإنسان المدرك الواعي.
2. تبادل طلقات الرصاص بدلاً من تبادل الرأي.
3. عصابات همها إشباع غرائزها.
4. وحوش ضارية يفترس بعضها بعضاً.
5. يا أبناء المعذبين والمستضعفين في الأرض.
6. حكم يقوم على الانتخاب الحر ورغبة الشعب.
7. القتل وسفك الدماء وصمة عار.
8. علّموا الشعب أن للرزق الحلال وسائل شريفة.
9. الوحدة العربية.
10. تمزيق الوحدة الوطنية.
11. احذروا الإسراف بالوعود للجماهير.
12. التبشير للناس بالاشتراكية.
13. الاشتراكية إباحية مطلقة.
14. نهب الناس وسلب أموالهم.
15. راجعوا الشعارات.
16. الفرقة والاستبداد والحرمان.
17. الحق والعدل والدساتير والقوانين.
18. المواطنة المتساوية.
19. دولة مؤسسات.
20. قوة عادلة.
21. البحث عن العدل والإنصاف.

22. زمن القوة والبطش.

23. زمن تسلط أهل القوة.

24. الحق والعدل والدساتير والقوانين.

25. بدون القوة لا يحق الحق.

26. عصر سقوط الكلمة.

27. العهد البائد.

28. سخط الشعب.

29. نظام جديد.

30. حرية معقولة.

31. عدالة ومساواة.

32. وحدة وطنية حقيقية.

33. الحروب والعهود الفاسدة.

34. الدولة تدير مؤامرة ضد نفسها.

35. الرعية وأبناء الرعية.

36. لا تنتظر إنصافاً وأنت ضعيف.

37. الفئات التي تحمل السلاح والكرباج.

38. انهيار القيم والمعايير الأخلاقية.

39. جيل لا يرحم.

40. زاهد كل الزهد في القول والكتابة.

الخاتمة:

الخطاب التنويري للأستاذ/ أحمد محمد نعمان يفيض بالحيوية والديناميكية وبدفقات حارة من الصدق والمحبة للمظلومين. لم يكن خطاباً صلداً ولا متحجراً ولا خطاباً عارياً من المعاني والمقاصد المحمودة،

بل كان خطاباً مترعاً بروح الانتماء للوطن مغموساً بالهم اليومي يحلم بالحرية وبحياة خالية من البطش والقيود والأقفاص الحديدية والتعذيب وإذلال آدمية الإنسان.

لقد أيقظ أحمد محمد نعمان النفوس الراقدة ووجه العقول والبشر صوب مقاومة الأوضاع الفاسدة والحياة الراكدة والكئيبة لانقشاع سحائب الظلم والعتمة الدامسة والأهوال القاسية.

فاستخدم بداية أسلوب النصيحة والتقويم ونادى بقوة إلى إصلاح الحال، ثم انتقل إلى مربع المقاومة ورفض ثقافة الخضوع والطاعة وقاوم كل معاني الظلم والاستبداد بوعي منير وبعقلانية متزنة مع شيء من رومانسية الشعارات المجلجلة التي ملأت سماء المنطقة العربية في تلك الحقبة الزمنية.

ثم جاءت المرحلة الأخيرة المدموغة بالواقعية والحكمة والمصارحة والتي اتسم فيها بعدم حجب الأسرار أو التحفظ، ووعى بعمق ضرورة وجود دولة عادلة لإحقاق الحق وللخروج من كهف التخلف، فبدون ذلك لن تفلح التنمية والعدالة ولا المواطنة المتساوية ولن تشرق شمس الديمقراطية والحرية في المجتمع.

لقد تواكب خطاب النعمان التنويري مع جملة من الخطوات العملية على أرض الواقع، ففي اللحظة التي كان ينتج فيها خطاباً تنويرياً، كان يقوم على الضفة الأخرى بتطبيق أفكاره في الواقع بلغة عملية عميقة الدلالة والمقاصد.

فالنعمان كأحد رواد التنوير في الوطن اليمني، زاوج ما بين النظرية والتطبيق ومزج الفكرة بالعمل الدؤوب والخلاق لإحداث نهضة عقلية وعملية وتعليمية شأنه في ذلك شأن مفكري رواد حركة التنوير في العالم العربي. كانوا جميعاً وبغير استثناء يجمعون في حياتهم وفي نظرتهم الشاملة الكلية إلى الأشياء بين الفكر والعمل، فلم يكونوا مجرد مفكرين نظريين، وإنما شاركوا فعلاً في أحداث المجتمع بطريقة إيجابية مع اختلاف مجالات

العمل والنشاط، كما اتخذوا من الصحافة والكتابة وسيلة وأداة لنشر أفكارهم.

وقد كانوا جميعاً مهتمين بالعمل على تغيير الأوضاع السائدة في مجتمعاتهم، وشاركوا في جهود حركات الإصلاح دون أن يقنعوا أو يكتفوا برصد تلك الأوضاع أو البحث عن أسبابها وتحليل تلك الأسباب، أو اقتراح أساليب وطرق التغلب عليها وتحقيق التغيير المطلوب..[44].

إن فكر النعمان برموزه ومقولاته وتشكيلاته الخطابية لا يمثل فكراً تقليدياً خالصاً، ولا فكراً حديثاً متنطّعاً، بل هو فكر مستنير لا يغرق في دهاليز الماضي ولا يتورط في السباحة في بحور الحداثة المزيفة.

لقد تحدث النعمان في خطابه بطريقة وجدانية وعاطفية، وفي أحايين أخرى بطريقة الوعظ والإرشاد، وفي خطابات كثيرة تطغى المسحة الوصفية وررومانتيكية الشعارات، بحيث تتجاوز رقعة العقل والواقعية والتبصر.

فالخطاب العربي الحديث المعاصر كان في جملته، ولا يزال، خطاب وجدان وليس خطاب عقل... لقد كان ولا يزال يعبر عما «يجده» الكاتب العربي في نفسه من انفعالات إزاء الأحداث وليس من منطق هذه الأحداث[45].

ومن الأمور المثيرة للتأمل، أن ثمة غبشاً في رؤية النعمان إذ كان يجهل المعاني العميقة للديمقراطية والمواطنة المتساوية والانتخابات الحرة والنزيهة والعدالة والإنصاف...

فهذه المسائل لا يمكن أن تقام في مجتمع تغيب فيه الدولة وسلطانها، أو موجودة بشكل سالب ومهلهل وضعيف، أو تحت مظلة أوضاع ما قبل الدولة بمؤسساتها وقوانينها وهيئاتها الضبطية، والتي في كنفها تترجم العناوين الكبرى للديمقراطية والحرية والمجتمع المدني والمواطنة المتساوية والعدل والإنصاف...

فالمواقف السياسية للأستاذ/ أحمد محمد نعمان إلى جانب القوى المحافظة الممانعة لقيام النهضة والتحديث والمغرمة بتثبيت القوالب الجامدة

في العقل والبُنى والمؤسسات وفي تفاصيل حياتنا اليومية، قد أضعف كثيراً مـن أطروحـات النعمان التنويرية، وحدثت فجوة في لغة التفكير والعقل من جهة، والمسالك والتصرفات من جهة أخرى. وتعتبر هذه من نقاط الضعف الكبرى في خطاب النعمان التنويري، والذي يحتاج إلى ترجمة هذه العناوين التنويريـة في غميس الواقع وفي سـياقات ومفـردات الفضاء العام، وإن كان قـد طبـق جزئياً بعض مفـردات خطابه في حقـول الثقافة والإعـلام والتربية والتعليم.

ولا يجوز أن ننسى أن مفردات خطابات النعمان المتأخرة صارت واقعية لا تطفـق في سـماء الخيال، حيـث تجاوز الآمـال الخائبة والظنـون الكاذبة، وتسـلح بسلاح المكاشـفة، ورفض أن يعيش في تخوم الأشـياء، وقدم قراءة رشيدة للواقع.

وعليـه، يمكـن أن نسـجل أهم القسـمات للخطاب التنويري للأسـتاذ/ أحمد محمد نعمان على النحو التالي:

1. آمن بدور العلم واعتبره العامل الحقيقي للنهضة والتغيير.
2. كان يدعـو النعمـان فـي خطابـه التنويـري إلـى إصـلاح المجتمع والراعـي والرعيـة عن طريق نشـر العلـم والمعرفـة وتنوير مضائق الأذهان واستخدام أساليب التنوير والإقناع.
3. نـادى النعمان في خطابـه بضرورة التخلص من الاسـتبداد والنظم القهريـة والشـمولية، ولـن يتم ذلك عبـر العنف أو القوة الغاشـمة أو عبـر الهزات الكبرى، وإنما عبر إرادة قوية وبخطوات مدروسـة وعبر تدرج وسلاسة حتى لا يفقد المجتمع توازنه الطبيعي.
4. اقترح النعمان قيام أنظمة ديمقراطية على أساس الانتخابات الحرة والمباشرة.
5. أدرك النعمان أهمية قيام دولة ديمقراطية غير استبدادية تصون آدمية

الإنسـان وتحقق مبـادئ الحريـة والإنصاف والمسـاواة والمواطنة الواحدة.

6. وقف ضد الاستبداد والتحجر الذهني ومع سلطان العقل.
7. اسـتخدم النعمان الدين كأداة لتنوير الشـعب وليس كأداة للتجهيل والتقهقر الحضاري.
8. كان النعمان مع حرية المرأة بوجه عام ونادى بتعليمها ووقف ضد الدعـوات الجاهلة التي تحقر عقـل المرأة ودينها وتنظر إليها كأداة لاستحصال اللذة.
9. اتسم خطاب النعمان بالليبرالية والتسامح لا يدعو للتعصب الديني ولا الطائفـي ولا المذهبـي ولا القـروي ولا إلـى التعصب الحزبي الضيق.
10. نادى بحرية الصحافة والعقيدة والضمير والحرية العامة.
11. كان يدعـو للتغييـر السـلمي ووقف ضد النزعة العسـكرية والأنظمة الديكتاتورية.
12. تميـز خطـاب النعمـان بالنزعـة الوطنيـة والوحدويـة علـى الصعيد الوطني والقومي بدون رتوش أو شعارات زائفة.

الهوامش

1. مذكرات أحمد محمد نعمان (مسيرة حياته الثقافية والسياسية)، مراجعة: د. علي محمد زيد – (القاهرة: مكتبة مدبولي 2004)، ص 8، 10، 18.
2. حسن حنفي، (تحليل الخطاب)، في كتاب: تحليل الخطاب العربي (بحوث مختارة)، مراجعة: أ. د. صالح أبو أصبع، تحرير: غسان عبد الخالق، (عمان: جامعة فيلادلفيا – كلية الآداب، ط 1، 1998م)، ص 37.
3. هانس بارتنس، (ما بعد الحداثة: فوكو لا كان، النسائية الفرنسية)، نزوى (عُمان)، العدد 43، (يوليو 2005م)، ص 49.
4. أنتوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة وتقديم: فايز الصُياغ، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ط 1، أكتوبر 2005م)، ص 749.
5. عبد الأمير زاهد، (الخطاب العلماني العربي المعاصر – تاريخيته وبُنيته الموضوعية)، المنهاج (بيروت)، السنة 7، العدد 27، (خريف 1423هـ – 2002م)، ص 12.
6. محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط 4، 1992م)، ص 10.
7. حميدة سميسم، (مفهوم الخطاب الإعلامي)، في: تحليل الخطاب العربي، مرجع سابق، ص 109–110.
8. عبد الله الرشدان، علم الاجتماع التربوي (عمان: دار عمان للنشر والتوزيع، 1984م)، ص 75–76.
9. سيد مصطفى سالم، البريد الأدبي حلقة مفقودة من حركة التنوير في اليمن، دراسة ونصوص، (صنعاء: وزارة الثقافة والسياحة، 2004م)، ص 181.
10. قائد نعمان الشرجبي، الشرائح الاجتماعية التقليدية في المجتمع اليمني (بيروت: دار الحداثة، ط1، 1986م)، ص 136–277.
11. أحمد محمد نعمان، انهيار الرجعية في اليمن (القاهرة: دار القاهرة للطباعة، 1957م)، ص 28.
12. سمير عبد الرحمن هائل الشميري، (الظروف الموضوعية والذاتية لقيام ثورة 26 سبتمبر 1962م)، مجلة المعرفة (عدن)، السنة الثالثة، العدد 8، (يونيو1988م)، ص 104–105.
13. مذكرات أحمد محمد نعمان، مرجع سابق، ص 25.
14. الموسوعة اليمنية في أربعة مجلدات، المجلد الرابع، (صنعاء: مؤسسة العفيف الثقافية، ط2، 2003م – 1423هـ)، ص 2992.

15. مذكرات أحمد محمد نعمان، مرجع سابق، ص 41، 42، 43.
16. معن بشور، (التجربة الحزبية العربية في نصف قرن «قراءة نقدية»)، المستقبل العربي (بيروت)، السنة 22، العدد 244، (يونيو 1999م)، ص 28.
17. أحمد محمد نعمان، (الأنة الأولى 1937م)، الثوري (صنعاء)، العدد 1493، (2/ 10/ 1997م)، ص 5.
18. المرجع السابق.
19. صحيفة «صوت اليمن» افتتاحية العدد الأول، مجلة الحكمة (عدن)، السنة الثامنة، العدد 67/ 68، (يناير – فبراير 1978م)، ص 106–107.
20. عن: عبد الرحمن عبد الله الحضرمي، (نظرة في التاريخ اليمني من زاوية 1948م)، مجلة الحكمة، السنة العاشرة، العدد 86، (إبريل – مايو 1980م)، ص 24–25.
21. أحمد الشامي، رياح التغيير في اليمن، (دمشق: مطبعة الكاتب العربي، 1985) ص 90.
22. (شهداء المعارضة في شمال الوطن – 1919–1961م)، مجلة الحكمة، السنة الثانية، العدد18، (فبراير1973م)، ص 58.
23. عبد العزيز المقالح، أحمد الحورش الشهيد المربي، (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، بيروت: دار الآداب، ط1، 1983م)، ص 15.
24. «صوت اليمن» افتتاحية العدد الأول، مرجع سابق، ص 108.
25. محمد محمود الزبيري وأحمد محمد نعمان، مطالب الشعب (عدن: دار الجنوب للطباعة والنشر، 21/ 6/ 1956م)، ص 6–7.
26. مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1990م)، ص 129.
27. أحمد محمد نعمان، كلية بلقيس قلعة تقدمية، (الاتحاد اليمني لجنة الثقافة والنشر، 1960م)، ص 15.
28. المرجع السابق، ص 22، 23، 24.
29. أحمد محمد نعمان، بلقيس منار المستقبل، (الاتحاد اليمني لجنة الثقافة والنشر، 1962م)، ص 31.
30. عن: أحمد أبو زيد، (التنوير في العالم العربي: قراءة أنثروبولوجية)، عالم الفكر (الكويت)، المجلد 29، العدد3، (يناير – مارس 2001م)، ص 42.
31. «رسالة الأستاذ أحمد محمد نعمان إلى عبد الرقيب عبد الوهاب»، الثوري، العدد 1706، (14/ 2/ 2002م)، ص 7.
32. المرجع السابق.
33. المرجع السابق.

34. المرجع السابق.
35. المرجع السابق.
36. (رسالة أحمد محمد نعمان إلى أول رئيس في الجنوب قحطان محمد الشعبي بعد الاستقلال في 2 ديسمبر 1968م)، عن: عبد الرحمن طيب بعكر، ثمانون عاماً من حياة النعمان (بدون معلومات إدارية، ط1، 1410هـ – 1990م)، ص 303.
37. محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص 137.
38. رسالة أحمد محمد نعمان إلى قحطان الشعبي، مرجع سابق، ص 304.
39. عبد الباري طاهر، (الذين ظلموا)، الثوري، العدد 1489، (4/ 9/ 1997م)، ص 4.
40. (رسالة أحمد محمد نعمان إلى الرئيس الأرياني)، التجمع (صنعاء)، العدد 280، (8/ 9/ 1997م)، ص 3.
41. (رسالة النعمان إلى عبد الله عثمان)، الثوري، العدد 1493، مرجع سابق، ص 5.
42. المرجع السابق.
43. المرجع السابق.
44. أحمد أبو زيد، مرجع سابق، ص 41.
45. محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص 38.

الفصل الثاني

شاعران وقاص يكتوي بنيران النسيان

- أولاً: الشاعر/لطفي جعفر أمان وسوسيولوجيا العاطفة

- ثانياً: عبد الرحمن فخري: شاعر الغموض والتأنق الفني

- ثالثاً: القاص/أحمد محفوظ عمر مبدع يكتوي بنيران النسيان

مدخل

فـي هـذا الفصل نركز عدسـة الضوء علـى شـاعرين مرموقين هما: الشـاعر/ لطفي جعفـر أمان، والشـاعر/ عبد الرحمن فخـري، والقاص/ أحمـد محفـوظ عمـر. فالشـاعران لطفـي أمـان وعبد الرحمـن فخـري شخصيتان لامعتان في مجال الشعر، والقاص أحمد محفوظ عمر له علو كعب في مجال القصة القصيرة.

الشـاعران المبدعان (لطفي، عبد الرحمن) يعتبران جزءاً من الإبداع الشعري في مدينة عدن وعلى التراب الوطني وذاع صيتهما على المستوى الوطنـي والعربـي، وتتميز إبداعاتهمـا بالثراء الثقافي والفنـي والمعرفي، والقـاص أحمـد محفـوظ عمر صـوت قصصي متـرع بالإبـداع تجاهلته الأقـلام ولم يحـظَ باهتمام الدارسـين والنقاد وكان علينـا واجب القراءة والـدرس لأعمالـه القصصيـة العامـرة بالإبـداع. ونقـوم في هـذا الفصل بدراسـة لسوسـيولوجية العاطفة والإبداع عند الشـاعر لطفي جعفر أمان، ثم نركز على شخصية الشاعر عبد الرحمن فخري ونقدم إضاءات مهمة على شعره وأهم مميزاته الشعرية، ومن ثم نقوم بقراءة للإبداع القصصي للقاص أحمد محفوظ عمر.

أولاً: الشاعر لطفي أمان
وسوسيولوجيا العاطفة والإبداع

توطئة:

الشاعر لطفي جعفر أمان (1928–1971م) تميز بعقل مبدع وثقافة واسعة الآفاق وبحياة معجونة بالتوتر والدهشة وجمال التمرد والتقلب بين حدّي الكآبة والحبور وبقلق إبداعي نجيب وبوجع لا ينطفئ فيه سحر الشعر ونضارة الأدب.

إنه سعيد بانتمائه إلى مملكة الشعر ويحمل في أحشائه أخاديد عميقة من الحزن وإشراقات الروح وشهقات العشق وروح التصوف ورعشة التساؤل وقوة الطاقة الشعرية.

فالأديب – على حد تعبيره – هو الذي يستطيع أن يثير القوى المعبرة الكامنة في مادته بومضة من ومضات العبقرية. فيدير من الفكرة الواحدة شرائط من الصور والمعاني والإيحاء، وينفث في اللفظة الواحدة ظلالاً من الخيال والحياء فيكتب مبتكراً تقرأ له وأنت صورة حية تتحرك حيث تتحرك الألفاظ... فالمعاني أو الأفكار شركة بين الناس، ولكن التعبير عن هذه الأفكار هو الصيغة التي يحتكرها الأديب. وليس أدباً ما لم نمتزج بما فيه من المشاعر[1].

النص الذي بين أيدينا محاولة لقراءة مغايرة للشاعر لطفي جعفر أمان ليس من زاوية شعرية وفنية بحتة، وإنما من زاوية اجتماعية – نفسية تجعل مساهمتنا ضرباً من التحدي الضخم.

فهذا الشاعر الذي يفيض سلاسة وليونة ملأ خريطة الإبداع الشعري

بإنتاجاته الرائعة التي لا تقع في مصفوفة الهشاشة الشعرية والتعبيرية، وإنما تقع في قلب الإبداع الشعري وترتفع إلى الذُّرى العليا في السبك والقوة والعاطفة والخيال والأسلوب والجودة الأدبية.

الشاعر لطفي لم يخلق خارج أسوار البيئة الاجتماعية ولم يكن مخلوقاً طارئاً في البيئة الوطنية والمناخ الفكري والأدبي، إنه ابن للبيئة الاجتماعية ونتاج للتنشئة الاجتماعية ورافد من الروافد الأدبية والثقافية، فالأسرة والمدرسة والمحيط الاجتماعي والثقافي دفعت بموهبة الشاعر لطفي إلى الأمام وصقلت موهبته وأصبح أديباً بارعاً صاحب ملكة إبداعية من طراز رفيع.

لم يتوقف النص عند هذا الحد بل توغل قدماً في محاولة لمعرفة الذكاء العاطفي الذي تمتع به الشاعر لطفي جعفر أمان، على اعتبار أن الذكاء العاطفي هو معرفة المشاعر والأحاسيس والإيماءات ومفاتن الإيحاء وألغاز الدلالة للغة الجسد التي يبعث بها الآخرون، وقبل ذلك معرفة الذات والعواطف وخلجات النفس الكامنة في أعماق الروح الإنسانية والتعبير عنها.

ونعرج في هذا المبحث على قراءة سوسيولوجيا الإبداع التي ترتكز أساساً على الموهبة والمعاناة الإبداعية والضغوطات النفسية والروحية التي يتعرض لها المبدعون في مسيرة الخلق الإبداعي دون أن نتغافل عن المعاناة الإبداعية التي مر بها الشاعر لطفي جعفر أمان ومخاض الولادة الشعرية.

ولا ضير أن أنوه إن هذه المساهمة الفكرية المتواضعة تجيب على التساؤلات التالية:

1. ما تأثير التنشئة الاجتماعية والفضاء الثقافي العمومي على موهبة الشاعر لطفي جعفر أمان؟
2. هل ثمة ذكاء عاطفي عند الشاعر لطفي جعفر أمان؟
3. ما مفردات سوسيولوجيا الإبداع الشعري عند لطفي جعفر أمان؟

أولاً: التنشئة الاجتماعية:

أ- الأسرة:

كان لطفي أمان في طفولته ليس كأقرانه من الأطفال العاديين، فمنذُ نعومة أظافره تميز بالرهافة الحسية والذكاء الاجتماعي ونعومة العاطفة وخصوبة الخيال، كان دقيق الحس رقيق الشعور، يطلق الأسئلة ويفكر ويتأمل، ومشغوف بالقراءة والدرس وحب الاستطلاع والفحص والمثابرة، وسريع الالتقاط للأفكار والتجارب والحماس في تحقيق الغايات المرجوة، ويتمتع بالاستقلالية ويتحمس لأفكاره وخيالاته وتطلعاته، ويحب التفرد في أعماله وتصرفاته ومناشطه المتعددة، مع عدم إهمال اللهو واللعب والتسلية وحرية التنقل والمغامرة. يتميز بطلاقة اللسان والنباهة والفطنة وحب الموسيقى والغناء والرسم وكان يحلم أن يكون شخصية باهرة، فكان يعتني بهندامه وملابسه المرقطة ومظهره الخارجي الخلاب، وأحب تقليد الشخصيات البارزة ونمى عقلياً وانفعالياً واجتماعياً ووجدانياً بصورة استثنائية. لقد كان يشبه أمه بصورة مدهشة للغاية وله مكانة عزيزة في شغاف قلبها حيث كانت تحبه حباً جماً وتخاف عليه من كل شيء؛ من الشارع، من الجيران، من الأصدقاء، من أولاد السوء، من المشاكل. وحجبته عن الأنظار وأحاطته بدفء وعاطفة جياشة، وكانت المدرسة الأولى في تعليمه قيم الحب والعاطفة والجمال والرحمة والإنسانية وترقية الشعور الآدمي، وكانت تحميه من الشرور وتفيض عاطفة وسلاسة وليونة وتسكب أحاسيسها وعاطفتها في أعماق روحه العذبة.

لم يكن لطفي مثل الروائي الأمريكي هنري ميلر (1891–1980م) الذي لم يعرف قط حب الأم وحنانها، حسب ما يذكره في كتابه المسمى «حياتي وعصري»[2]، بل كان مثل الشاعر التركي ناظم حكمت الذي يقول:

شيئان لا يمكن نسيانهما إلا مع الموت: وجه الأم التي أرضعتنا ووجه

مدينتنا التي عشنا فيها[3].

فلطفي في حديثه المنمق والرصين عن موهبته الشعرية لا ينسى ذكر أمه في مقالة «بلا حجاب» عندما انتفضت في خياله ذكريات بعيدة لعهد سحيق. ورأى نفسه في طفولتها الغريرة وهي تتأمل ذاتها وبينها وبين العالم حجب. كان يسير مع أخيه أحياناً، ومع نفسه أحايين منقطعاً عن أسباب اللعب الذي كان ينعم به وغيره من الصبيان وكانت أمه حريصة على أن تراه يعود في ملابسه كما خرج فيها نظيفة زاهية وأن تهيئ له في المنزل أسباب اللعب من دمى وتصاوير[4].

علماء الاجتماع يرون أن الأم نقطة انطلاق وحجر الزاوية في تطور نمو الطفل، وهي بالنسبة إليه المعين الأول لكل ما قد يحس به من حاجة، والكافلة الأولى لكل رغباته... تصبح عنده المصدر الأساسي للذة والأمن والطمأنينة... والأم لا تقدم الغذاء والوقاية فقط، بل تقدم معها بالضرورة العطف والحنان والمحبة، وإذا كان إهمال الغذاء والنظافة والحماية، كثيراً ما يؤدي بالطفل إلى المرض، فإن إهمال الطفل وحرمانه من العطف والحنان والمحبة، غالباً ما يهدد كيانه بالخطر، لأن الحرمان العاطفي الذي يسميه «جون بولبي» الحرمان من الأمومة كالجوع، لا يمكن للطفل أن يتغلب عليه أو يتحمله دون أن يصيبه منه الضرر[5].

يقول شاتوبريان: بدون المرأة يكون الرجل خشناً.. شرساً.. وحيداً.. جاهلاً بمعاني الرحمة.. التي هي عبارة عن ابتسامة المحبة[6].

لم يشعر لطفي في طفولته بالحرمان النفسي والعاطفي، وحظي بتطويق معنوي جميل وبأمن عاطفي وأسري واجتماعي ومعيشي. فالمعاملة والعناية الأسرية الفائقة من أمه وأبيه وجميع أفراد عائلته، أيقظت حواس طفولته السحرية وجعلته أرهف سمعاً وأثقب نظراً، وغرست الشتلات الأولى لشخصية شعرية رومنتيكية مبدعة.

ففـي فضـاء المنـزل تعلم أبجديـات الحـب والعاطفة والجمـال ونمت الملكة الشـعرية والموسـيقية وموهبة الرسـم، فبيت لطفي يضج من الداخل بالحياة والحيوية والإبداع، أو على حد تعبير الناقد الفلسطيني المتوكل طه أن الإنسـان في بيته يكشـف عن نفسه وعن وجدانه، وعن جزء ما من شخصيته، البيت امتداد لدواخلنا ولرغباتنا[7].

فالمنزل والأسـرة والمدرسـة والبيئة الاجتماعية التي عاش فيها الشـاعر لطفي جعفر أمان، جعلته يسكن في حنايا الإبداع ويلتصق بثنايا الحياة اليومية وتركـت بصمـة عزيـزة فـي عقله ووجدانـه وذكائـه الإبداعي وشـكلت نقطة انطـلاق لطاقة الاسـتيعاب وملكة الاكتسـاب وتجاوز عتبـة التقليد وتحريك العقل وتقليب الأفكار والخيالات ومنحته قوة الحدس ودقة التصوير والرقي الشـعري والإبداعي وأناقة الصياغة الفنية وسـاعدته على الانتقال سـريعاً من مرحلـة الطفولة الشـعرية والعاطفية إلـى مرحلة النضج الشـعري والعاطفي. فالشـعر لعـب جميـل بالخيال واللغة على حـد تعبير الناقد الأدبـي الكبير د. صلاح فضل[8].

وهنـاك إيمـاءة مهمة للروائي الكبير حيدر حيدر عن الأعمدة الأساسـية التـي تشـكل الأديب وهي: تجربتـه، ثقافته، مخزونه الثقافـي، وإلى أي مدى هـو واسـع المعرفـة والاطلاع، ثـم تأتي الموهبـة. وأضيف إلى ذلـك التأمل والاستبطان الداخلي للمبدع[9].

ففي مشـرق حياته ارتشـف الشـاعر لطفـي جعفر أمان مـن مناهل العلم والمعرفة والثقافة من أسرته ومدرسته وبيئته الاجتماعية، فهو ينتمي إلى أسرة عدنية متوسطة الحال امتطت صهوة العلم والثقافة والأدب والجمال.

وكان الفضـاء العائلي محفزاً جداً لنضوج ونمو الملكة الشـعرية والفنية للشـاعر لطفـي أمـان، ففـي زوايـا وأركان غرف المنـزل كانت تفـوح رائحة الإبداع، ففي المنزل مكتبة كبيرة وآلة عود وأسطوانات غنائية وفرشات للرسم

وآلة للعزف وأدوات للتصوير ورهافة فنية وفسيفسات ديكورية ولوحات فنية متنوعـة عززت الذوق الجمالي لدى لطفي وتفتقت موهبته الشـعرية والفنية، فله أشقاء مبدعون:

الكبير يعتكف في المنزل بين الكتب، ويحب العزلة ويرتاب الناس...

والثاني يجيد العزف على العود...

والثالث هوايته الرسم والتصوير...

والرابع تتلمذ في السودان ومغرماً بالأسطوانات الغنائية المصرية فأُغرم بها معه وكان يقرض الشعر(10).

وعلينا واجب الإشـارة إلى أن شـقيق لطفي، نجيب جعفر أمان (1919م – 1980م)(11)، كان شـاعراً وتربويـاً مرموقاً ومعلماً للغـة العربية وفنون الخط والرسـم، درس فـي الخرطـوم وتخرج مـن كلية الصنائع والفنـون بلندن وله علو كعب في الشعر والشعر الغنائي. ولعل من أشهر الأغاني التي تردد على الألسـن تلك الأغنية التي لحنها الموسـيقار يحي مكي وغناها الفنان/ أحمد ناجي قاسم:

سلم على الزين سلام برمش العين

حيا وقال لافين يا ساكن العينين

وعند وفاة الشاعر/ لطفي، رثاه بقصيدة قال فيها:

قضـاء جـرى.. لا تقـدر النفـس رده　　وحُكـم المنيـة فـي الخلائـق جـارٍ

تبـاً لـذاك اليـوم.. يـوم تصاعـدت　　منـا القلـوب.. بموت لطفي الشـاعر

يـا مـوت لـوكان الفـداء لـك رضـا　　أو كنـت تطمـح أخذنـا بالثـأر

لفديتـه روحـي.. وروح ولـدي　　مـا أحلى الفـداء «لأبي جهـاد» الثائر

فالتنشـئة الاجتماعية كان لها عميق الأثر في صقل موهبة لطفي الشعرية وتنميـة أحاسيسـه الشـعرية والفنيـة وعمقـت روحـه الإبداعية فمـن ضلوعه خرجـت الولادة الشـعرية وارتفعت مكانته الفنية وكتب الشـعر بزخم وجرأة

وصب سحره الشعري في النفوس. ولقد كان باهراً في تلاوة الشعر وبصوت جـذاب فيـه ثراء ودفئ وجمال، وفسـيولوجيا الصوت جعلت منـه أيضاً عيناً مشرقة ووجهاً أدبياً وشعرياً وتربوياً متألقاً.

فالتنشئة الاجتماعية هي عملية تعلم ليكون المرء عضواً في مجتمع ما، ويصبـح مـن خلالهـا كائناً اجتماعيـاً، وهي تجربة دائمـة، وتكتمل من خلال التفاعل مع الآخرين والمشاركة في روتين الحياة الثقافية اليومية.

والتنشـئة الاجتماعيـة هي مفهوم يقر بأن الهويـات الاجتماعية والأدوار والسـير الذاتيـة الشـخصية تتكـون مـن خـلال عمليـة متواصلة مـن الانتقال الثقافي[12]. وهي العملية التي يتعلم فيها الطفل أساسـيات الحياة الاجتماعية ويتطبع بثقافة وعادات وتقاليد المجتمع ومن خلالها تتكون سمات الشخصية وتصقـل موهبتـه وتكتسـب المعاييـر الاجتماعيـة والأخلاقيـة والاتجاهـات والمعرفـة والأدوار وتكنيـك التفاعـل والتواصـل والتكيـف والاندمـاج الاجتماعي.

ب- المد رسة:

ونحن في سـياق الحديث عن الشـاعر لطفي، لا ننسى دور المدرسة في تنمية الملكة الشعرية للشاعر/لطفي أمان.

فالمدرسـة تنقـل العلـم والمعـارف والثقافـة للناشـئة وتسـاعدهم على التدريـب والأعمال والمهارات للعمل في المسـتقبل للحصول على أشـغال بمهارات مقبولة وللصعود الاجتماعي وتحسين أحوال الأفراد.

فالمدرسـة مـن مؤسسـات التطبيـع الاجتماعـي فتسـاعد التلاميـذ على التعـرف علـى البيئـة المحيطة بهـم والظروف والمؤشـرات التـي تتدخل في حياتهم ورفاهيتهم فتقوم بعملية تخطيط برامج مليئة بالنشـاطات الاجتماعية والرياضية والثقافية لاكتساب المهارات الضرورية لعملية التكيف الاجتماعي وتنمية صفة المشاركة والتفاعل والانتماء[13].

تقـول إحـدى القامـات الثقافية: في المرحلـة الابتدائية كنـت أقرأ كلمة الصبـاح واشـتركت في مجلة «الحائـط» ولأن الفنون كلها تتلاقح وتتشـابك ويلتقي بعضها ببعض كنت في فريق التمثيل والموسـيقى في مراحل الدراسة الأولى[14].

فتنميـة الإبداعـات والمواهـب والـذوق الجمالي ليسـت مهمة الأسـرة والمحيط الاجتماعي فقط، بل تتحمل المدرسة عبئاً في مجال تربية المواهب بألوانها الطيفية ويتجلى ذلك في مناشـطها الصفية واللاصفية، يقول الرسـام فاروق الجفري:

إذا انتقل الطفل إلى المدرسـة فإن عوامل الجمال لا بد من توافرها في كل ركن من البيئة الجديدة أي المدرسة داخل الصف والممرات والملاعب، بحيـث تقع عيناي الطفل على أشـياء منسـقة محسـوبة من الوجهـة الجمالية ومريحـة للنظـر، كمـا أن طريقـة كل معلم في التدريس تتطلـب من كل منهم عنايـة خاصـة بالناحية الجمالية.. حتى في هندامـه وتعامله مع التلاميذ لا بد أن يكون قدوة لينقل الجمال من كل المصادر إلى الأطفال فينفسـونه من كل ما حولهم[15].

وغنـي عـن البيان القـول، إن المدرسـة صقلت موهبة لطفـي أمان، لقد كان موهوباً في الشـعر والعزف على العود والغناء والرسـم والخط والحفظ والنباهـة والسـمو والاسـتقامة والفراسـة والنظافـة والتأنـق والجمـال وكتابة المقـالات فـي المجلـة الحائطية، ولاقى تشـجيعاً كبيراً مـن المعلمين، وكان أنموذجـاً فـي الدراسـة والإبداع ونجماً سـاطعاً في المهرجانـات والحفلات المدرسية والنشاطات اللاصفية، يلقي فيها القصائد الشعرية ويبرز مواهبه في الرسـم والخط والغناء والموسـيقى والتمثيل، وكان مضرب مثل للطلاب في المدرسة.

وعبـر المدرسـة بـدأ يتسـلق سـلالم المجد والشـهرة وتغلغـل في قلب

الأشـياء وكان يلتهم الكتب ويسـعى وراء الإدهاش والعاطفة والإبداع ويعبر من ضفة شـعرية إلى أخرى، وتراكمت لديه الخبرة والثقافة والمعرفة الأدبية وتكثفت الشحنة العاطفية والشعرية والبلاغية.

ففـي طفولـة لطفي/ بـدأت تبزغ موهبته الشـعرية والإبداعيـة في المنزل والمدرسـة والشـارع ومع الأقران (الأصدقاء) وفي الفضاء العمومي ولذلك كما يقول الشـاعر نزار قباني: الطفولة هي المفتاح إلى شـخصيتي وإلى أدبي، وكل محاولة لفهمي خارج دائرة الطفولة هي محاولة فاشلة[16].

فالشـعر والأدب والفـن ظواهـر اجتماعيـة يصعـب فهمهـا خـارج إطار المجتمـع والحيـاة الاجتماعيـة والطفولـة والتنشـئة الاجتماعيـة والإبداعية. وشـخصية الشـاعر والفنان نتاج لوضع اجتماعي ولمؤثرات اجتماعية وبيئية محيطـة ولمؤثرات اقتصاديـة واجتماعية وثقافية وتعليمية ولشـبكة العلاقات الاجتماعية والتواصل الاجتماعي والبيئة الاجتماعية المحيطة.

فالفنانون يعتمدون بشـكل مباشـر أو غير مباشر على سلسلة من الأفراد الآخرين للقيام بما يقومون به سـواء كان رسـم لوحة أو حتى كتابة قصيدة... وإذا أردنـا أن نفهـم كيف يمكن لأفراد معينين ممن صُنِّفوا كـ «فنانين» وتلقوا تدريبـاً «فنيـاً» كيف يسـعون للحصول على قوتهم وكيف حتـى في لحظاتهم الأكثـر خصوصية وإبداعية يعتمدون بطريقة أو أخرى على أفراد آخرين ممن ينخرطون ضمن سلسلة كاملة من العلاقات الاجتماعية[17].

ففـي الأسـرة والمدرسـة وجماعـة الأتـراب نمت شـجرة الإبـداع عند الشاعر/ لطفي وازدادت خصوبة في المحيط الثقافي العمومي.

ثانياً: الفضاء الثقافي العمومي:

المدينـة هـي بوابة الحضـارة تنشـر بريقها وشـعاعها الفكـري والمدني والحضـاري والثقافـي والاجتماعـي والتعليمـي والقيمـي فـي كل الأرجـاء،

وتهضـم الثقافـات والأعـراق والاتجاهـات والعقائـد وتخلـق مكونـاً ثقافيـاً واجتماعيـاً وحضاريـاً جديداً بنكهة جديدة تسـتوعب المنابـت والاتجاهات تحت مظلة مدنية مفعمة بالتسـامح والحرية والانفتاح على العالم بمنأى عن العصبيـات القرويـة والمذهبية والعرقية والقبلية والعشـائرية التي تشـوه وجه التمدن والإخاء والحرية والمساواة.

يقول الروائي الجزائري واسيني الأعرج:

المدينة هي إذن رديف الحرية والحرية بالنسبة لي شيء مقدس إلى أبعد الحدود. عندما تسرق مني حريتي أختنق وأموت في اللحظة نفسها[18].

أما الروائي وعالم الاجتماع المغربي الطاهر بن جلون فيقول:

علاقتـي بالمـدن علاقة مهمة لأنني مدني قبل كل شـيء ولسـت إنسـاناً قرويـاً... أما طنجة فهي مدينة الانفتاح والمرور والعبور، الدخول والخروج، كونهـا مينـاء أيضـاً[19]. ويؤكـد الشـاعر المصـري الكبير أحمد عبـد المعطي حجازي في كتابه «بابل الشعر»: أن الحضارة الحديثة كلها حضارة مدن، فمن الطبيعي أن تحتل المدينة مكاناً مرموقاً في ثقافة العصر الحديث[20].

فمدينة عدن مدينة حضارية أثرت بثقافتها وتمدنها وروحانياتها وجغرافية عقلها وفضاءات الأمكنة على البشر في التراب الوطني والإقليمي فهي مدينة عامرة بالثقافة والفن والتحضر، وتميزت بمناخ ثقافي وفكري خصيب ورضع من ثديها الفكري والثقافي والروحي الكتاب والشـعراء والمثقفون والقامات الفكرية والروحية، ففي جنباتها أينعت الأفكار وتقارعت النظريات وتقادحت الآراء بصـورة مدنيـة جميلة فلمعت المواهب في مناخ فكري وثقافي رحيب في نسـيج ملتحم وتفجرت ملكات إبداعية من طراز رفيع تتشـابك وتتلاقح وتتثاقف وتبدع وتصب أنهاراً من البلاغة الفنية والشـعرية والثقافية والروحية وتخـرج مـن الأعمـاق بنغمات حارة، وهذا مـا كان عليه شـاعرنا الفذ لطفي جعفـر أمـان الـذي أعطتـه هـذه المدينة طاقـة روحية عاليـة غاية فـي العمق

والتجلي والتشـامخ الحسـي والعاطفي. فالشعر على حد تعبير الشاعر الكبير أدونيـس: طاقـة تدفع الإنسـان إلـى الأبعد مما هو، إلى الأعلـى مما هو، إلى تجاوز نفسه باستمرار[21].

وما كان لهذه القامة الشعرية المبدعة أن تبلغ أصابع المجد إلا بمساندة البيئـة الاجتماعيـة والمنـاخ الثقافـي الثري الـذي كان له أثر عظيـم في ترقية الملكـة الشـعرية والفنية للشـاعر لطفي أمان الذي أصبح فارسـاً من فرسـان الشـعر، تشـرّب مـن ثقافة عـدن وثقافة الأسـلاف والثقافة المحليـة والعربية والعالميـة وتغـذّى من مرجعيات ثقافية خصبة حتى أصبح مبدعاً وكأنه يقول كما قال الشاعر شوقي أبو شقرا: سلاحي القلم والخيال[22].

لقد أحب الشاعر لطفي جعفر أمان مدينة عدن وأحبته، ولـم يشعر بغربة ولا ضيـاع بيـن أحضـان هـذه المدينـة الفاتنة، ولم يسـر على منهج الشـاعر المعـروف أحمـد عبـد المعطي حجازي الـذي وصف مدينة القاهـرة بالكفر والوحشـة والخشـونة والبرود والقساوة في ديوانه الشـعري الأول «مدينة بلا قلب 1959» حيث يقول[23]:

أيا قاهرة!

آيا قباباً مثخنات قاعدة

يا مئذنات ملحدة

يا كافرة!

أنا هنا لا شيء، كالموتى، كرؤية عابرة

أجر ساقي المجهدة

للسيدة!

للسيدة!

أمـا الشـاعر لطفـي أمان فلم يكفـر بمدينة عدن ولم يدر ظهـره لها. لقد شرب من مائها وأكل من قوتها وتعطر بسحرها الفاتن وأدمن عشقها وشرب

مـن رحيقهـا روح الفـن والجمـال والأناقة وكانـت له مصدر سـحر وجاذبية وبيـن أحضانها ولدت وتطورت موهبته الشعرية وترسـخت قامته الإبداعية. لقد خلق من دم وروح مدينة عدن معجوناً بمفردات الحياة العدنية ومشغوفاً بجبل شمسـان وقلعة صيرة وحقات وسـاحل أبين وزرقة البحر، وبالشـوارع والحـارات والمنـازل الأنيسـة، ومحبـاً للنفـوس السـامية وتنـوع الأعـراق والثقافـات. فلعـدن بريق وألق سـاطع في وجدان الشـاعر ففي لوحة شـعرية بارعة تقطر عذوبة ورقة يقول[24]:

حلـم يداعبنـي ببسـمتك التـي	يغـري سـناها كالمـلاك الطاهـر
فأفيـق مـن سـكراته متعثـراً	وإذا بطيفـك يختفـي عـن ناظـري
أواه، كـم أشـكو النـوى وتهيجنـي	ذكـرى زمـان فـي ربوعـك عاطـر
نلهـو علـى حقـات، يدفعنـا الصبـا	والحـب فـي أحـلام ليـل سـاهر
ونطـوف فـي صيـرى، وننشـر كلمـا	هـاج الهـوى فينـا، جناحـي طائـر
تهـدي لنـا الأمـواج أرخـم نبـرة	رقصـت لهـا روح الحزيـن الحاسـر
وكأنمـا النسـمات فـي مسـرى	الهوى خفقات مشـتاق وهمسة ذاكر
عهـد كأحـلام العـذارى، أينعـت	فـي زهـور مباهـج وبشـائر
عهـد كأشـجان الحزيـن، يذيبهـا	فيـض مـن الأمـل السّـني الغامـر
عهـد مضـى مـا بيـن كأس مشـرق	ورنيـن أوتـار، ونفـح أزاهـر
....	....
ويمـر طيفـك فـي خيالـي باسـماً	فيهـز قلبـي كل طيـف عابـر

كانت عدن منارة للتمدن والتحديث على مستوى اليمن والجزيرة العربية، وكان لمينائها العالمي قيمة عزيزة في نهضتها وتقدمها، فعدن والميناء وجهان لمسكوكة واحدة.

وفـي هـذا الفضـاء الثقافـي الخصيب المتسـامح يلج الشـاعر لطفي في جدال عقلاني مسـتنير مع الشيخ/ كامل عبد الله صلاح (وكان عمره 21 سنة)

عن الصوفية والفلسفة والمتكلمين في الفكر العربي الإسلامي. وعن الشعر الصوفي يقول لطفي: الجمال هو الألق الساحر الذي يغري الصوفي إليه، ويثير فيه إلهاماته وخياله وخلجات نفسه وروحانياته.. الجمال الصافي الطليق الذي يرى فيه الصوفي شعاعاً من أشعة الذات التي تعلق بها، والشاعر حينما يحاول أن يصل إلى الجمال المطلق فإنما يحاول أن يروِّض نفسه على هذه الرياضة الصوفية... وكانت رابعة العدوية المصرية أول من استعملت لفظة الحب للعشق الإلهي[25].

وجمعت الأستاذ لطفي جلسات روحانية ممتعة مع الشيخ/ محمد بن سالم البيحاني حيث دخلا في نقاشات وجدالات متنوعة في الشعر والأدب والفلسفة والدين وفكر المعتزلة والتفلسف في الإسلام، وبرغم الاختلاف بينهما في بعض المسائل الفكرية والفلسفية والأدبية إلا أن الأستاذ لطفي يقدر سماحة الشيخ/ البيحاني ويكبر فيه سعة العلم والإطلاع حيث يقول:

ولست أزعم يا سيدي أنني ملم بالدين إلماماً أو موغل في الفلسفة إلى الأعماق، ولكنني مع تعظيمي لمقامك وإكباري لآرائك – أعتز بثقافتي اعتزازاً ما دمت أعتنق الحق وأتجنب الانزلاق، وأجرؤ بفكري ما دامت غايتي الإنصاف ما يدعيه المرء لنفسه[26].

إن من يقرأ بعين فاحصة هذه السجالات الفكرية الشائقة يعرف عن قرب عمق الشاعر لطفي أمان ورصانته، فلم يكن مترعاً بالثقافة الأدبية والشعرية، بل كان له علو كعب في الثقافة والفلسفة والمعرفة الإنسانية. وهذه المساجلات الرصينة تعطي مؤشراً ناصعاً لعملية الانفتاح والمثاقفة والتسامح وعدم الانغلاق الفكري والثقافي والديني.

وفي فضاء هذا الزخم الثقافي المثمر أطلق لطفي إبداعاته الفكرية والثقافية وأصدر دواوينه الشعرية:

1– بقايا نغم، 2– كانت لنا أيام، 3– الدرب الأخضر، 4– ليل إلى

متى، 5- إلى الفدائيين الفلسطينيين، 6- إليكم يا إخوتي، 7- أعيش لك، 8- الليالي.

ولا ننسى أن الشاعر لطفي تحصل من هيئة الإذاعة البريطانية على الجائزة الأولى في مسابقة شعرية عام 1965م بقصيدة «غزو الفضاء».

وعمل محاضراً في مركز تدريب المعلمين ومذيعاً من الطراز الأول في إذاعة عدن عند تأسيسها 1954م وأغنى عاطفتنا ووجداننا الفني بقصائده العاطفية التي غناها الفنان أحمد بن أحمد قاسم وآخرون، وكان في إذاعة عدن ضمن لجنة إجازة النصوص والأصوات الغنائية 1958م بمعية عبد الحميد سلام، وعلوي السقاف، وعبد الله عزعزي.

لقد كان للمؤسسات الثقافية والتعليمية والإعلامية يد طولى في توطيد مداميك الثقافة والتنوير والنهضة العقلية ونشر قيم المحبة والتسامح والتساكن الاجتماعي وغرس شتلات التنوير.

فالثقافة لا تزدهر إلا في وعاء ثقافي حامل للثقافة، فلا بد من وجود بيئة ملائمة ومتحضرة ومتمدنة لنشأة وتطور الثقافة والتنوير العقلي وهذا ما كانت علية مدينة عدن.

ومن نجوم الفقه والثقافة والأدب والفن والصحافة في تلك المرحلة:

أولاً – الشخصيات الدينية:

الشيخ/ أحمد بن محمد عوض العبادي، الشيخ/ محمد بن داؤود البطاح، الشيخ/ كامل عبد الله صلاح، الشيخ/ مطهر الغرباني، الشيخ/ محمد بن سالم البيحاني، الشيخ/ علي محمد باحميش، الشيخ/ عبد الله محمد حاتم، الشيخ/ محمد عوض باوزير، الشيخ/ محمد سعيد الصائغ، الشيخ/ خير الدين علم الدين، الشيخ/ عبد الله بن علي الصافي، الشيخ/ محمد الهتاري، الشيخ/ محمد العُقيلي، الشيخ/ عبد القادر مكاوي.

ثانياً – الشعراء:

عبـد المجيـد الأصنج، محمد عبده غانم، أحمـد حامد الجوهري، علي محمـد لقمان، إدريـس حنبلة، علي عبد العزيز، محمد سـعيد جرادة، نجيب جعفـر أمـان، أحمـد شـريف الرفاعي، أحمـد غالب الجابري، محمد حسـن عوبلي، عبد الله عبد الكريم، عبد الله فاضل فارع.

ثالثاً – الفنانون:

إبراهيم محمد الماس، أحمد عوض الجراش، يحيى مكي، خليل محمد خليل، عمر محفوظ غابة، أحمد قاسم، محمد مرشد ناجي، محمد سعد عبد الله، سـالم بامدهف، أبوبكر سـالم بلفقيه، عبد الرحمن باجنيد، محمد صالح همشري، نبيهه عزيم، فاطمة علبي، أبوبكر فارع، ياسين فارع، فرسان خليفة، علي أحمد جاوي، فتحية الصغيرة، رجاء باسودان، وديع هائل، محمد عبده سعد، احمد ناجي قاسم، فؤاد الشريف، محمد عبده زيدي، طه فارع، محمد باسـويد، محمد سـعيد منصر، أم الخير عجمي، جعفر عبد الوهاب، ياسـين شوالة، وديع حميدان، أحمد علي قاسم، إسكندر ثابت، أسمهان عبد العزيز، حسن وحسين فقيه.

رابعاً – الأدباء والكتّاب:

محمـد علي لقمان، محمد علي باشـراحيل، محمـود محمد عبد القادر مكاوي، هاشم عبد الله، عبد الرحمن جُرجرة، عبد الله باذيب، عائض سالمين باسنيد، علي باذيب، محمد سعيد مسواط، حمزة لقمان، عبد الرحيم لقمان، عبـد الله محمـد الطيب أرسـلان، حامد عبد الله خليفـة، أحمد محفوظ عمر، محسن عبد الله خليفة، كمال حيدر، محسن حسن خليفة، عبده سعيد صوفي، محمد أحمد بركات، يوسف مهيوب سلطان.

ثالثاً: الذكاء العاطفي:

أعنـي بالشـاعر – كمـا يقول جبـران خليل جبران – ذلـك المتعبد الذي يدخل هيكل نفسه فيجثو باكياً فرحاً.. نادباً متهللاً.. مصغياً مناجياً. ثم يخرج وبين شفتيه ولسانه أسماء وحروف.. واشتقاقات عديدة لأشكال عبادته التي تتجـدد فـي كل يوم.. وأنواع انجذابه التي تتغيـر في كل ليلة.. فيضيف بعمله هذا وتراً فضياً إلى قيثارة اللغة.. وعوداً طيباً إلى موقدها..[27].

ولطفـي جعفـر أمـان ينتمي إلـى هذا الصنف من الشـعراء الرومانسـيين المبدعيـن لا الشـعراء المقلديـن أصحـاب المواهـب الفاترة الصلـدة الباردة الذين قال عنهم الشيخ/ محمد سالم البيحاني:

إذا نهـق الحمـار وقـال شـعراً فسـم الشـعر حينئـدٍ شـعيرا
وعنـد ملوكنـا علـف وتبـن وقـد صـار الرجـال لهـم حميـرا
وكـم فـي النـاس مـن رجـل إذا مـا رأى نفعـاً يبيـع لـه الضميـرا
وإن مـن الرجـال لمـن تـراه عظيمـاً وهـو لا يسـوى ظفيـرا

ويجـزم لطفـي أن هنـاك شـاعرية مزيفـة تنحـت الألفـاظ المجـردة من الخفقـات والإحسـاس والتجـارب، أو هـي ملتقطهـا من الدواويـن المتفرقة لترصهـا فـي قصيـدة "عصماء" مجـردة من كل نبضة حياة أو ظل شـخصية. وهنـاك شـاعرية مفتعلـة الإحسـاس عارية مـن الصور والظـلال لا نحس لها حرارة ولا وهجاً[28].

لقد كان لطفي أمان هرماً سـامقاً في الشـعر، مدبوغ شـعره بقوة الخيال ودقة التصوير وجزالة اللفظ وثراء العاطفة، وأضافت فسيولوجيا صوته ملمحا عاطفياً وجمالياً فاخراً في فضاء شعره.

مـا زلت أذكـر وأنا طفل صغيـر عندما كانت عيناي ترنوان إلى الشاشـة الفضية (التلفزيون)، حين كان يلقي قصيدة في رثاء الزعيم جمال عبد الناصر الـذي مات فـي 27/ 9/ 1970م. لقد جذبني لطفي كما شـد انتبـاه العامة التي

كانـت تنصـت لذبذبـات صوته الفخم المتفـرد في النطـق والأداء، لقد صور بصـدق أحاسـيس الفجيعـة الكبرى التـي حلّت في نفوس وقلـوب ووجدان الأمـة العربيـة، وكان يلقي قصيدته الرائعة برصانة وفصاحة وتماسـك مرفوق بتعابير جسدية ترجمت صدق العاطفة والمشاعر في قالب شعري لذيذ:

أنت مـن يزرع قلب الشـمس ... أضـــواء جـديـدة

أنـت مـن يعقـد فـوق المجد ... أمـــجـــاداً عـديـدة

أنـت مـن يبنـي مـن التخليـد ... آيـــات فـــريـــدة

أنـــت هـــذا مـعـجـزات ... تبهـر الشـمس العتيـدة

يــــــا جــــمــــال[92]

فالعاطفـة كمـا يشـير العلماء هي إحسـاس قـوي وحالة معقدة للجسـد والعقل وتشـمل الجسـد والتغيرات في الأحشاء، وتعابير الوجه والقوام، كما تؤثـر مـن الناحية الذهنية فهي تزيد من الإدراك والاسـتثارة، واحياناً تشـوش التفكير...[30].

وهي تعبير الفرد عن حالته النفسية وإحساسه ومشاعره أو التعبير الصريح والعلني عن حالته العاطفية[31].

فإذا كان الذكاء العاطفي، أن نكون قادرين مثلاً على التحكم في نزعاتنا ونزواتنـا، وأن نقرأ مشـاعر الآخريـن الدفينة ونتعامل بمرونـة في علاقتنا مع الآخرين[32]، فإن لطفي كان قارئاً حصيفاً لمشاعر الآخرين وأحاسيسهم.

ففي «قصيدة متسـول»: يقرأ الإيماءات الذليلة للمتسـول الصغير، حيث يقول فيها[33]:

في وجهك المحزون يا طفلي الصغير

وطني الكبير

وطني بأوسع منتهاه

...

وتمد لي كفاً هزيلة

(لله) تستجدي

فتعصر مهجتي.. وتذوب روحي

عيناك خفض

ولفتتك الذليلة:

(لله.. يا تيدي)

فتنزف بي جروحي

لقد كان لطفي مترعاً بعاطفة الحب وبالعاطفة الإنسانية التي نمت وترعرعت معه منذُ صباه حتى صارت عاطفة خلاقة مبدعة تفيض منها المشاعر الإنسانية وتصور ببلاغة جوهر الوجع والحب وجودة العلاقات العاطفية والإنسانية:

فوزية

يا أحلى الأسماء السحرية

يا نغماً يعبق في قيثارة حورية

يا أغلى لؤلؤة نبضت إنسانية

يا رفقة دربي تملؤني روحانية

يا درة حبي الأبدية

يا فوزية[34]

ويعتمد الذكاء العاطفي على خمسة محاور رئيسية يمكن البدء في تنميتها منذُ مرحلة الطفولة المبكرة كما يلي:

1. **الوعي بالذات والآخرين** بأن يدرك الصغير طبيعة مشاعره وأثر تصرفاته على مشاعر الآخرين.
2. **تعليم الطفل التحكم بالمشاعر** السلبية، التي يعانيها مثل الإحباط، القلق، العنف، الغضب، والاندفاع.

3. **حفز الذات** وذلك بمساعدة الطفل منذُ سنواته الأولى على وضع أهداف من خلال اللعب ثم من خلال وقائع حياته الاجتماعية والعلمية بعد ذلك تشجيعه على تحقيقها حتى مع وجود عقبات، وبث روح التفاؤل والأمل لديه
4. **التعاطف مع الآخرين**، بأن ننمي لدى الصغير القدرة على فهم مشكلة الآخر، وتفهم دوافعه وردود أفعاله، وإظهار التعاطف معه.
5. **تنمية القدرة** لديه على مد جسور الصداقة مع الآخرين، والتعاون معهم، وإذابة الصراعات التي قد تنتج من أي علاقة[35].

فلو لا الذكاء العاطفي الذي اكتسبه لطفي في غميس التنشئة الاجتماعية المقصودة وغير المقصودة في الفضاء الاجتماعي العام، ونمت من خلالها موهبته الشعرية والفنية والإبداعية بصورة براقة وصاعقة عكست الواقع بفن شعري جميل، لما أستطاع أن يترجم أحاسيسه ومشاعره بدقة متناهية في نصوص شعرية وغنائية خلاّبة:

خذ دمعتي.. في راحتيك
خذ نظرتي.. في ناظريك
خذ لوعتي.. تهفو إليك
خذني أنا – كلي أنا – ملكاً لديك
من بعد هذا ما تريد؟
قل لي بربك.. ما تريد؟
لو كان قلبك من حديد
كانت تذوبه.. دموعي
ويهز قسوته ولوعي
فيلين لي
ويضمني

ويشدني

ملكا لديك[36].

ولا أنسي أن أشير إلى أن الشاعر لطفي كان حاذقاً في لغة الإشارة أو ما يسـمى بلغة الجسـد – وهي أداة للتواصل الاجتماعي – فعندها يبث الإنسان رسائل واضحة وبليغة عبر ما يريد قوله بطريقة خرساء دون لفظ.

والإنسـان لا يتكلـم بلسـانه فقط وأعضـاء النطق الأخـرى ولكنه يتكلم بأعضاء جسمه أيضاً، إنه يومئ برأسه ويغمز بعينيه ويزم بشفتيه ويشير بأصابعه ويهـز منكبيـه، إن هذه الإشـارات المصاحبة للألفـاظ المنطوقة تقـوم بتأكيد دلالات هـذه الألفـاظ مـن ناحية، أو إكمـال ما يعتورها من نقـص من ناحية ثانية، ومن هنا تتمثل أهمية لغة الإشارات الجسمية في نقل الأفكار والمشاعر والآراء والعواطف[37].

ويكفـي أن نقـرأ هذه الكلمات الشـعرية التي غناها الفنان/ أحمد قاسـم للتدليل على ما ذهبنا إليه سابقاً[38]:

أسمر وعيونه

تلعب بي.. وتلعب بفنونه

ميلاد الفجر على جبينه

إنه أسمر

أسمر مولود

من روح العنبر وأصل العود

عاد لما يدور عيونه السود

آه من أسمر

وفي مقطع آخر[39]:

عيـون تناجـي عيـون   وتـرد عليهـا السـلام

وعيـون برمش الجفون   تشـبك مواعيـد غـرام
وعيـون آه مـن عيـون   ترمـي القلـوب بسـهام

وفي مقطع ثالت[40]:

سمعت أبين على الأمواج تتنهد

لما حواك الفؤاد

والعين تناجي العين

....

الله من ذي العيون، ومن ذي الشفاه والنهد

ذي ما يقر مرة

إلا وثار مرات

آه من نهدتك.. والخد فوق الخد

جمرة على جمرة

تزيدها الآهات

آه من خمرتك ذات الروح بها ترتد

بالبسمة والنظرة

سكبتها كاسات

ومما سـلف يمكننا القول إن الشـاعر لطفي جعفر أمان بأحاسيسه الفنية والشـعرية المرهفـة أسـتطاع أن يصور بدقـة متناهية حـرارة العاطفة والوجع الممتع ومشـاعره النفسية والحسية الرقيقة وحبه الوقاد بتعابير وكلمات تقطر شـعراً وترتفع إلى الذروة العليا في السـبك، وفي عين الوقت كان حاذقاً في إدراك مشـاعر الآخريـن وتصوير حركاتهم وسـكناتهم وإيماءاتهم وتعابيرهم النفسـية والجسـدية وجمـال أرواحهـم وأشـكالهم والرسـائل المشـفرة التي يطلقونها بأسلوب فني عذب وبذكاء عاطفي رصين.

رابعاً: سوسيولوجيا الإبداع:

سوسيولوجيا الإبداع تهتم بالطقوس الإبداعية وعلاقتها بالبيئة الاجتماعية والمؤثرات الخارجية المحيطة بالفنان والشاعر والمبدع.

فعملية الإبداع الشعري عند لطفي جعفر أمان على عروة وثقى بـ:

1- الموهبة، 2- البيئة الاجتماعية، 3- التنشئة الاجتماعية والإبداعية، 4- ثراء الفضاء الثقافي، 5- الحرية الثقافية، 6- الانفتاح الذهني، 7- التفاعل العقلي والانفعالي والسلوكي، 8- التواصل الاجتماعي، 9- المثاقفة، 10- التفكير والقلق الإبداعي، 11- التركيبة النفسية للشاعر لطفي، 12- الاستقلال وتفرّد الشخصية.

ولقد قال أحد المختصين في شئون الإبداع إن الإبداع هو حصيلة تفاعل العوامل النفسية مع العوامل البيئية[41].

ومن الملاحظ، كما يشير العلماء أن إبداعات المبدعين والشعراء منهم تأتي:

1- أثناء العمل، 2- أثناء الاستماع إلى خطبة، 3- المشي ليلاً، 4- أثناء التمارين الرياضية، 5- أثناء القراءة، 6- أثناء اجتماع ممل، 7- قبل أو بعد النوم، 8- أثناء الذهاب إلى العمل، 9- أثناء الاستحمام، 10- في الحمام[42].

فالمعارف الإبداعية عنصر مهم في الإبداع، ويشير علماء النفس إلى الضغوطات الشائعة التي يتعرض لها المبدعون:

- الصراعات العامة وضغوط العمل والمنغِّصات اليومية.
- التغيرات المتعلقة بالانفصال والعزلة عن الأسرة والمجتمع.
- الضغوط العضوية الداخلية كالإصابة بمرض (نفسي أو بدني) أو الإدمان.
- الأعباء التي تفرضها العلاقات الاجتماعية وما تؤدي إليه من عادات صحية سيئة، واختلال النظام الغذائي.

- النشاط الذهني الزائد والإجهاد العقلي.

ومن المظاهر السلوكية للضغط والإجهاد:

* اضطرابات النوم، واضطراب القلب، والتوجس، والقلق على أشياء لا تستدعي ذلك، والاكتئاب، والتوتر العضلي، والشدة، والعنف لأتفه الأسباب، والتفسير الخاطئ لتصرفات الآخرين ونواياهم[43].

ولقد كان الشاعر العراقي محمود البريكان (1931–2002م)، كثير الشك والارتياب، يكتب قصائده ويخفيها في أماكن قصية وسرية حتى لا تصل أيدي الشعراء والسراق إليها، وكان يشك كثيراً بزميله الشاعر/بدر شاكر السياب ويتهمه بسرقة قصائده الشعرية.

فمعاناة المبدع والموهوب تقوده للإبداع وتشكل جزءاً من المخاض الإبداعي، حيث يتميز بدقة التصوير وحرارة العاطفة ورهافة الحس، يقرأ تفاصيل الزمان والمكان، ويلمس بأنامله قاع المجتمع وشهقات الناس الحارة والوجع الإنساني.

الأديب والفنان المبدع يعيش دائماً على حد السكين سريع الالتقاط والتأثر بمحيطه ويتميز بطاقة عاطفية وحسية وإبداعية مذهلة ويرصد بعدسته التناقضات والالتباسات والتخلخلات في البيئة الاجتماعية ونسيج المجتمع بصورة فنية مدهشة للألباب.

ولعله من المفيد القول إن حياة المبدعين وطقوسهم الإبداعية غريبة وشاذة تثير الاستغراب عند الناس العاديين[44].

فمنهم من يخزن القات عند الكتابة (في بيئتنا المحلية)، ومنهم من يكتب في الظلام، ومنهم من يغتسل ويتوضأ، ورهط من المبدعين يحتسون الجعة والخمر أو يشربون كؤوساً كثيرة من القهوة والشاي.

فالروائي السوري حنا مينا يكتب الرواية وهو معطر، والشاعر

والمسـرحي/ محمد الماغـوط (1934–2006م) يخلـع ثيابه ويتعرى ولا يبقى إلا بسـرواله الداخلـي، والمفكر الفرنسـي فولتيـر (1694–1778م)، كان يضع أقلاماً رصاصية أمامه عند الكتابة ثم يكسرها بعد الانتهاء من الكتابة ويضعها تحـت وسـادته عند المنام، والمفكـر دوماس (1804–1870م)، عند الشـروع فـي الكتابـة ينتخـب أقلاماً جميلة ولا يكتب إلا علـى ورق أزرق ولا يجلس علـى الطاولـة للكتابة بل يكتب وهو مسـتلقٍ على ظهره، ومن أشـهر قصصه «الفرسان الثلاثة». والروائي المصري جمال الغيطاني من طقوسه قبل الكتابة أن يستمع للموسيقى أو يقرأ الشعر أو يمارس رياضة المشي.

وصور المعاناة الإبداعية التي عاناها الشاعر لطفي جعفر أمان تكاد تكون متشابهة عنده وعند المبدعين في كل ضروب الأدب والفن.

إن انفجـار اللحظـة الإبداعيـة قـد تجـيء بعد مـرور الكاتـب بأزمة، أو مباشـرة بعـد الصحو والخروج مـن الحلم، أي حالات التنويم المغناطيسـي تقريبـاً، والهلوسـة، أو أحـلام اليقظة، ولكـن هذه الحـالات الإبداعية نادرة، ولذلك يحاول بعض الكتاب إثارتها في أنفسهم عن طريق تناول المخدرات أو شرب الكحول[45].

وشـاعرنا لطفي كان يعاني من مضض روحي وتناقض وجداني وتشـنج في رحلة الإبداع، وهو يبحث عن الجمال وسـحر الشـعر، فيعاني من البلوى والمحـن والألـم واللـذة والهواجس المرة وتعصف به الاضطرابات النفسـية والروحية والعقائدية، فهو يقول عن نفسه في مقالة (بلا حجاب):

واجتذبتـه الأضـواء الحالمة تترقـرق بالعطر والجمال، فـكان يهوى كل فتاة عابرة.. ويحس بحياة حب ضائعة تورث الحرمان: فكانت حياته قطرات من الدموع ينزفها شـعور مبهم غامض يسـتثيره الوهم، فكان كل جمال عبق أمام عينيه يتألق، يبعث على البكاء. وفجأة تشع في نفسه الأضواء فينطلق في حدود يحاج الآفاق، وإذا بالحياة أمام عينيه تتجدد وكأنه طفل يكتشف الحياة

في كل خطوة فعرف أنه أحب...[46].

القـراءة المتبصرة والفاحصة لهذا النص (بلا حجاب)، تمدنا بمعلومات وفيـرة عن قلق الإبداع الشـعري عند الشـاعر لطفي أمـان، وعن المعاناة التي تعصـف بروحـه ووجدانه، والتـي كان لها عظيم الأثر في ولادة شـعرية قوية بليغة في الشكل والمضمون، وبصفاء روحي ونشوة نفسية آسرة وعامرة تمس شـغاف القلب، والتي لولاها لما كان لشـعر لطفي نكهة إبداعية ولذة للنص وفـرادة متميـزة لهـا رنين أنيق فـي وجداننا زاخرة بالـذوق والجمال والخيال الأصيل وبوهج شـعري وأسـلوب خلاق، فالمعاناة فجـرت الطاقة الإبداعية الحبيسة في الأعماق برومانتيكية راقية مازج فيها الشاعر بين العنصر الخيالي والواقعي متساوقة بقدرة فذّة على التصوير والتجسيد.

فالمعاناة التي كانت تعصف بروح الشاعر لطفي جعفر أمان وتهز أعماقه بقوة هي:

- الحيرة والعذاب.
- وجع ومرارة وعلقم.
- تناقض وجداني (حب وإثم).
- شعور بالضياع والحرمان.
- اضطرابات نفسية رهيبة.
- مخاوف وأوهام.
- قلق ويأس وحيرة.
- هواجس كئيبة.
- لذة وألم وارتياب.
- عزلة إبداعية وانطواء.

يقـول الدكتـور عبـد السـتار إبراهيـم: إن المبدعين يتعرضـون للمرض

والإجهاد البدني والأرق والاضطراب النفسي... ومنهم من قد يتغير أسلوب حياته فيلجأ لتعاطي الخمور والعقاقير الطبية أو العقاقير الترفيهية أو التدخين أو الممارسة الجنسية غير السليمة[47].

فالمعاناة أساس الإبداع وكل المبدعين يعانون من آلام شديدة واضطرابات نفسية وسلوكية، ويعانون أحياناً من مأساة قاتلة ومن حيرة وأوهام وحرمان وضياع وتناقض رهيب ومسرات وأحزان وعزلة عميقة وخصال شاذة مذمومة واعتلال نفسي واضطراب بوصلة التفكير والمشاعر مصحوبة بأقصى درجات الألم النفسي والوجع الروحي.

فلقد كان الشاعر/لطفي جعفر أمان رقيقاً جداً وحاداً في لحظة الغضب تتملكه غريزة التدمير فيكسر الأواني والكاسات والزجاجات ويمزق الأمتعة الشخصية والمنزلية وعندما يهدأ من فورة غضبه يصير جدولاً رقراقاً عامراً بالمحبة والوفاء والود، وبالمشاعر الإنسانية الفياضة. ومن مفردات حياته اليومية هو استقباله للضيوف من منابت اجتماعية وفنية مختلفة، وجلوسه باستمرار مع الأطفال بعد صلاة العصر يدندن ويغني لهم وهم يتكوكبون حوله ويستمعون إلى صوته الشجي بشغف ولذة عظيمة ويوزع الحلوى والشكولاتة عليهم ويسكب قلبه في قلوبهم ولا يجد سلواه إلا في لقائهم وقراءة نصوص شعرية سهلة للأطفال وقصص الطفولة الزاخرة بالخيال[48].

فالمعاناة والصرير والأوجاع الغويرة في أعماق المبدع هي أساس التألق الإبداعي، تعطي دافعية كبيرة للإبداع وهي بلسم الشفاء من الجراحات والاضطرابات والأوجاع والتشتت.

لا يوجد فنان حقيقي إلا ويعاني من مرض ما، أو من مشكلة معينة...

ويرى فرويد أن الإبداع تعويض عن نقص ما في الشخصية، وأنه لولا هذا النقص لما أصبح المبدع مبدعاً[49].

الخاتمة:

الفضاء الاجتماعي والبيئة الأسرية والبيئة المدرسية والمكانية التي نشأ وترعرع فيها الشاعر/لطفي جعفر أمان تميزت بالليبرالية والحرية والانفتاح، وتركت بصمة عزيزة في عقله ووجدانه، ودفعت به للتشبع بالثقافة الكلاسيكية التراثية والثقافة الحديثة مع إجادته اللسان الإنجليزي، وصقلت موهبته الأدبية، وشجعت فيه روح الإبداع والتفاعل الثقافي والاجتماعي والإنساني وتكوين الشخصية الإبداعية، ومنحته شحنة فريدة من التكامل والتناغم والاتساق بين العناصر الإبداعية الثلاثة: العقلية، والانفعالية، والسلوكية.

وبما أن الشاعر لطفي جعفر أمان عاش في بيئة حرة وديمقراطية ومتمدنة، فقد كان جريئاً لم يقع في بوتقة التردد والخوف ولم يشكك قط في قدراته الإبداعية والشعرية. كان جريئاً في أشعاره وتصرفاته وسلوكه ومساجلاته الفكرية وفي أفكاره ومعتقداته، على عكس ما كان عليه الشاعر العراقي بدر شاكر السياب الذي كانت تنقصه الثقة بالنفس والجرأة عندما أرسل رسالة ترجي إلى الدكتور/سهيل إدريس – رئيس تحرير مجلة الآداب في 25/ 3/ 1954م، يتوسل فيها د. سهيل إدريس لنشر قصيدته المشهورة «أنشودة المطر» التي يقول فيها:

عيناكِ غابة نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر
عيناك حين تبسمان تورق الكروم
وترقص الأضواء.. كالأقمار في نهر

حيث قال في رسالته:

إني لخجول جداً من أن قصيدتي هذه، ستشغل في مجلة الآداب حيزاً قد يكون من الأولى ملؤه، بما هو خير من قصيدتي وأجدى[50].

فإذا كان الشعر حسب قول مونتالي:

أفقـر الفنـون لا يحتـاج إلى غير قلم رصـاص وورقـة[51]، إلا أنه يحتاج إلـى الموهبة والخيال الفني والصور الشـعرية وبلاغة السـبك ورهافة الحس والذوق الأنيق، يحتاج إلى القلق الشعري والمعاناة الإبداعية، لأن الفنان كما يقول البير كامو: (يعيش حالة منفى مسـتمرة)، ولا ينعم بالاسـتقرار والسكينة الروحية إلا في مرقده النهائي، وهو في حالة سفر روحي مستمر:

كلنا حقائب سـفر ترحل من الولادة إلى الموت ولا تملك إلا أن تطيع حين تنادي عليها تستقل طائرتها الأخيرة، الاستقرار الوحيد الحقيقي هو ذلك الذي نعرفه في القبر، بيتنا النهائي. أما الرحم فمسكن مؤقت، لا تتجاوز عقد إيجارنا فيه تسعة أشهر! أليس الجسد حقيبة سفر بهذا المعنى[52].

البيئـة التـي عاش فيها الشـاعر لطفـي أمان بيئة زاخـرة بالإبداع ومحفزة لإنتـاج الثقافـة والفن والشـعر والمسـرح، حيـث كانت مترعة بالمؤسسـات الاجتماعية والتعليمية والتربوية والمدنية والثقافية والرياضية وزاخرة بالحرية والمثاقفة والانفتاح والتسامح الديني والعرقي والثقافي والاجتماعي فهناك:

مدارس، وكليات، ومنظمات مدنية وفعاليات سياسية، وإذاعة، وتلفزيون، ومسـرح، ومكتبات عامة وخاصة، وصحافة حرة، وصالات سينمائية، وأندية رياضية، ومتاحف، وأسـر متنورة، وهيئات روحية، وعقائد متنوعة، وأجناس متعايشـة، وسـلم اجتماعـي، واسـتقرار وعلم وفكـر وثقافـة، ودور بهي رائد للمـرأة في الفضـاء العمومي، ونوادٍ ثقافية وأدبية، ومطابع ودور نشـر وكتب ومكتبات... فالأسـرة والمحيط الاجتماعي العام كان له عظيم الأثر في نماء الموهبة الشعرية والملكة الإبداعية للشاعر/ لطفي جعفر أمان.

الشـاعر/ لطفي جعفـر أمـان تمتع بحس شـعري مرهـف وذكاء عاطفي خـلاب مكنـه مـن الوصول إلـى ذروة الإبـداع الشـعري وفي قـراءة العاطفة الإنسانية، فله قصائد تفيض روحانية وعاطفة وإيقاعات سحرية صقل تعابيرها بحنكـة عاليـة، فالشـاعر/ لطفي جعفـر أمان شـأنه شـأن الشـعراء والمبدعين

والفنانيـن كان يعانـي مـن ضغوطـات القلـق الشـعري والفكـري والإبداعي واضطـراب العادات وانشـطار الـذات وحيرتها مرفوقة مع فيض من مشـاعر القنوط والتوتر، فالمعاناة الإبداعية فجرت القريحة الشـعرية لديه وجعلته آية في الذكاء والشاعرية والخيال الفني البديع.

لقد غادرنا الشاعر لطفي إلى هدأته الأخيرة حيث كان يقول:

إن الذيـن يخافـون مـن الموت شـرائح من البشـر أثقلتهـم الذنوب، أو تسـحبهم أطماعهم وجشـعهم سـحباً إلى بؤرة الحياة.... كلما أنظر ورائي.. تغمـر الراحة كل جوانب نفسـي: فما عملت فـي حياتي للآخرين إلا الخير.. أما وطني فقد حملت آلامه وآماله.. وكنت أصعد به إلى مدارج الشموس[53].

وقبل مماته بقليل وجّه نداء إلى إخوته يقول فيه[54]:

يا إخوتي
يا كل ما أتركه بعد الرحيل
هذي حروفي.. لن تموت.. لن تموت
مستحيل..
لأنها أنتم.. تواكب الزمان.. لم تزل
توزع الغلال للأجيال جيلاً بعد جيل
وتفرش الطريق بالأمل
وتزرع النجوم في ليل السراة التائهين
وتضع السطور جسراً للحيارى المتعبين
لأن أيامي التي حرثتها..
ما حصدت في مواسم السنين
لكم.. يا إخوتي
على مناكب الشمس صاعدين

الهوامش

1. لطفي جعفر أمان (أدباؤنا.. الأسلوب الفني، الإكليشيهية، واقعية الفكرة)، في: أحمد علي الهمداني، دفاعاً عن لطفي جعفر أمان، (صنعاء: مركز عبادي للدراسات والنشر، ط 1، 2004م)، ص 277، 278.
2. ماهر شفيق فريد، (نافذة على الثقافة العالمية)، الهلال (القاهرة)، (أكتوبر 2005م)، ص 133.
3. شاكر نوري، منفى اللغة، حوارات مع الأدباء الفرانكوفونيين، (دبي: كتاب دبي الثقافية، إبريل 2011م، ص 224.
4. لطفي جعفر أمان، (بلا حجاب)، مجلة المستقبل (عدن)، السنة الأولى العدد 3، (مارس 1949م)، ص 13.
5. علي السيد، سماح كوثراني، دور المدرسة والتنشئة الاجتماعية عند الطفل، (بيروت: دار اليوسف للطباعة والنشر، ط1، 2007م)، ص 35، 36.
6. 14 أكتوبر (عدن)، السنة 41، العدد 14394، (1/ 3/ 2009م)، ص 11.
7. المتوكل طه، حوار مع فدوى طوقان، نزوى (عمان)، العدد 38، (إبريل 2004م)، ص 81.
8. صلاح فضل، محمود درويش حالة شعرية، (دبي: كتاب دبي الثقافية، سبتمبر 2009م)، ص 100.
9. حوار مع الروائي الكبير حيدر حيدر، دبي الثقافية (دبي)، العدد 55، (ديسمبر 2009م)، ص 40.
10. لطفي جعفر أمان، (بلا حجاب)، مرجع سابق، ص 13.
11. انظر: نجمي عبد المجيد، عدن 1839م – 1967م، (صنعاء: مركز عبادي للدراسات والنشر، ط1، 2007م)، ص 150–156.
12. علم الاجتماع المفاهيم الأساسية، تحرير: جون سكوت، ترجمة: محمد عثمان، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط2، 2013م)، ص 132.
13. معتز الصابوني، علم الاجتماع التربوي، (عمان: دار أسامه – ودار المشرق الثقافي، ط1، 2006م)، ص 79.
14. حوار مع فاطمة يوسف العلي، الرافد (الشارقة)، العدد 93، (مايو 2005م)، ص 48.
15. فاروق الجفري، أسرار الفن والتربية، (صنعاء: مركز عبادي للدراسات والنشر، ط1، 2003م)، ص 73.
16. خرستو نجم، (نزار قباني وتأثير الطفولة)، العربي (الكويت)، العدد 596، (يوليو 2008م)،

ص 56.

17. ديفيد أنغلز، وجون هفسون، سوسيولوجيا الفن طرق للرؤية، (الكويت: عالم المعرفة، 341، يوليو2007م)، ص 41.
18. حوار مع الروائي واسيني الأعرج، نزوى، العدد 56، (أكتوبر 2008م)، ص 116.
19. حوار مع الطاهر بن جلون، في كتاب: شاكر نوري، مرجع سابق، ص 242، 251.
20. أحمد عبد المعطي حجازي، بابل الشعر، (دبي: كتاب دبي الثقافية، 44، يناير 2011م)، ص 77.
21. دبي الثقافية، العدد 40، (سبتمبر 2008م)، ص 15.
22. حوار مع الشاعر/ شوقي أبي شقراء، نزوى، العدد 30، (إبريل 2002م)، ص 145.
23. أحمد عبد المعطي حجازي، (لكنني آبى الإقامة)، العربي، العدد 630، (مايو 2011م)، ص 118.
24. لطفي جعفر أمان «إليك يا عدن»، في: عدن في عيون الشعراء، إشراف وتحرير: أحمد علي الهمداني، (عدن: دار جامعة عدن للطباعة والنشر ط1، 2005م)، ص 285–286.
25. لطفي جعفر أمان، (آفاق في الفلسفة والدين)، مجلة المستقبل، العدد 4، (إبريل 1949م)، ص 16–19.
26. لطفي جعفر أمان، (الله والذات والصفات.. رأي المعتزلة)، مجلة المستقبل، العدد 8، (أغسطس 1949م)، ص 28.
27. محمد كمال محمد، (جبران خليل جبران)، الهلال، مرجع سابق، ص 171.
28. لطفي جعفر أمان، (الشعر الأصيل)، النهضة (عدن)، العدد 13، (13/ 4/ 1950م)، ص 8.
29. لطفي جعفر أمان، ليل إلى متى؟ (بيروت: المكتب التجاري، أكتوبر 1964م)، ص 20–23.
30. هتشنسون، معجم الأفكار والأعلام، ترجمة: خليل راشد الجيوس، (بيروت: دار الفارابي، ط1، 2007م)، ص 300.
31. أحمد شفيق السكري، قاموس الخدمة الاجتماعية والخدمات الاجتماعية، (الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط1، 2013م)، ص 32.
32. دانييل جولمان، الذكاء العاطفي، ترجمة: ليلى الجبالي، مراجعة: محمد يونس، (الكويت: عالم المعرفة، 262، أكتوبر 2000م)، ص 13.
33. لطفي جعفر أمان، الدرب الأخضر (القاهرة: دار المعارف بمصر، ط1، 1962م)، ص 36–38.
34. المرجع السابق، ص 56.
35. منال القاضي، (الذكاء العاطفي للصغار)، العربي، العدد 562، (سبتمبر 2005م)، ص 176.
36. لطفي جعفر أمان، ليل إلى متى؟ مرجع سابق، ص 74–76.
37. كريم زكي حسام الدين، الإشارات الجسمية، دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل، (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2001م)، ص 31.

38. شهاب غانم، شعراء الأغنية اليمنية (جدة: مكتبة الجيل ط1، 2006م)، ص 96.
39. أحمد علي الهمداني، دفاعاً عن لطفي جعفر أمان، مرجع سابق، ص 326.
40. علوي عبد الله طاهر، لطفي أمان دراسة وتاريخ، (عدن: مؤسسة 14 أكتوبر للطباعة والنشر والتوزيع، 1981م)، ص 283–284.
41. إبراهيم أحمد الحارثي، (قياس الموهبة والإبداع)، المعرفة (الرياض)، العدد 138، (رمضان 1427هـ – أكتوبر 2006م)، ص 10.
42. طارق السويدان، محمد أكرم العدلوني، مبادئ الإبداع، (الكويت: الإبداع الخليجي، الرياض: قرطبة للنشر والتوزيع، د.ت)، ص 76.
43. عبد الستار إبراهيم، الحكمة الضائعة، الإبداع والاضطراب النفسي، والمجتمع، (الكويت: عالم المعرفة، 280، إبريل 2002م)، ص 48–51.
44. انظر:

– عبد الستار إبراهيم، مرجع سابق، ص 18–174.

– هاشم صالح، (بين العبقرية والجنون)، نزوى، العدد 19، (يوليو 1999م)، ص 43–51.

– يوسف ميخائيل أسعد، العبقرية والجنون، (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، 2001م)، ص 129–140.

– مجموعة من الكتاب، نجيب محفوظ قيصر الرواية العربية (دبي: كتاب صدى ط1، 1999م)، ص 20.

45. صالح هاشم، مرجع سابق، ص 45.
46. لطفي جعفر أمان، (بلا حجاب)، مرجع سابق، ص 13.
47. إبراهيم عبد الستار، مرجع سابق، ص 127.
48. هذه المعلومات مأخوذة من المهندس/ محمد شفيق أمان (ابن أخ لطفي جعفر أمان) يوم الجمعة الموافق 25/ 4/ 2014م، في منتدى صحيفة الأيام (عدن)، الساعة 4 مساءً.
49. هاشم صالح، مرجع سابق، ص 51.
50. محمد علي شمس الدين، (الأساس اللغوي والثيولوجي لقصيدة «أنشودة المطر») العربي، العدد 643، (يونيو 2012م)، ص 100.
51. سعدي يوسف، المنفى الأخير، (عدن: دار الهمداني للطباعة والنشر، ط1، 1983م)، ص 197.
52. مقابلة مع غادة السمان، نزوى، العدد 43، (يوليو 2005م)، ص 145.
53. مجلة الفن (عدن)، العدد 4، (إبريل 1971م)، ص 3.
54. لطفي جعفر أمان، إليكم يا إخوتي، (بيروت: المكتب التجاري، يوليو 1969م)، ص 46–47.

ثانياً: عبد الرحمن فخري:
شاعر الغموض والتأنق الفني

وسط دمار الحرب وطاحونة الخراب ولهيب الصراع المدمر وفي فضاء كالـح وكئيـب عامر بـآلام الناس وعذاباتهم وشـهقاتهم الحـارة، وفي خضم تبدل البشـر والقيم والأزمنة والأمكنة وقسـوة الفاقة والفقر والفسـاد والتشرد والروائـح النتنـة التي تزكم الأنـوف، يغادرنا الشـاعر المرموق/ عبد الرحمن فخـري إلـى هدأتـه الأخيـرة بـدون ضجيـج ولا صخـب ولا مزاميـر بعد أن نهشـه المرض وهدته الأوضاع الزميتة التي تئن بلحن حزين، يوم الاثنين 22 أغسطس 2016م.

1- شاعر غامض وأنيق:

عبد الرحمن فخري (1937-2016م)، قامة شـعرية شـامخة يمثل مدرسة الحداثـة فـي القصيـدة النثرية اليمنية، فهو صوت شـعري ونقـدي ثري، قليل الإنتاج عميق ورصين بشعره ونقده وبصهيل حروفه وهديل كلماته.

نصوصه الشعرية غامضة ولذيذة وطازجة مفعمة بالحداثة الفكرية والفنية وبلغـة شـعرية راقية تحتوي على تماسـك فني ولغـوي وخيالي ودلالي، فهو صاحب صوت شـعري متفرد بصوره الفنية وبإيقاعاته الشعرية وبحشد عقلي ونفسي وعاطفي[1]:

عقلي من فضة
وقلبي من صخر ومن عاج
كما يتفق
ولساني.. تلك المحدودبة

بنت الضاد
فأنا عربي
ينتمي إلى هذا القرن،
ببالوناته
وإلى الحرب الثالثة
وإلى لغة الهندوس
عندما يغني طاغور
أشبه طاؤوس النار
لحظة الغضب
وكالفرح،
أقف عارياً
في الميدان
فلتهمي أيتها الحروف
على رؤوس الأشهاد
ولأخرج من المحبرة
كأنني افعل
لأول مرة
ولن أمد يدي إليكم
فلقد أحتاج
أن تدفعوني
نحو الهاوية
نحو نبع الأبجدية
أيها الوحوش،
الأصدقاء!!

عبد الرحمن فخري صوت شعري جهير من أهم ملامحه السريالية والغموض، ولقد وقف الشاعر والناقد/ عبد العزيز المقالح حائراً في تأويل قصيدة «بلقيس تبكي بدمعي» حيث قال:

«هذه القصيدة حيرتني وأتعبتني كما حيرت وأتعبت غيري من الشعراء والنقاد، وكما لا بد أن تكون قد حيرت وأتعبت صاحبها الشاعر والناقد عبد الرحمن فخري.. وقد حاول الشاعر في ثنايا القصيدة أن يوهمنا بأن له قلبين، الأول منهما لبلقيس، والآخر لفتاته، ولكنه عاد فأوضح أن فتاته هي نفسها بلقيس وأنها احتلت قلبه الأول والثاني وملأت عليه كل أقطار القلب والروح:

بلقيس لها قلبي الأول
وفتاتي لها قلبي الثاني
لكن فتاتي هي بلقيس
والحب.. أنا[2].

فالغموض ليس هدفاً للشاعر عبد الرحمن فخري بل أداة للتجديد الشعري والفني ووسيلة لتعميق الصورة الشعرية والهروب بالقصيدة من نمطيتها الكلاسيكية الرتيبة إلى عالم منفتح يكسر حواجز التقليد والصلادة الشعرية حيث يقول:

«إنني شخصياً كان أمامي طريقان: إما أن أحمل رقماً في القطيع، كما يقول مصطفى محمود، وإما أن أخذ بقول الشاعر بيرون: «لقد أبيت أن أندمج في القطيع ولا أكون على رأسه»، ولهذا قلت في مستهل قصيدتي الأخيرة ملخص رسالتي:

متجرداً كعصا موسى
أضرب البحر، قبلكم
كي أغسل،
ألواحكم المحفوظة

أفرح أن أركب العمر

إليكم

كيما أنتصر عليكم

بدلاً منكم

بدلاً منكم[3].

فغموض الشاعر عبد الرحمن فخري لذيذ مصحوب بنكهة فنية راقية وثقافة شعرية رصينة تدفع القارئ لتذوقها والبحث عن سر سحرها وكثافة إبهارها وتشجع القارئ على تطوير ذاته والغوص في غميس ثقافة فنية راقية مشحونة ببلاغة السبك والخيال الجميل والصياغة الفنية ولُحمة البناء الشعري والأسطوري والرمزي في بوتقة الأصالة والعراقة وتجاوز ستار الوعي الغامض والذائقة الشعرية النمطية التي لا تشعل الفكر ولا تحرك الأحاسيس الفنية والتذوقية.

ففي قصيدة (بابلوا نيرودا، أيها الرفيق) يقول فيها[4]:

يسقط الثمر، على الجسد

نقياً كآهات البحر

يافعاً كالنشوة

نابهاً، كأنه الضمير

أشرب من دم الورد، معك

وأعاف الذهب والماء

في لحظة الشعر...

حيث تحترق الكلمة للإنسان

وأدور فوق الروائح

أشرب الألوان السبعة،

من عينيك

يوم ترمي النور
بسهم إيروس
وتضيء الكهنة للملايين
بابلو يا حبيبي
أنا لا أعرفك
لا أريد أن أعرفك
فأنت البنفسج والتبغ والزيتون
وأنت الشعر
صورتك تشبه القرن،
بعد العشرين
وهذا هو زادي منك
وخيالي الجميل!
ماذا أقول،
في حضرة الموت الحي
هل أفقأ عين الشمس،
لتدمع؟
هل أهز الأشجار،
حتى تنوح
وأطوي الريح،
وراء الجنازة
هل أقلب الأرض، مثلك
حتى تستوي الأشياء
من حقي أن أبالغ
لأنك شاعر

فأنا أمجد فيك (الإنسان)

والورق الأخضر،

والعالم الجديد

نيرودا

يا قلب السلام

مات الشعراء، بعد لوركا

وتبادل نوح مع ماياكوفسكي

أنخاب الطوفان

وتعلق الناس بك

كأنك القطار الأخير...

فالموت والمآتم والقبور والولادة الجديدة والتجدد والاصطفاء مفردات شعرية لا يخلو منها شعر الشاعر عبد الرحمن فخري، ولقد سيطرت فكرة الموت على بعض قصائده الشعرية[5]:

إنني أخشى الموت

لأنكم لا تخشونه

تصافحون ملاكه، كالضيف الأخير

ترمون بالتفاحة الأولى في وجهه

وتستريحون...

وأنا يتملكني الموت

كلما رأيت حادثاً يدهم شرطي

أو وردة تحتضر كالأحياء

أو فتاة تهب نفسها للفيضان

أو حاكماً يقتني الكتب القديمة

أو شاعراً قد فارقه الشباب!

وأتمدد في عنق الزجاجة

حتى لا تسكب الأنخاب!

لقـد مات الشـاعر/ عبد الرحمن فخري ولن يعـود إلينا مرة أخرى، فهو يحلم بالعودة مرة أخرى للحياة كما تصور ذلك الأساطير وبعض العقائد التي تحدثنا عن عودة الكائن الحي للحياة مرة أخرى.

«فالمسـيحيون يؤمنون بإله واحـد له ثلاث صور: الله، الأب، والله الابن (المسيح)، والروح القدس الذي هو قوة الله العاملة في العالم. وقد خلق الله كل شـيء فـي هذا الوجـود، وبين حبه لهذا العالم بنزولـه للأرض في صورة المسيح، وبمعاناته، وموته، للتوافق والمساواة مع الإنسان. ويؤمن المسيحيون أن المسيح عاد حياً بقوة الله بعد ثلاثة أيام من موته على الصليب. وأنه ظهر عـدة مرات بجسـده أمـام تابعيه، وتلاميذه، وأنه الآن حي فـي هذا العالم من خلال الروح القدس»[6].

فعبد الرحمن فخري يريد العودة إلى الحياة ويحاكي بذلك سـيرة سيدنا المسـيح في قصيـدة (واندلق.. من عنق الزجاجة)، ويريد العودة على شـكل صلصـال أو سـحابة أو كريـح أو وردة أو أرجوحة أو كمـوال مرتجل لحفار القبور أو كربابة أو كأحلام عصافير[7]:

بعد برهة

أخرج عليكم

كصلصال يخف على أيدي الأطفال

كسحابة تسأل عن ابن السبيل

....

كأرجوحة مجنونة بجدائل عذراء

ككتاب مفتوح على هاوية

كالورق الأنصع من الروح

....

كموال مرتجل لحفار القبور

كاللحن الحزين الذي يقطع الأشجار

كجفن الليل المثقل بالخواطر

كالطباشير الملونة في جيبي

كالسر النائم في دفتر المساء

كالأرض وقد صارت بيضة الصباح

كخطوط الطول والعرض..

حين تفرج عنكم!

بعد برهة

أعود إليكم

واحداً منكم!

2- مهارة إلقاء الشعر:

كان آخر عهد لي به في مؤتمر اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين – فرع عدن في 8 نوفمبر 2009م (قاعة الفقيد عبد الله فاضل فارع – كلية التربية – عدن)، عندما افتتح المؤتمر بقصائد شعرية شائقة خرجت من أعماقه بنغمات حارة وسكنت شغاف القلب وحلقت بنا في فضاء شعري أليق في آية من الخصوبة والذكاء والشاعرية وبلغة طازجة ومبتكرة.

فهو بارع في فن مهارة إلقاء الشعر بصوته الجهوري الذي يعطي إيقاعات سحرية لذيذة للشعر بحس مرهف ووجدان ذكي وانسيابية صوته الجليل الذي يرتفع وينخفض ويتحول فجأة إلى الرقة والنعومة تبعاً لما يقتضيه النص الشعري وتكنيك الإلقاء مصحوب بلغة الجسد وذكاء العاطفة وجلال المظهر ودقة التعبير الشفهي والجمالي لتصل قصيدته الشعرية إلى

ذروة الجمال[8]:

-1-

أيها الحب
أتمسح بأعتابك الخضر
لأمتشق قامتي
وأرمي بظلي إليك
ليتلون الفرح
وأعلق الخطايا عليك
كأنك الصليب
أيها النعيم المقيم
يا بركة جحيم
غسلت فيها أيامي
أنت.. أنا

-2-

أطرق بابك المسحور
لأنفتح عليك
أركب القوس إليك
حيث تحكم القلوب
وحيث تعشق العيون
ظلالك المزركشة
أنشد المغامرة معك
حيث تلعب الرياح
وحيث ترقد الخطيئة
مع الأفاعي

أريد أن أتحد

بك

لتضيع في ضياعي

ويغرق السندباد..

أنا إنسان،

وأنت حب

فأنا أنت

-3-

أيها الحب

من أنت،

إن لم تكن.. أنا؟

أريد أن انتحر في اسمي

فقط، لأغرق فيك

أنا عائد من رحلات المستحيل،

إليك..

شاخت في ظلي الأزلي

أشواق الليالي السمر

وتحولت في سبيلك إلى كأس

وكان الطوفان

وظل قلبي يغني لك

ويأكل التراب..

-4-

يا حبي إنني أعبدك

لأنك النبي والرغيف

إنني أتعلم من كتابك حروفي
ومن دموعك وضلوعك،

أصنع حليبي
إنني طفلك الذي يقضم،
ابتسامتك الحلوة
ويتنفس غضبك
ويتلفع بالريح معك
في فصل الربيع
أنت عيدي الأخضر
وحذائي الذي لا لون له
أنت.. أنا.
....
....

3- موت يؤلم الأصدقاء:

أشعر بغصة ألم في حنجرتي وبكمد يزلزل روحي حزناً على فقيدنا الشاعر/ عبد الرحمن فخري، الذي كان مشغوفاً بتكرار عبارته المشهورة «لقبوني بالغامض وكان الشعر مقصدي»[9]، فالموت على حد تعبير الشاعر الكبير/ محمود درويش

«لا يؤلم الميت، بل يؤلم أصدقاء الميت»[10].

فالموت قدر محتوم على البشر والكائنات وهذا ما كان يؤمن به الشاعر عبد الرحمن فخري وظل سؤاله منتصباً: من يموت قبل الآخر الشاعر عبد الرحمن فخري أم حبيبته؟! هذا ما كان يحيره ويشغل لبه ووجدانه الشعري

وثمة عُتمة تهيمن على الروح (هل يموت اسمك في يوم واحد مع اسمي؟)، وهذا ما باح به في قصيدته (النهار الحزين)[11]، بتشويق فذ ولمسات فنية لذيذة وبخيال أصيل ونجوى داخلية بسط فكرة الموت في غسق العمر المسربلة بالضباب والتي تحمل قيمة إيحائية ورمزية شائقة.. ويربكك الشاعر عبد الرحمن فخري من زاوية عقلية ووجدانية عن ماهية الحبيبة التي يتقصدها!!..
هل هي: شمس – امرأة – وطن؟!!

وما يُحمد له أنه صب هذه التعابير في بوتقة فنية واحدة فيها شيء من الغموض وابتكار في التخيل في طقس روحي مرتبك سيطرت عليه فكرة الموت والتأمل والدموع والندم وانتحار المصابيح وسقوط الأشرعة وبكاء الشجر:

لو أنني مت
هل تموتين؟
ستموتين... تماماً
سيغرق البحر في عينيك
وتسقط الأشرعة، كالضحايا
في فصل الحرب؟
هل يبكي الشجر كالنساء
على صمت الدُّمى؟
هل تنام الأغاني
على شفاه الأطفال؟
وتفقأ كل الكراريس عيونها
ستنتحر كل المصابيح في الشارع
ولن يخرج الليل إلى الحانة،
هذه الليلة

هل سيحرث أوديب وادي الدموع

فيروي قبرك بالندم؟

هل يموت اسمك،

في يوم واحد مع اسمي

وكل المواعيد معنا

وكل الصحف؟

هل تموتين قبلي

في وضح النهار؟!

وداعاً شاعرنا الجليل/ عبد الرحمن فخري.. لقد مت هادئاً وفي سويداء قلبك يتمدد جوهر الوجع الإنساني الذي حملته طوال سني حياتك وكنت صادقاً في التعبير عنه بشعرك وإشراقات عباراتك وضياء روحك ورسائلك الشعرية المشفرّة في حياة مترعة بالزخم والإبداع المقرون بالغموض الشعري والتجريد والتجسيد والاستبطان الواعي في بلاغة صورية وتعبيرية راقية فيها سحر وجاذبية.

«أيها الشاعر الصديق، يا صاحب القلم النافذ الطعنة كالحربة، والكلمة التي منها المشرفية، اعذرني إذا جنحت عن الأصول، فأنت أكثر مني كرهاً للأصول، لأننا، كلينا، نرغب في اختراق المألوف، وقتله أيضاً»[12].

الهوامش

1. عبد الرحمن فخري، من الأغاني ما أحزن الأصفهاني، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2000م)، ص 8–9.
2. عبد العزيز المقالح، الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن، (بيروت: دار العودة، ط1، 1974م)، ص 386–387.
3. عبد الرحمن فخري، الكلمة والكلمة الأخرى، إضاءة نقدية على الأدب اليمني المعاصر، (عدن: وزارة الثقافة، بيروت: دار ابن خلدون، ط1، 1983م)، ص 206.
4. عبد الرحمن فخري، من الأغاني..، مرجع سابق، ص 51–53.
5. المرجع السابق، ص 65.
6. هتشنسون، معجم الأفكار والأعلام، ترجمة: خليل راشد الجيوسي، (بيروت: دار الفارابي، ط1، 2007م)، ص 477.
7. عبد الرحمن فخري، من الأغاني..، مرجع سابق، ص 81–82.
8. المرجع السابق، ص 17–19.
9. عبد الرحمن فخري، الكلمة والكلمة الأخرى، مرجع سابق، ص 205.
10. ناصر عراق، «حوار لم يُنشر من قبل مع الشاعر/ محمود درويش»، دبي الثقافية (دبي)، العدد 40، (سبتمبر 2008م)، ص 88.
11. عبد الرحمن فخري، من الأغاني..، مرجع سابق، ص 14–15.
12. حنا مينه يتذكر الماغوط اليراع المنضر، العربي (الكويت)، العدد 576، (نوفمبر 2006م)، ص 94.

ثالثاً: القاص أحمد محفوظ عمر:
مبدع يكتوي بنيران النسيان

القراءة الأولى: أحمد محفوظ عمر
يخط أفكاره في مساحة الصمت

1- مبدع يحاصره الصمت:

الصمت لغة للتخابر الخفي، وقد يكون الصمت أبلغ من الكلمات والملافظ التي لا تستطيع النفاذ إلى أعماق الإنسان، هذا ما اصطفاه القاص أحمد محفوظ عمر (من مواليد مدينة عدن 1936) الذي يخط أفكاره في مساحة صمت، ويعيش هادئاً بعيداً عن الطنطنة الإعلامية والتمظهرات الخارجية وتلميع الوجه، ومتشبعاً بثقافة الصمت والإصغاء للآخرين، ومعجوناً بالمعاناة والآلام، يسكب أحاسيسه في المناطق القصية من المشاعر الإنسانية مترعاً بالحب والوفاء والعفة والشموخ.

فإبداعاته القصصية تمنح المتعة للقلب والنفس، وملفعة بنفحة إنسانية وروحية ثاقبة، وتعتبر مرآة للواقع الاجتماعي، وملمحاً للحب والجمال والجلال، لا تتسم بركتها وهلهلة نسيجها بل بالرصانة والعمق، تحتاج لمن يغوص في أعماقها ويضع هذا المبدع في المرتبة المناسبة.

إنه يكتب ويكتب ويمشي فوق صفيح ساخن في أجواء الانكسار شديد الولع بطقوس الكتابة الإبداعية مشغوف بالتوحد والذوبان بتضاريس وتعرجات البيئة المحلية، فله باع طويل في الكتابة القصصية، وله فرادة وقسمات ينفرد بها عن غيره من كتاب القصة والرواية اليمنية.

فالكتابة كما تقول الروائية اليمنية نادية الكوكباني: هي عبق الحياة

الـذي أتنفسـه، هي المـدن التي تختـرق أوردتي منازلها وشـوارعها وناسـها وحجارتها!... جميل أن نكتب، والأجمل أن نسـتمر في الكتابة، والاستمرار يجعلك دائم البحث عن مستوى لم تصله في تجربتك الإبداعية. حتى لو لم تنشر، المهم أن تشعر بأنك مستمر في الكتابة ولو على جمجمتك[1].

فالقاص أحمد محفوظ عمر يكتوي بنيران الإهمال، بالرغم من أنه يقرأ بإمعان مفردات الواقع، ومغموس بالهم اليومي، وله سجل ناصع في الإبداع تناولتـه بعـض الأقلام ولم تكتمل دائـرة الصورة النقدية في اسـتبصار العالم الداخلـي للقاص أحمد محفوظ عمر، وتوضيـح مناطق المنزلقات والإجادة في النسيج القصصي التي لا يعرفها إلا المهرة من النقاد.

أحمد محفوظ عمر بلغته البسيطة والأنيقة، لا يتهادن مع البيئة الاجتماعية المترعـة بالخـروم والأمـراض، بل ظل ناقـداً بفن، قدر المسـتطاع، لعورات الواقع متشحاً بالصبر والإرادة القوية.

وكأنـه يقـول كمـا قال أحـد المفكرين: ليسـت مهنتي أن أكون فيلسـوفاً فأجيبك، وليسـت مهنتي أن أكون حارسـاً ليلياً، ولكنني رأيت النار تنشب في المنازل المجاورة وتدفعها الرياح باتجاهك، وهكذا باعتباري قد عشـت هذا القرن الملعون لم أشأ أن أموت دون أن أصرخ صرخة الإيقاظ: انتباه، افتحوا أعينكـم، ينبغـي أن تكون ثاقبة حتى ترى الأفق، وتلـزم الأيادي أيضاً لتقبض علـى طـوق النجاة، علينـا إدارة الظهر لليل وألا ننتظـر الظهيرة لنؤمن بوجود الشمس[2].

ففي قصته الموسـومة بـ(انظر.. ماذا ترى؟!)، يصور لنا القاص بتكنيك قصصـي شـائق، صبيـاً يقرأ الفنجان بإيعاز من شـيخه الكاهـن، الذي لا يريد للصبـي أن يقرأ كل شـيء في الفنجان، وإنمـا يعلمه القراءة الانتقائية وتجاوز الحقائـق والصـور الواضحة والمؤلمة في غميس الواقع، الأمر الذي أدى في نهايـة المطـاف إلى طرد الصبي بقوة واعتسـاف، واسـتبداله بصبي آخر، لأنه

رأى عالماً تتمزق أوصاله، وشاهد كمّاً هائلاً من الصور الملفتة للانتباه منها: العهر السياسي، العوز، الدعارة الفكرية، التخمة، العطش، الجوع، الضوضاء، وتيه المصير) والضمائر تسلخ في سراديب الرشوة والفساد)، رأى (المبادئ السامية تُهزم بأغلبية المنافقين، والحقوق المشروعة تُهدر أمام الهبات الرخيصة، والكرامة تذبح في محاريب الخنى والمروق.. أناساً يموتون من الارتواء والتخمة.. وآخرين يموتون من العطش والجوع..) فأحمد محفوظ عمر كأبطال قصصه يتميز بالصبر لتحقيق الغايات والمقاصد على غرار بطل قصة (يا أهل هذا الجبل) التي ظلت الأصوات تتبعه وهو (يجالد الصعاب.. ويتجنب النكبات..) قائلة له: عليك بالصبر.. فالله مع الصابرين. ولقد كانت قصة (فجيعة أبي) من أولى القصص التي سطرها القاص وارتقت درجات بمستواها الفني والقصصي وتختلف عن الأقصوصات المدرسية التي كتبها في مرحلة طفولته القصصية عام 1955م (قربان الوطن)، (القبر التائه)، (فجيعة أبي) نشرت في مجلة «المعلم» (عدن – 1959م)، ص 14–15، وكانت محل استحسان من قبل الشاعر الكبير لطفي جعفر أمان.

لقد أشار ثلة من النقاد إلى أن الغربة سمة مميزة لأبطال قصص أحمد محفوظ عمر، إذ أن أبطال قصصه يعانون من مكابدات نفسية وأزمة هوية تتقاطع مع الواقع الموبوء بالأمراض والمفعم بالتعقيدات الاجتماعية.

إن الغربة التي يتسم بها أبطال القاص أحمد محفوظ عمر هي سليلة المرارات التي يعيشها أفراد المجتمع، وبما إنه ابن البيئة الوطنية استطاعت ريشته الأنيقة أن تصور بحذق الغربة التي يكابدها العامة، هذا التصوير اللبيب يتواكب بوجه عام مع الدراسات في علم الاجتماع التي تؤكد، أن المواطن العربي يعيش أزمة هوية وغربة عن الواقع المعاش خاصة الجماعات الاجتماعية النشطة والمشغوفة بأمل التغيير الاجتماعي الإيجابي.

ومع ذلك لا يستسلم للأوضاع المأزومة، ويصرخ كما صرخ بطل رواية

«ذاكرة الجسد» لأحلام مستغانمي:

أيها القوادون.. السراقون.. القتلة. لن تسرقوا دمنا أيضاً. املأوا جيوبكم بما شئتم. أثثوا بيوتكم بما شئتم.. وحساباتكم بأي عملة شئتم.. سيبقى لنا الدم والذاكرة.. بهما سنحاسبكم.. بهما سنطاردكم.. بهما سنعمر هذا الوطن.. من جديد[3].

لقد استطاع يراع أحمد محفوظ عمر بشاعريته وبلغة تعبيرية راقية وبتكثيف جمالي عميق أن يعكس البيئة الاجتماعية بتلاوينها الطيفية، ويمنح الفن القصصي روحاً تعبيرية شفافة تسهم في إثراء القصة اليمنية من الناحية التعبيرية والتكنيكية ومن زاوية المضمون والعمق القصصي.

2- الموت والعذاب الغليظ في: «العيون الملطخة بالطين»[4]:

أحمد محفوظ عمر ليس قاصاً مشاغباً ولا يميل إلى التهييج المصطنع والتهويل للأحداث العابرة، ولا يزرع الرعب والجنون ولا الخيال الجامح في قصصه كما يصنع الكثيرون أمثال إدغار آلن بو، صاحب الإثارة والقصص البوليسية والمتحدث الشهير عن الحياة والرعب والموت.. فالقصة عند المبدع أحمد محفوظ «معاناة مرهقة يسفح في سبيلها كثيراً من العرق والجهد»، فهي تنفرد باقتناص اللحظة المأزومة[5] - حسب تعبير حنا مينه - فاللحظة المأزومة في قصة «العيون الملطخة بالطين»، هي موت طفلته البريئة، حيث استطاع أن ينقل المشاعر والأحاسيس الإنسانية الحية في هذه اللحظة ويترجمها في صور وتعابير فنية مثيرة، لا يستطيع القيام بذلك إلا المهرة من المبدعين الذين يجيدون النفاذ إلى العالم الداخلي للإنسان، ويهزون عروش القلوب بذكائهم وحنكتهم وقدرتهم على التبصر والتصوير والملاحظة والتحليل النفسي والسيكولوجي والخيال الخصب المتناسل من رحم البيئة المكانية.

لماذا تتلطخ أعيننا بالطين؟

هـل قـدر الموتى أن تتلطخ عيونهم بالطين؟ هذا هو الاستفسـار المحير والمدهش والمستفز، الذي تتكئ عليه القصة الواقعية.. فعندما رقدت الطفلة رقدتها الأبدية وانتقلت روحها إلى باريها، استطاع يراع المبدع أحمد محفوظ، أن يبسـط صورة رهيفة ورائعة للمشـهد التراجيدي، واسـتطاع بحدس الفنان أن يغـوص في أقاصي النفس البشـرية، ويصـور بدقة متناهية «حدث الموت» والحمولـة القاسـية غيـر المرتقبـة التـي أضافت جرعـة من المعانـاة والكمد الغوير إلى نفس القاص ووجدانه، وقلبت الطاولة رأساً على عقب واستفزت المشـاعر الإنسـانية الكسيرة، عندما امتدت اليد الغليظة للقبار لتلطيخ «الوجه الطفولي البريء.. بالطين بهمجية مقززة» في بطن القبر.

إن القـاص أحمـد محفـوظ عمـر كاتـب لا يسـتهويه العبـث واللهـو بالكلمـات، فهو يطلق أفكاره بطريقة منتظمة ومتناسـقة في الهدف المرتقب، وفـي بنـاء قصصي حصيف تفوح منه رائحة الجـودة والإبداع القصصي، ولا يصنع أبطاله من ورق وأشـباح وإنما ينتقيهم من البيئة المكانية الحية النابضة بالعطاء والنماء، «فالحياة كوميديا لمن يفكرون.. وتراجيديا لمن يشـعرون»[6] – حسـب قـول دانييـل جولمان – نعـم تراجيديا لمن يشـعرون، فالقصة التي بين أيدينا ثرية بمشـهد تراجيدي حافل بالدهشـة والحزن، حيث يقدم القاص صـورة نابضـة لعذاب أليـم وللقبضة الغليظة التي لطخت وجـه الطفلة الميتة بالطين.. لقد غذّى القاص القصة بوجبة شـهية من اللقطات الرائعة والسريعة للحـدث وقدم كسـراً بهيـة من الوقائع الحية لموت أليـم يقع كالصخرة على أبـوي الطفلـة وأهلهـا، وجعلهم يلعقون المـرارات، ويموتون كمـداً وتتقطع أنياط قلوبهم من هول الحدث.

إن الذكاء العاطفي للقاص المكلوم، لم يجعله يقرأ أحاسيسـه ومشـاعره فحسـب، بـل مكّنـه هذا الـذكاء من قـراءة مشـاعر الآخرين بقـوة الملاحظة

ودقة التعبير، ووصف حاذق للأحاسيس والأمزجة والسلوكيات المنفعلة والمضطربة، حيث تمكّنت عدسته الذكية وحدسه المرهف أن يصوّرا مشهداً نادراً في اللحظة المأزومة للبيئة المكانية والفضاء العام والجموع المحتشدة والغبار، وزوجته، حيث يشير إلى أنه: «لم يكن يعرف – أن لزوجته صوتاً مهولاً.. تكمن في نبراته أحزان منفردة.. تهدر كشلال دافق من قمة المأساة الخالدة.. لقد انتفت البحة التي تميزت بها من قبل وهي تلبد بين ذراعيه، تتمسح بصدره وهو يعب كأس اللذة ويتروّح أنفاسها المألوفة.. ولكنه ارتاع في الوداع الأخير، حيث اندفعت تصرخ بحرقة لاسعة.. وشعرها منكوش.. وعيناها زائغتان.. وثمة أيدٍ لرجال عديدين تمسك بها.. وتمنعها، وقد برز أحد نهديها عارياً من جانب في الثوب المشدود.. وهو يرقب المشهد بذهول، وكتلتان من الأثقال تعوقان قدميه عن الحركة».

ولا ينسى القاص في أقصى حالات المرارة والحزن، أن يربط حزنه بأحزان الأمة، ويتذكر مصير الأمة العربية المكلومة في لمحات تعبيرية مكثفة. وفي السياق نفسه، هناك ملاحظة لا بد من الجهر بها، هو أن العمل مشبع بالرمزية اللذيذة، يعطي القارئ إمكانية لقراءة القصة على غير وجه، وتعطيه فسحة مريحة للنظر إلى حدود أرنبة الأنف، وفي الضفة الأخرى يحفزه النص أن يرنو بعينيه إلى ما وراء الأكمة، ويشعل الاستفسارات:

الأعداء الذين نجحوا في الإجهاز على العنق النحيل.. المأساة.. الهدنة مع العدو.. لماذا تعادينا أمريكا؟.. ولماذا تتلطخ عيوننا بالطين؟

فقصة «العيون الملطخة بالطين»، مترعة بالتكنيك القصصي الحديث، وبالرمزية وبضروب من الصور الفنية الممتعة والخيال الخصب والقدرة الرائعة على التصوير واللغة الأنيقة التي تخرج عن المألوف والنمطية الرتيبة.

في هذه القصة تلتمع إضاءات إبداعية تجاوزت عتبة التقليد بأسلوب لذيذ وخلاب وبلغة طيعة ومختنثة مسربلة بغموض شائق ليس من اليسير

فضّ مغاليقه.

أومأ الدكتور/ عبد العزيز المقالح إلى أن قصة «العيون الملطخة بالطين»، هي واحدة من ثلاث قصص يمنية اخترتها في بداية العام الدراسي المنصرم استجابة لطلب عميد كلية الآداب جامعة صنعاء، لتدريسها لطلبة السنة الأولى في القسمين العربي والإنجليزي، والقصتان الأخريان هما للصديق زيد مطيع دماج. وقد كتبت تحليلاً موجزاً لقصة العيون الملطخة بالطين، ورأى مدرس المادة أن يردفه بتحليل آخر، وكان للعميد نظرة مخالفة للتحليلين، وكان لمدرس آخر وجهة نظر رابعة.

لقد احترنا جميعاً في تحديد هدف القاص، وقد فسر كل واحد الهدف على حسب فهمه، وفي اعتقادي أن هذا ليس عيباً بقدر ما هو إثراء للعمل الأدبي، وإعطاؤه أكثر من جانب، وليس هذا الصنيع في إمكانية أي قاص، وإنما تلك سمة من سمات القاص المبدع الأصيل، وأحمد محفوظ عمر قاص مبدع.. وآمل أن يستمر في كتابة القصة، وأن يتجنب كتابة أي شكل أدبي آخر، شعراً كان أو نقداً، فإن ذلك سوف يفقده قوة التركيز الذي جعله يتبوأ المكانة العالية بين كتاب القصة في بلادنا بخاصة، وفي الوطن العربي بعامة[7].

3- نقطة ضعف في حياته:

يقول بطل رواية «أفواه واسعة»، للروائي المغربي محمد الزفزاف 1998م:

.. إنني أعرف كثيراً من الناس يحلمون بأن يكونوا كتاباً أو رسامين أو مغنين أو ممثلين أو فاضحي عوراتهم حتى يقال بأنهم أنجزوا شيئاً في هذه الحياة.

فالقاص أحمد محفوظ عمر الذي وُلِد في عدن عام 1936م، لم يتسلق الأكتاف ولا يبحث عن مجد أو شهرة زائفة، يقرأ بحذق مفردات الواقع دون

طلاء أو تزييف بعيداً عن الرياء النفسي والاجتماعي والسياسي، وغير مصاب بـداء السـهولة والابتـذال، فهو صاحب رواية «مبادئ لا تباع»، و»رسـائل إلى من يهمه الأمر»، وله بصمات لا تخطئها العين في تطوير تقنية الفن القصصي اليمنـي ابتـداءً مـن مجموعتـه القصصيـة «الإنـذار الممـزق» 1960م، وانتهاءً بمجموعته القصصية (تحت الطبع)، «أبيع الفل يا شاري»، ومروراً بالأجراس الصامتة، والناب الأزرق ويا أهل هذا الجبل...

ولسـت بحاجـة للقول إن للقـاص أحمد محفوظ عمر قدماً راسـخاً في القصة القصيرة، حيث يقول عنه الأديب والناقد السـوري فوزي معروف: إن (أحمد محفوظ عمر قد طور هذا الفن (القصصي) ووصل به إلى مستواه في بقية الأقطار لقدرته على استخدام كل طرائق التعبير من سرد إلى منولوج إلى حـوار، وتمكـن من اختيـار لغته حتى ارتفعت في بعض قصصه إلى مسـتوى الشـعر.. كمـا ابتعـدت القصة عنده عن المباشـرة والأسـلوب التقريري حتى وهو يعالـج موضوعاً من الواقع إذ نحس أنه لا يمسك القلم إلا بعد أن يكتمل نضج الموضوع في ذاته، كما أن القصة لا تلتزم عنده أسلوباً واحداً بل تتنوع الأساليب حسب الحدث وطبيعة تطوره، وكذلك لا يتقيد بمفهوم تقليدي في بناء القصة، بل إن كل قصة عنده تبدع شكلها الذي يناسب مضمونها والهدف منها. وهذه صفات الكبار من أعلام هذا الفن[8].

فلكل إنسـان شـفرة سـر في حياتـه، فالحياة على حد تعبيـر هذا القاص بطبيعتها معقدة ومليئة بالأسلاك الشائكة وبعلامات الوقوف الحمراء الكثيرة عنـد كل منعطـف وأنـت فـي الحيـاة وُجدت رغمـاً عن أنفـك.. وتركت في أتونها تصارع الصعاب وتقاتل البقاء، في أعماقك طموح مستمر لحياة أفضل وأهدأ.. وكما يجد الإنسـان نفسـه يزاول عملاً ما يحبه ويتقنه، يجد الكاتب أيضـاً نفسـه في عمـل إبداعي معيـن، يرى فيه الرغبـة والارتيـاح للتعبير عن خوالج نفسـه، ويشـعر بأنه الوعاء الأمثل الذي يسـتطيع أن يسـتوعب نبضات

مشاعره الجياشة بمختلف الأحاسيس[9].

ولعل أهم نقطة ضعف في حياته أنه خجول حتى النخاع تنقصه الجرأة، ولا تهفو نفسه إلى الشهرة والسراب الخادع، وفي غير مرة اكتوى بنيران النسيان تحت ستار سميك من الصخب الإعلامي والتهويش والتغندر اللفظي.

وهناك كثرة كاثرة من المبدعين في هذا الجنس الأدبي، ربما لم يقرأوا أو لم يسمعوا بأحمد محفوظ عمر، كاسم لامع في فضاء القصة اليمنية الحديثة.

يقول الأديب الألماني جونتر أورت (جامعة برلين)، في كتابه المسمى دراسات في القصة اليمنية القصيرة:

عندما بدأ اهتمامي بالقصة القصيرة في اليمن لفتت قصص أحمد محفوظ عمر انتباهي من بين قصص مختلف الأدباء اليمنيين منذُ أول قراءتي لها. وجدت نفسي أمام قاص جاد وبارع يمارس فن القصة بشيء كبير من الوعي والقدرة والمتعة.... وكانت أبرز الملاحظات التي بسطها جونتر أورت على قصص أحمد محفوظ عمر هي كالتالي:

1. أبطال القصص يعانون عزلة في مجتمعهم.
2. يعبر الكاتب عن موقف ناقد تجاه الواقع.
3. يستخدم أساليب فنية قصصية متطورة[10].

لقد ولد القاص أحمد محفوظ عمر في الشوك وعاش حياة قاسية مفعمة بالمخاطر والتوجس والتوجع وتعلم دروساً بليغة من مدرسة الحياة، واستخدم لغة قصصية مغموسة بالهم اليومي وبدون جمجمة يقتحم مغاليق الشخصية اليمنية، ويجيد فن الغوص في أغوار المجتمع. حيث بدأ مشواره الأدبي منذُ أكثر من نصف قرن، بأول قصة موسومة بـ «قربان الوطن»، وأهجس أن خجله وصمته النبيل ربما يكون من الأسباب المفصلية مرفوقة بعوامل شتى حالت دون شيوع نتاجاته الأدبية والقصصية بصورة ملائمة شأنه شأن الشاعر العراقي محمود بريكان، الذي لم ينعم بقسط معتبر من الشهرة

في حين أنه كان يقف على قمة الهرم الشعري مع زميله الشاعر بدر شاكر السياب.

وعلى خط آخر أتذكر مفكراً وتربوياً جليلاً لم يأخذ نصيبه من الشهرة والتألق ألا وهو الأستاذ الدكتور عبد الله عبد الدائم، الذي يشكو عدم شيوع مؤلفاته في الساحة الثقافية والتربوية العربية بشكل يليق بمقامه الرفيع، حيث ألف أكثر من خمسين كتاباً، فضلاً عن مئات المقالات والمحاضرات والأبحاث العلمية في بحر ستين سنه، حيث يقول:

إن جانباً كبيراً من فشلي في ذيوع نتاجي الثقافي يعود إليّ. ذلك أنني انشغلت بالإنتاج عن الترويج له، ولم أحاول في يوم من الأيام أن أذكّر من يعنيهم أمر الثقافة بما أقوم بإنتاجه مما يستحق النقد والتقويم. لقد كان جُل وقتي موزعاً بين العمل الوظيفي، في الجامعة وفي اليونسكو وفي سواهما. وكنت أنتزع السويعات القليلة بالإضافة إلى أيام العطل وأسهر الليالي أحياناً، وأحرم نفسي وعائلتي من النزهة، من أجل أن أقرأ أو أفكر وأؤلف. ومن هنا لم يكن لدي متسع من الوقت لمتابعة ما أنتج وللتعريف به ولبثه وإذاعته. إن التعريف بالعطاء لا سيما في مجال الفكر «لا يقل شأناً عن العطاء ذاته»[11].

فالقاص أحمد محفوظ عمر يكتب نصه الأدبي بعيداً عن الإسراف والتسرع وشعارات الزينة فيصارع الكلمات وهي تصارعه إلى أن يخضعها أو يترجل عنها، ويجد غيرها، فيلجمها أو يتوقف عن الكتابة، حسب تعبير الدكتور هشام شرابي[12].

وعن تجربته القصصية يقول القاص أحمد محفوظ لمجلة الثقافة الجديدة:

قبل الكتابة تمر القصة في ورشة عمل خاصة، حيث يصنع لها الهيكل المناسب، وترسم ملامح الشخوص وتقولب الفكرة.. ثم الابتعاد عنها فترة من الزمن، والعودة إليها بين حين وآخر بالإضافة والحذف، ثم يأتي وقت

الكتابة في زمن مفاجئ تكون فيه درجة الاستعداد في أعلى مرحلة. أما عن مدى الزمن الذي تستغرقه الكتابة فأمر صعب للغاية فلا يوجد وقت محدد للإبداع. فقد تستغرق كتابة قصة معينة عدة أشهر، وقد تستغرق كتابتها عدة أيام.. والأمر متروك أولاً وأخيراً للظروف النفسية والحياتية(13).

فثمة رواد للرواية في الوطن العرب في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين يأتي في مقدمتهم فرانسيس مراش، مروراً بمحمد حسين هيكل «زينب»، والشاعر والروائي جبران خليل جبران «الأجنحة المتكسرة» وهناك رواد للقصة القصيرة في الوطن العربي ومن ألمعهم سعيد حورانيه، وذو النون أيوب، ويوسف إدريس، وفؤاد كنعان.

أما أول من كتب الرواية اليمنية فيأتي على رأس هذه القائمة: أحمد السقاف 1927م – «فتاة قاروت»، محمد علي لقمان – 1939م – رواية «سعيد»، ثم الطيب أرسلان – 1948م – رواية «يوميات مبرشت»، وفي المرتبة الرابعة علي محمد عبده – نهاية الخمسينيات من القرن العشرين – رواية «حصان العربة».

أما على صعيد القصة القصيرة فقد بدأ هذا الفن القصصي على يد أحمد البراق عام (1940م) بقصة «أنا سعيد»، مروراً بالقاص حامد عبد الله خليفة (1948م)، «مجموعة قصصية»، ومحمد سعيد مسواط (1949م) قصة «سعيد»، وأحمد محفوظ عمر 1955م قصة «قربان الوطن»، ثم صالح الدحان (1957م).

ثمة فسحة للتحاور والنقد والإقناع خارج أسوار المجاملات في محاولة لإطلاق الحوار والانخراط في سجال مثمر ومُدارسة عميقة للأعمال القصصية والروائية اليمنية بمنأى عن البصمة الشمولية وذهنية الحبس وثقافة المجاملة والطبطبة الذكورية. لقد تعمد البعض طمر صورة المبدع أحمد محفوظ عمر في الرمال، وحاول البعض منهم قتله بالصمت وجعله يكتوي بنيران النسيان.

الهوامش

1. حوار مع صاحبة رواية «حُب ليس إلا»، الأديبة اليمنية نادية الكوكباني، دبي الثقافية (دبي)، العدد 20، (يناير 2007م)، ص 50.
2. علي حسين، «روجيه جارودي.. الفيلسوف المشاغب»، مجلة الكويت (الكويت)، العدد 264، (أكتوبر 2005م)، ص 74.
3. أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، (بيروت: دار الآداب، ط1، 1998م)، ص 395.
4. أحمد محفوظ عمر، «العيون الملطخة بالطين»، الحكمة (عدن)، السنة الخامسة، العدد 42، (أغسطس 1975م)، ص 20–25.
5. حنا مينة، القصة والدلالة الفكرية، كتاب الرياض (76) (الرياض: مؤسسة اليمامة، مارس 2000م)، ص 11.
6. دانيل جولمان، الذكاء العاطفي، ترجمة ليلى الجبالي، (الكويت: سلسلة عالم المعرفة 262، تشرين الأول 2000م)، ص 30.
7. د. عبد العزيز المقالح، «الملامح التعبيرية في مجموعة أهل الجبل»، التواصل (جامعة عدن)، العدد 7، (يناير 2002م)، ص 202.
8. فوزي معروف، «نماذج من أحمد محفوظ عمر»، التواصل، مرجع سابق، ص 208.
9. ’’تجارب إبداعية، أحمد محفوظ عمر‘‘، الثقافة الجديدة (عدن)، السنة 18، العدد 8، (أكتوبر – نوفمبر 1988م)، ص 210.
10. جونتر أورت، دراسات في القصة اليمنية القصيرة، (صنعاء: مركز عبادي للدراسات والنشر، ط1 2004م)، ص 69.
11. د. عبد الله عبد الدائم، ’’50 كتاباً في 60 سنة.. ولم أصل إلى القارئ‘‘، المعرفة (الرياض)، العدد 118، (فبراير 2005)، ص 147.
12. العربي (الكويت)، العدد 566، (يناير 2006م)، ص 123.
13. ’’تجارب إبداعية، أحمد محفوظ عمر‘‘، الثقافة الجديدة، مرجع سابق، ص 212.

القراءة الثانية: مشاهد قصصية بانورامية
للقاص أحمد محفوظ عمر

توطئة:

المجموعة القصصية الكاملة التي بين أيدينا للقاص/ أحمد محفوظ عمر، تحتوي على أربع مجموعات قصصية (الإنذار الممزق، الأجراس الصامتة، يا أهل هذا الجبل، الناب الأزرق)، احتوت المجموعة الكاملة على 34 قصة سطّرها القاص بيراعه المبدع، حيث تجاوز القاص القوالب القصصية المتكلّسة وشق طريقه في الإبداع القصصي بروح عصرية حديثة مستفيداً من التطورات في التقنيات القصصية الحديثة ذات الدلالات الشعرية واللغوية والصورية مرفوقة بالتماع الخيال ودقّة سرد التفاصيل وتداخل الأزمنة والأمكنة بإضافة نوعية لتكنيك قصصي فاخر.

لقد صوّر القاص أحمد محفوظ عمر حركات وسكنات المجتمع بنكهة رومانتيكية شائقة، وكان منحازاً للمنكوبين بالألم الاجتماعي مبيناً مظاهر اعتلال المجتمع وكوامن النفس البشرية وألوان الطباع وقسوة الفقر واليأس ورعشة الخوف والتخلخل والتضاغط الاجتماعي واعتراك أفراد المجتمع.

من المهم أن نلاحظ، أن المجموعة القصصية الكاملة عبارة عن سلسلة من الحلقات الفنية المترابطة التي تسجل بدقة حياة الناس وأفراحهم وأتراحهم، والحزن والبؤس والإحباط، فهي حفر في مناطق غويرة في الوعي واللاوعي وفي طبقات المجتمع، وفي أقاصي الحزن وخيبة الأمل، وتوثق لولع القاص بمخالطة الناس وحبهم، وتغلغله في قاع المجتمع، ورسمه

الدقيـق لوحشـة الأمكنـة وتوالـج الأزمنـة، وللنفـوس المريضـة والطعنـات المؤلمة والصراع الاجتماعي والنفسي والدمع والدموع والمفاكهة والمباسمة والحرائـق التي تشـتعل في شـرايين المجتمع، على أمـل التخلص من الطاقة السلبية في السلوك والوعي الاجتماعي.

غايتنا من كتابة هذا النص تقديم نظرة استعراضية عامة ومبتسرة لملامح السـرد والتشـويق القصصـي المتقن للقـاص أحمد محفوظ عمر والإسـقاط السـيكولوجي، والاسـتخدام المبـدع للقـات كمفـردة قصصيـة، وبسـط أهم المميـزات الإبداعيـة للقـاص أحمـد محفـوظ عمـر مـع التركيز علـى محنة التجاهل للقامات الإبداعية.

1- تجاهل مخيف لقامة إبداعية:

عندمـا يكـون الجيـل الجديد بلا ذاكـرة ولا ثقافة ولا هويـة ولا تراث، يُحكـم عليـه أن يطفـق في السـماء ويعيـش في التخـوم ويبتعد عـن القضايا الملتهبة والملحاحة. ويقودك البعض إلى ثقافة هشة وإبداع هش، وإلى فوضى وهذيـان، وإلـى حدود ضبابية وغامضة يتطاول فيها البلهاء والمغرورون على القامـات الثقافية والإبداعية السـامقة بجهل وبلادة ونزعات فوضوية خاضعة لميكانيكيات الغرور والإقصاء والكذب والفهلوة، والكراهية العمياء لأجيال الريادة لكسر الصلة بالماضي الثقافي والتراكم المعرفي والإنساني.

لقد كان الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي صادقاً حينما قال:

الجيـل الجديـد يعتبر الجيل القديم أثراً من أثـر الماضي المنتهي وعقبة في طريقه تحول بينه وبين التقدم والإبداع. وتلك هي حالنا التي كنا عليها في خمسينيات القرن الماضي وستينياته حين أشتد الصراع بين الأجيال الجديدة وجيـل العقـاد... لقـد عرفت العقاد بعـد رحيله أفضل مما عرفتـه وهو معنا. لأنـي قرأتـه بعيداً عن الضغوط العامة والخاصة التي كانت تمنعني من قراءته

ومـن التعاطـف معه حين أقرأه. نحن لا نسـتطيع أن نقدر كاتباً أو شـاعراً إذا قرأنـاه متحامليـن متحفزيـن راغبين في أن نتصيد أخطـاءه أو ما نعتبره أخطاء نتخذها دليلاً على أحكامنا المسبقة ضده[1].

فالقـاص أحمـد محفـوظ عمر واحـد مـن المبدعين البارزيـن في حقل القصـة اليمنية والعربيـة الذي ينتمي إلى جيل الرواد الأوائل وارتفعت القصة على يديه إلى مستوى فني رفيع لا يقل عن مستوى كثير من القصص القصيرة التي يكتبها قاصون عرب مرموقون في مختلف أرجاء الوطن العربي[2].

فلقد وصل القاص أحمد محفوظ عمر على حد تعبير عبد العزيز المقالح – فـي بنائـه الفني – من خلال قصص المجموعـة كلها إلى أوج نضجه، وأن تكنيكه مسـتمد في الأسـاس من المضمـون، وأن المنهـج التعبيري الواضح منسوج بمهارة في قصصه[3].

لقـد أنصـف الناقد الألمانـي جونتر أورت فـي كتابه النقدي «دراسـات في القصة اليمنية القصيرة» القاص أحمد محفوظ عمر وأومأ إلى أن وسـائل أحمد محفوظ عمر الفنية هي أصيلة ومتنوعة. فهو يسـتخدم أحدث التكنيك القصصـي مثـل التنقل المفاجئ بين المشـاهد والأزمنة وإدخـال نظرات إلى الماضي والمسـتقبل وكسـر الترتيب الزمني وتيار الشـعور والتداعي، وأحياناً كثيرة تكنيكاً هو أشبه بالقافية[4].

فثمة أسماء تظهر فجأة في سماء الثقافة مرفوقة بصخب إعلامي كبير لا يتلاءم وحجمها الثقافي والإبداعي، ويتم صناعتها من قبل جهات ومؤسسات لتزييف الوعي والترويج لشخصيات منفوخة بمديح من المغالطات ليس لها علـو كعـب في خارطة الإبداع الثقافي. ومنهم مـن يكتب بلغة ميتة خالية من نكهـة الإبداع ولا تخـرج من ضلوعهم وأفئدتهم الـولادات الفنية والإبداعية الجديدة.

لقد أصاب كبد الحقيقة أحد المثقفين العرب عندما قال:

في مطلع كل يوم، تخرج إلى النور عشـرات الكتب الأدبية العربية التي يصفهـا أصحابهـا من النقاد بالإبداعية أو الطليعية أو الحداثوية، لا لشـيء إلا لأنها تحتوي على نصوص الساري فيها كالساري في ليل مظلم، وما هي في الواقع سوى نتاج مراهقة أدبية، أو مخيلة سائبة غير منضبطة لم تخضع لتربية علميـة أو أدبيـة أو فنية. وأصحاب هذه النصوص لا يعرف أحد من أين أتوا، وما مؤهلاتهم، وما الذي يريدون أن يقولوه بالضبط[5].

القاص أحمد محفوظ عمر يحمل على ظهره ثمانين من السنين ويعيش حيـاة طبيعيـة معجونة بالمعاناة وحتى اللحظة لم يحظَ برعاية مادية أو معنوية مـن المراجع المسـؤولة، وقد لا يعرف البعـض أن هذا الكاتب أغنى المكتبة اليمنية والعربية بأعماله القصصية المبدعة.

فالقاص أحمد محفوظ عمر الذي كتب القصة بمداد قلبه لا يريد شـيئاً سـوى الإنصاف، فهو أمي في لغة المجاملة لا يجيد سـنّة السـجود والركوع لأصنـام الثقافـة وأهل القـرار، ولا يلبي إلا صوت ضميـره. وأزيد بالقول إنه رجـل بسـيط ومتواضع، وتواضعه مشـبع بالكبرياء. وقـد لا يعرف الكثير من النـاس أن القـاص أحمـد يمـارس الرياضة بشـكل يومي ومشـغوف برياضة المشـي ولا يجـد سـلواه إلا فـي القـراءة والكتابـة والرياضـة والغـوص فـي مفردات الحياة اليومية للبشـر العاديين، ومخالطة الناس في الشـوارع والأزقة والأسـواق والمقاهـي. ويعـد مـن أفاضل القصاصيـن؛ أفنى زهـرة حياته في محـراب الإبداع القصصي ومنح الأرصفة والطرقات والشـوارع والشـواطئ فـي مدينـة عدن نكهـة خاصة بتجواله الشـغوف الممزوج بالتسـلية والرياضة والخيـال المتواكـب بتفكير أخرس يقطـر عذوبة ورقة. ومنحتـه هذه المدينة الشاطئية الإلهام والزخم والحيوية والجمال. وعندما يتوغل بقدميه في أزقتها ودروبها يشـعر بالدهشة والطمأنينة والرضوان في صميم روحه، وتنطبع هذه المدينة بتفاصيلها في ذاكرته كالوشـم. إنه يمشـي وفي رأسه تتجمع المشاهد

والصور والحبكة القصصية واللقطات الفنية والإبداعية، يمشي وتمشي في دورته الدموية القصة وهندستها وأحداثها وجمال رونقها ولغتها الشعرية والأسلوب اللغوي والوجداني والبلاغة التعبيرية.

إنه بارع في لغته القصصية الخالية من الحشو والمفعمة بجمال الوصف ودهشة المفاجأة والانتقال الرشيق بخفة متناهية في الأزمنة والأمكنة كما ينتقل في تجواله اللذيذ من شارع إلى شارع ومن زقاق إلى زقاق ومن ساحة إلى ساحة ومن ضفة إلى أخرى بعدسة فنية صادقة تجيد تنويع المشاهد والصور في لوحة فنية رائعة وبتكنيك قصصي وبحشد لغوي وعاطفي وجمالي جذاب.

إنه صادق يعكس بفن تفاصيل الحياة اليومية لحظة بلحظة، ويكشف الأغطية عن دماملنا فهو يقول: أنا صادق في طرح أحاسيسي وفي أعمالي القصصية، ولا توجد أي قصة من قصصي تبرز عكس ما أضمر، فهو إحساس عميق ذاتي مقدس، أبوح عبرها بما لم أستطع أن أقوله علناً... إنني أشعر أن من أهم نجاح القصة توفر عنصر الصدق فيها... القصة التي لا تؤثر في القارئ بلا شك قد تفتقر إلى هذا العنصر الهام[6].

وكغيره من المبدعين يعاني من مضض روحي واكتئاب عميق، لأن الاكتئاب شرط ضروري للإبداع، حسب قول الناقدة العالمية جوليا كريستيفا[7].

فهو ليس سعيداً، شأنه شأن الروائي العالمي البرازيلي باولو كويليو الذي قال: إني مبتهج ولست سعيداً[8].

إن أكثر ما يوجع روحي الصمت الذي يقتل المبدعين والتجاهل المخيف للقامات الإبداعية التي تسبح في دهاليز التهميش، وعندما يموتون تسيح الدمع على الخدود وتكثر كلمات العزاء المبللة بالدمع وتبادر جميع الأطراف والجهات بمسمياتها المتنوعة لرفع شأن المبدعين وذكر مناقبهم

وتكريمهم مادياً ومعنوياً، وتقام مجالس العزاء على أرواحهم وتتحرك الأقلام الراقدة وعدسات التصوير لنقل المشاهد وشحن العواطف ونثر الذكريات والتذكير بالخصال الفنية والإبداعية والإنسانية للمبدعين، وتنهال عليهم الهبات والشهادات والنياشين وهم تحت التراب.

2- تشويق قصصي بلسان «الأنا»:

القصة القصيرة:

مجموعة من الألفاظ والجمل التي تترابط في نص لغوي لإنتاج حادثة أو حبكة أو موقف... [وهي] طريقة سردية خاصة لقول شيء ذي مغزى مضمر... وتنتظم في علاقة رمزية متحولة[9].

فالقصة القصيرة في الغالب تكون مفعمة بالصور والمشاهد في بنية سردية متلاحمة مع تركيز وتكثيف في اللغة والعاطفة والحوار والوصف وفن الحبكة المتواكبة بالحس الفني الدرامي الذي يجعل من حادث معين محطة لانطلاق شرارة القصة، فهذا هو القاص أحمد محفوظ عمر يقول:

تبرق فكرة القصة في الذهن فجأة كالضوء الخاطف أو تهجم بدون مقدمات، وتعلق بالذاكرة فترة من الزمن... نتيجة لمعايشة سابقة لحدث معين، أو بسبب شعور خاص تعرضت له وأثر في نفسي. وحين تأتي هذه الفكرة أشعر بمجيئها كمجيء الغيمة في يومٍ صافٍ محملة بالندى والشذى والسحر المثير، فاهتز نشوة سكرى. وأبدأ الكتابة. أما قبل مجيئها فإني أعيش حالة أشبه بالمخاض المتعب، ولا أخرج من ذلك العذاب إلا حين تخرج بوجهها الصبوح، وساعتها فقط أرى فيها منفذاً لليل بلا آخر. وبعد الانتهاء أحس بالخور والاستنفاد[10].

وعلى نفس المنوال يحكي الروائي السوداني أمير تاج السر طريقته في كتابة الرواية:

الكتابـة عنـدي تبدأ لحظة العثور على فكرة ما، وهذه الفكرة في الغالب تأتي وحدها، ثم تبدأ تتطور في ذهني.. من غير بداية قوية وحيدة، لا أستطيع كتابـة نـص حتـى لـو كان جيداً، وهكـذا كل أعمالـي التي كتبتهـا كانت بهذا الأسلوب، فكرة، تتطور وتتعب ثم بداية[11].

فأسـلوب التشـويق وكثافـة الإبهار والغمـوض الذي يسـتخدمه القاص أحمد محفوظ عمر لجذب القارئ في قصصه يعد عاملاً من عوامل القوة في الهندسـة القصصية للقاص أحمد محفوظ عمر حيث يسـبك أفكاره وألفاظه بعناية فائقة ويسـيطر بإتقان على عاطفة وعقل القارئ ويلج به بحرارة وزخم في بوتقة النص القصصي حيث لا يسـتطيع القارئ الخروج من بوتقة النص إلا بعـد أن ينهي قراءة القصة المفعمة بالإثارة والوصف والخيال والمشـاهد والعبـارات ودقـة التعبيـر الشـفهي والكتابـي والمنولـوج الداخلـي والرمـوز والـدلالات والتلميحـات الخرسـاء ودقـة التصويـر للحـركات والسـكنات وجغرافيا المكان والعواطف الكظيمة والهواجس الكئيبة:

الجـدران الأربعـة تحويني... والليلة قمـراء، وأنا متكئ في صدر الغرفة البـاردة، أشـغل جـزءاً مـن فراغهـا المحـدود، والوحـدة تلفنـي فـي جوفهـا الفضفـاض مـن الزوايا الأربع. القات أمامي ينطرح ببطـن الرداء الأبيض في اسـتكانة وتسليم.. أغصانه تتدلى بإغراء.. أصابع تمتد إليها وتقتطع رؤوسها بحنـان.. ثـم تدفعها إلى فمي برفق وتؤدة، من بين الأسـنان تنبعث خشخشـة مؤنسة تبدد وحشة الليل والوحدة[12].

فالقاص أحمد محفوظ عمر هو بطل قصصه حيث يقول:

أنـا لا أكتـب القصة إلا حين أنفعل بفكرتها، وتجد أن أكثر قصصي كتبت بلسان (الأنا)، وهذا يدل على عمق المعاناة في التعبير وعلى اهتمام في توصيل القصة بحرارة مشبوبة إلى الآخرين.. وبعض القصص من تجاربي الشخصية[13].

وحول النجوى الداخلية ومخاطبة القاص لنفسـه، يقول الروائي الصيني

العالمي غاو كسينغجيان:

إن مخاطبة المرء لنفسه تشكل نقطة انطلاق الأدب، بينما يأتي التواصل مـن داخل اللغـة في الدرجة الثانية، حيث يضخ الإنسـان أحاسيسـه وأفكاره داخل اللغة، ثم يلجأ بعدها إلى الكتابة. آنئذ يولد الأدب.[14]

3- الإسقاط السيكولوجي:

في قصة (ظلال وأفكار)، بطل القصة (الأنا) يخاطب نفسـه في منولوج داخلي شائق وشفاف، حيث يعيش حياة بلا مسرات معجونة بالضجر والكآبة والتأفـف وفـي حضرة وُريقات القات الخضراء يغوص في أخاديد عميقة من الذكريـات والخيالات العاطفية والرغبات الجنسـية، حيث يبدو في آن واحد واقعيـاً وخياليـاً، اسـتطاع أن يقمع نوازعه الداخلية الدفينـة في غير مرة وغير مكان وتغلب على نوازعه الشـهوانية التي تهفو للرغبة ولم تفصله إلا شـعرة دقيقة عن ارتكاب الإثم:

- شيء ما في جسدي انتفض وتكوم تحت اللباس.. عرفت كل شي.. خطت نحوي خطوتين.. الابتسـامة تتسع والأسنان البيضاء تتناسل مـن فمهـا.. وأنفـاس الرغبـة تهدر مـن عينيها.. تراجعـت للخلف خطوتين مخافة الاغتصاب[15].
- عدت أهمس للمرأة متى استرد الدين؟

ضحكت ببسـالة، وردت: سوف تسـترده الليلة.. صوت المرأة يلاحقني الطريق من هنا.. الطريق من هنا[16].

- لكن الملعونة كادت تغتصبني والليلة ليلة رمضانية مباركة [17].
- جربيه.. لن تتركي زوجك البغل ينام طيلة الليل [18].
- كيـف يكتسـب الفقراء هـذه الصدور الثرية؟ سـؤال مُلـح يطن في رأسي دائماً..[19]

واعتبـر غوفمـان أن الـذات تتحرك باسـتمرار بيـن منطقتيـن مختلفتين: (مقدمة المسرح) (front stage) وهنا يمارس الفرد دور الشخصية الاجتماعية المرئيـة علناً، و(الكواليـس) (Back stage) حيث يحتفظ الفرد بأدوات هويته، ويمكنـه أن يخلـع عنه ثوب الشـخصية الاجتماعية. نفهـم من هذه الفكرة أن الـذات الحقـة والأصلية نادراً ما تُتاح لها فرصة التعبير عن نفسـها في وجود الآخرين[20].

لقد استخدم القاص أحمد محفوظ عمر في نصه القصصي عملة الإسقاط بصـورة بارعـة، وظهـر بطـل القصة أنـه عفيف وشـريف لا يميـل للموبقات وممارسـة اللذة مع السـاقطات والمتسـولات أو من في معناهم ممن سقطوا في المحذور وأرغمتهم الحاجة على ممارسـة السـوء، ففي الأزقة والشوارع والطرقـات المظلمـة وزوايا الأسـواق المعتمـة يتعرّض بطـل القصة للإغراء فيتحصّـن بمهاجعـه الدفاعيـة الداخليـة (الـوازع الديني – الثقافـة – الضمير) للـذود عـن نفسـه، ويتأبى الخضوع للرغبـة رغم خياله وعقلـه الباطني الذي يفيـض شـبقية في نسـيج ملتحم بالأحـلام والانفعالات ولغة الجسـد وإيقاع العبارات والتقلب بين أعطاف الشهوات..

- أواه.. مـا هـذه الأفـكار الداعـرة.. الليلـة.. ليلـة رمضانيـة مباركة، الملائكـة يسـبحون بحمـد العظيـم المتعالـي.. والشـياطين تعربد بأفكارها الفاسقة في رأسي[21].

فالإسـقاط: عملية سـيكولوجية ينسـب الفرد عن طريقها أفكاره ومخاوفه ورغباته وخصائصه غير المرغوب فيها إلى أشخاص آخرين أو أشياء بطريقة لا شعورية كوسيلة لحماية ذاته من الإحساس بالذنب وتأنيب الضمير وكأسلوب لتبرير سلوكه وبناء على ذلك فالإسقاط نموذج لميكانيزم دفاعي ووسيلة يهرب خلالها الشخص من الاعتراف بعجزه أو تقصيره أو اتجاهاته غير الملائمة[22].

فالتناقـض الوجدانـي والتناشـز مـا بيـن الواقـع والخيال ما بيـن الوعي

والسـلوك مفردات يومية نلاحظها ونعيشـها ونلامسها بأناملنا في إيقاع حياتنا اليوميـة، وهـذا ما أومأ إليه الروائي العالمي المغربي محمد شـكري في نصه الشـهير (الخبز الحافي). لقد كان يندهش كثيراً من السـلوكيات والتصرفات وعلاقة العنف القائمة بين أبيه وأمه، ففي النهار يشتبكان ويتصارعان بأسلوب قبيـح ومرذول في انفعـالات زائقة ووجع مؤلم وآدمية مسـفوحة، وفي هدأة الليـل يتصالحـان ويدخـلان في دعابـات ماجنـة لإرواء الشـهوات والغرائز. فانبجسـت مـن هذه المشـاهد والمواقف المضطربة فكـرة مرتوقة في مضيق ذهن الروائي العالمي محمد شكري هو أن تكون لديه امرأة على هذه الشاكلة، حيث يخاطب نفسه:

- عندما أكبر ستكون لي امرأة. سأخاصمها في النهار بالضرب والشتم وأصالحها في الليل بالعري والعناق. إنها لعبة جميلة ومسـلية بين الرجل والمرأة[23].

4- القات كمفردة قصصية:

القات يسكن في قلب الإبداع القصصي لأحمد محفوظ عمر، لقد لفت انتباهـي تكـرار هـذا الموضوع في القسـط الأعظم من قصـص المبدع أحمد محفـوظ عمـر فالقـات و»المبرز» حاضـران في قصص أحمـد محفوظ عمر ومتداخـل ومتدامج بالهم العمومي لأبطال قصصه، ولعل أبرز القصص التي ورد فيها القات و»المبرز» هي:

1- النـاب الأزرق، 2- أيـن صفية؟ 3- ظـلال وأفكار، 4- المروحة، 5- الأيام المحترقة، 6- الليل الطويل، 7- الأجراس الصامتة.....

فالقـات و»المبـرز» مفردتـان مـن مفردات الحيـاة اليومية لعامـة الناس، فأصبحـا جـزءاً مـن الهويـة الاجتماعية ملتحمـاً بأفراحنـا وأتراحنـا وعاداتنا وتقاليدنـا وبلغة الحياة اليومية والتفاعـل والتواصل الاجتماعي. وليس غريباً

أن يومئ المبدعون إلى تغلغل القات في نسيج وشرايين المجتمع، فلقد كان صادقاً المبدع العراقي بلند الحيدري في قصة قصيرة موسومة بـ (عندما يأتي المساء)، فهو يصور شاباً يحلم بالزواج والشقة ومهر زوجته:

يجلس في خمول متكوماً في مساحة صغيرة ما بين «المدكى» و«المدكى» الآخر.. ساهم النظرات حزيناً.. كئيباً.. ومثله كانت تلك الأوراق الخضراء التي نجت من المضغ تقبع فوق الجريدة منتظرة رفيقاتها، فيما المذياع يرسل ألحاناً تضيف إلى الحزن حزناً وإلى الكآبة كآبة.. يده تتحرك بتلقائية بين الفينة والأخرى ما بين الكيس الأحمر وقارورة الماء الزرقاء.. وبين كل هذا.. عقله يقظ متخم بالمشاكل والهموم.. لا يكاد يعالج مشكلة حتى تتسابق عشرات الهموم والمشاكل لتعلن وجودها واستعصاءها.. ويزداد ضيقاً كلما أعلن الظلام قدومه وازدادت سطوته[24].

واستطاع الشاعر محمد كامل الآني[25] تصوير مشاهد القات وجلساته والمتاكي والحوارات القاتية الانفعالية والأحلام الوردية التي تنتهي بانتهاء مفعول القات:

هات المداعة يابني، وقاتي — دعني أضيع فيهما أوقاتي
ودع الأفاضل يدخلون، لعلني — أروي لهم عن قصتي وحياتي
عن لوعتي.. عن روعتي وبراعتي — عن غصتي بالريق في لهواتي
عن شقوتي.. عن محنتي وتصبري — وشهامتي وشجاعتي وثباتي
فتداخلوا فوق «المتاكي» مثلما — تتدافع الأنعام في العرصاتِ
وسرى عقار القات فيهم مثلما — تسري السلافة في عقول طغاةِ
وتناولوا زور التحاور بينهم — كتناول السفهاء للشبهات
خاضوا المعارك في الفضا بحديثهم — وقضوا على الحكام في لحظاتِ
زعموا بأنهم بنوا وطناً، وهل — صح البناء بزخرف الكلماتِ
وأنا هنا وحدي أخطط ثورةً — فشلت وضاعت بانتهاء القاتِ

فنشوة القات تفجر بطولات وقدرات فوق المستطاع عند المخزِّن حيث يستسهل الأمور ويحل المشاكل الضاغطة على حلقومه ويجترح المآثر ويحطم القيود:

يظنون في رحلة «القات» أن الظلام انتهى

والقيود انتهت والسجون

وحين يعودون من رحلة ''القات''

تدهمهم سحب الليل

تمضغهم عاصفة الشجون[26].

أبطال قصص أحمد محفوظ عمر يمضغون القات هروباً من الفاقة وشظف العيش، ومن مخالب الحياة الحادة التي دمرت نفوسهم وللتخلص من الألم النفسي والجسدي واضطراب التأقلم ورعب القهر وإفرازات الاستبداد، وللتملص من الشر والكآبة والتعاسة والمضض الروحي ومشاعر القنوط واليأس والتوتر.

ما أجمل الصور الفنية الرائعة التي ينثرها المبدع أحمد محفوظ عمر ويمازجها بمشاهد تناول القات بإشارات مكثفة ودقة استبصار وبلغة شاعرية مهموسة تحمل أنفاس المكان «المبرز» ودبيب الحركة فيه بفطنة وسرعة وبداهة في تصوير الحركات والسكنات والفضاء العمومي القاتي:

– المروحة تدور وتدور.. وأفكارنا تدور معها، الأرض تدور بنا حول نفسها، وكل شيء حولنا يدور ويهتز.. وأنا متجمع في جلستي، بعد أن أرخيت جسدي بعد طول اشتداد كالوتر في عمل لا يفي بضروريات الحياة لأسرة تتنامى عاماً بعد آخر.

المروحة تدور فوق رؤوسنا، وأغصان القات بين أسناننا تدور داخل الأفواه المثقوبة في الوجوه الواجمة، ترتطم بجداري اللثة وحاجز الفك الأسفل الشمالي من الداخل واللسان لكل منا..

المروحة تدور فوق الرؤوس ونحن في بداية الحضور الذهني لكل شيء..

والألسن تتحرك بنشوة ونشاط.. تمضغ القات وتطلق الكلمات المنوعة، قبل أن يسري فيها الخدر المثبط.. ونتراخى في ذهول.

زجاجات المشروبات المرطبة تحتشد أمام الجالسين، والصبي النحيل يقف بجلبابه المتهتك وسط المتحلقين في جلسة مستطيلة، يجمع منهم ثمن الشراب والسجائر.. وفي دقائق معدودة انفجر نقاش سياسي متقطع، ودارت المروحة بتكاسل مقبض فوق الرؤوس، وتحرك بائع المشروبات المرطبة بتراخٍ بين الجالسين[27].

جلسات القات وطقوسه ثقافة تشرّب بها القاص أحمد محفوظ عمر منذُ نعومة أظافره، فهي ليست جلسات للثرثرة والترويح عن النفس فقط وإنما هي أيضاً جلسات للعلم والمثاقفة والمدارسة وللانتعاش الذهني وخلق نوع من الألفة الاجتماعية والتساكن النفسي والوجداني وتعزيز أواصر التآزر الاجتماعي وتحفيز النشاط الذهني والإبداعي، فعندما كان صبياً لم يرشد بعد كان والده يستدعيه لقراءة القصص والروايات لجلاّسه، حيث يقول:

فجأة وجدت نفسي أقرأ بشغف كل ما يقع في يدي من كتب وصحف، ولمست ميلاً غزيراً للقراءة ولازمني يومها شعور عميق بموهبتي وفصاحتي.. فوالدي كان يستدعيني لأقرأ له ولجلسائه في جلسات القات عصراً وفي شهر رمضان مساءً، كتب عنترة بن شداد وألف ليلة وليلة وسيف بن ذي يزن وزيد الهلالي[28].

فهموم لقمة العيش وتربية الأطفال واتقاء شر الزوجات والقلق المستمر والعذاب العنيد المتنامي والأمراض المتتابعة وهموم العيش اليومية ومطالب الحياة المستمرة والقلق الخفي من أي شيء ومن لا شيء[29]، هي التي تدفع بأبطال قصص أحمد محفوظ عمر لمضغ القات. وتبهره جلسات القات

للجيران بطيبتهم ومشـاعرهم الإنسانية غير المتصنعة؛ فدبيب وحركة الشارع تضفـي نكهـة خاصـة في عالم القاص أحمد محفوظ عمـر رغم ما ألمّ به من مرض وإرهاق وألمٍ نفسي عندما أدمن مجالسة القات ومؤانسته:

– بـي شـوق جارف للنظر مـن النافذة إلى الخارج.. منـذُ مدة لم أرقب الحركة والضجيج في الشارع. آه كم هو جميل ومبهج رؤية الحياة في الناس. ما بال زوجتي تقف خلفي بقلق؟.. إن الدنيا لم تتغير مطلقاً من يوم اعتكفت في هذا البيت المظلم.. لا زال صبي القهوة يحمل أكواب الشاي للطالبين.. وخادم المطعم يحمل أطباق الطعام للناس، والجيران متكئون على الوسـائد أمام بيوتهم يمضغون (القات) بنشوة.. لا شيء قد تغير.. أحياناً يخيل إلي أن الدنيـا سـاعة كبيرة متقنة الصنع تسـير على وتيرة واحـده لا تتغير والناس من حولها يجيئون ويذهبون دون أن يؤثّروا على نظام سيرها[30].

القـات يدلـف في تفاصيـل الحياة اليوميـة للناس، ومن خلاله اسـتطاع المبـدع أحمـد محفـوظ عمـر أن يبسـط جزئيـات الحيـاة اليومية ومشـاكلها وإيقاعاتها ومسـرات وأحزان العامة والهزات النفسـية والجسـدية والمعيشية والإيمـاءات الاجتماعيـة والدلالات الإنسـانية في نسـيج رصيـن من الإبداع القصصـي، وبقدرة فذة على التصوير ووصف دقيق للشـخصيات والحوادث وبراعة البناء القصصي والتنقل الحريف بالصور والمشاهد والأزمنة والأمكنة دون أن يأبـه بهـا القـارئ، والرمزية الحاذقـة ذات الأبعاد العميقـة التي تفتح مجالاً واسعاً للتفكير النابه وهندسة وتشريح الواقع في سياقات مضطربة.

يقول ستفانو نيبي:

هناك كتّاب ليسـوا سـوى شـجرة واحدة، شـجرة جوز، أو شجرة بلوط جميلـة، وهنـاك كُتّـاب زائفون مثل شـجيرات متفرقة. ولكن هنـاك كُتاباً مثل الغابات، تدخل فيها، فتتوه، ولا تعرف أبداً ما الذي تراه في خطواتك القادمة داخلها[31]، وهذا هو شأن المبدع أحمد محفوظ عمر.

5- المميزات الإبداعية:

ثمة مميزات إبداعية شاخصة للقاص أحمد محفوظ عمر الذي ارتفع بالقصة اليمنية إلى مستوى القصص العربية الرائعة، وهو واحد من رواد القصة القصيرة اليمنية، الذين استقامت على أيديهم القصة القصيرة بروافدها الفنية والتكنيكية، وفي هذا السياق يقول الأستاذ فريد بركات إن قصص أحمد محفوظ عمر:

يُشكل بناؤها الداخلي محاولة جريئة لفن قصصي يمني يطمح إلى اقتحام عوالم الفن العربي القصصي المعاصر من أبوابه الشرعية، نقدمها في هذه العجالة إلى القارئ اليمني والعربي، علّه يجد فيها بعض أو جُل ملامحه وقسماته الأصلية في زحمة الادّعاء الكاذب، والاعتداد المأزوم الأجوف، والغرور الصبياني الجاهل، الذي يقف على أرض رخوة من الخواء الفكري والثقافي والفني، والجديد المغرور المغلوب على أمره في معظم الأحيان هذه الأيام[32].

فأحمد محفوظ عمر، على حد تعبير الناقد المصري عبد الحميد إبراهيم يتميز بميزة التفوق على نفسه باستمرار، فهو يطور ثقافته القصصية وتكتيكه الإبداعي ويدير الأحداث ويحرك الشخوص بمهارة أدبية جيدة، ويوظف عناصر فنية وبلاغية متعددة يحاول من خلالها تلوين المواقف الفنية وإبراز الصراعات النفسية المدمرة في ارتباطها الجدلي الوثيق بحركية الواقع الاجتماعي على حسب قول الناقد فيصل صوفي[33].

فهذا المبدع يبهرك بتكنيكه القصصي وتنقلاته الرائعة في الفضاء الزمني والمكاني وبجدلية الموضوع، وطريقة العرض، والأسلوب والالتزام بجماليات فن القصة القصيرة مثل: التكثيف اللغوي وجمال الوصف واللغة الشعرية واختيار الأحداث المناسبة للغرض من الحكي[34].

ويذهلك بغزارة المشاهد والصور واللغة الشعرية التي تتغلغل في

تجاويف النص القصصي، فهو يسيطر على لب وعاطفة القارئ ويرغمه بلهفة وبشوق على متابعة قراءة النص القصصي لما فيه من لذة فاخرة وعمق أدبي واجتماعي وعاطفي وإنساني في سياق نص قصصي مترع بالجمال ينبض بالحرارة والحيوية والإبداع وبالرمزية الشائقة واللذيذة:

حين دوت الطلقة فجأة لتمزق السكون من حولي، شعرت بوخزة حادة في كتفي الأيمن، فارتفعت يدي اليسرى بحركة عفوية إلى موضع الألم تتحسسه وتضغط عليه. قبل أن أسقط.. استدرت حول نفسي دورة كاملة موزعاً نظراتي في كل الاتجاهات.. لا أثر.. لا شيء.. الخصم غائب عن عيني.. حاضر في جسدي، الأبواب والنوافذ موصدة، السكون يضاعف ألمي بثقله المكرب... تسارعت ضربات القلب.. احتشد الظلام في عيني.. سقطت على الأرض، اندس وجهي بين حبات التراب.. ويسراي التفت حول صدري.. واستقر كفها على الكتف الأيمن، تضغط على الألم بجنون منهار.. وهربت الدنيا بكل ضجيجها الأبدي.

قبل دوي الطلقة كنت أسير في العصر، الطريق مقفرة تنتصب على جانبيه (الفيلات) الأنيقة، وعند أقدامها تربض السيارات (الملاكي) ذات الأطرزة الحديثة.

كان رأسي يصخب وسط الهدوء الظاهري بعشرات الأفكار المتعبة.. أقيم معادلة صعبة بين الراتب والمصروفات.. أحاول التوفيق، فيتصدى الفشل للممكن الحذر للقضية[35].

فالطلقة التي أصابت جسد بطل القصة قادمة من النظام البيروقراطي والسُرّاق والفاسدين صناع الخراب الاجتماعي، الذين يمتصون خيرات المجتمع ويدوسون بنعالهم أفواه الفقراء والمعدمين والمطحونين وآدمية الإنسان.

الطلقة رمز لفواتير الماء والكهرباء الباهظة الثمن التي أصابت سهامها

روح وجسد بطل القصة وزلزلت روحه بنيران وحرائق غير مرئية أحدثت صدوعاً داخلية في نفسه وأشعلت الهواجس المرة وإصابته بهزة نفسية مؤلمة في صميم روحه لم يستطع المتجمهرون حوله رؤية أثرها في جسده، ولذلك كانوا يستغربون لألمه من الطلقة فلا دماء ولا أثر لاختراق الرصاصة لجسده المهلهل والمنهك وهو يصرخ ويتلوى من شدة الألم.

وجملة، يمكن القول إن المميزات الإبداعية للقاص أحمد محفوظ عمر تتلخص في:

1- السرد المتقن.
2- المنولوج الداخلي.
3- المضامين الاجتماعية العميقة.
4- التكنيك القصصي البارع.
5- اللغة الشعرية والتكثيف الجمالي.
6- الخيال الخصب.
7- الغربة واضطراب الهوية.
8- الذكاء العاطفي.
9- الواقعية في تناول المواضيع القصصية.
10- التصوير الفني البليغ وكثافة الصور والمشاهد والأحداث.
11- التحليل النفسي والسيكولوجي والنفاذ إلى عمق النفس البشرية.
12- التناقض الوجداني في نفوس أبطال قصصه.
13- التصوير المدهش للبيئة الاجتماعية.
14- البناء الفني والقصصي الرصين.
15- قدرة فائقة على الإدهاش والتنقل في الزمان والمكان.
16- الحس الدرامي.

17– المزج الفني بين الواقع والخيال.

18– الحبكة القصصية والوصف الرائع.

19– عكس معاناة المقهورين والمقموعين في المجتمع بجرعات مركزة من الإبداع أو على حد تعبير القاص الأمريكي ريموند كارفر: أكتب قصصاً عن الناس المغمورين الذين لا يوجد لديهم شخص ليتحدث معهم. أنا نوع من الشاهد إضافة إلى أن تلك هي الحياة التي أعيشها لمدة طويلة. لا أرى نفسي كناطق بل شاهد على الحيوات. إني كاتب[36].

20– قصص أحمد محفوظ عمر طبيعية وغير متكلفة الصنعة ترصد إيقاع الحياة اليومية للناس وتكشف الأغطية عن دماملنا: فمجال الحياة اليومية أوسع بكثير من حدود العقل، لأن للحياة اليومية أبعاداً غير مباشرة ولهذا نجد حضور الرومانسي والخيالي والوهمي والوجداني والعاطفي والعدواني والطقوس في كل ما هو يومي[37].

الخاتمة:

الإبحار في أعماق الأعمال القصصية للقاص أحمد محفوظ عمر عمل شاق ولذيذ، فقصصه صنف من أصناف السهل الممتنع، تبدو للوهلة الأولى بسيطة وسهلة الفهم، لكنها عميقة وثرية بالرموز والصور والخيال الخصب والتعابير والدلالات المكثفة، فهي تجليات لنجوى إبداعية داخلية من الصعوبة الغوص في أعماقها، جميلة الجرس ومتقلبة وحمّالة أوجه، تحمل أكثر من معنى ومن دلاله وتفتح نافذة للتأويلات والرسائل المشفّرة وتجمع ما بين العتمة والوضوح في أعماق مضطربة مسكونة بالغربة والقلق والتقلب والتوجع وسفر التيه والحيرة والمضض الروحي واضطراب الهوية.

اكتفينا في ما سلف بإشارات مكثفة للأعمال القصصية للقاص أحمد

محفوظ عمر، وتأملنا بعين فاحصة بعض الزوايا اللامعة في أعماله القصصية للفت الانتباه إلى مبدع أهملته الأقلام النقدية وسقط من ذاكرة المؤسسات الثقافية التي حجبت عنه الضوء في حقبة حالكة الظلام مليئة بالمكر والقسوة والخداع تئن بالتشققات والتصدعات والعلل والآفات القاتلة للأصوات المبدعة والمحبطة لكل عمل نابه ومضيء يصب في مجرى السمو الروحي ونهضة العقل والنماء والعُمران.

انتخبنا مقتطفات إبداعية بلمحات برقية وخاطفة لهذا المبدع القصصي التي ظهرت مهارته القصصية وعلو كعبه الإبداعي في أسلوب التشويق والإبهار والغموض اللذيذ، ومهارة كتابة القصة بلسان «الأنا»، وتكنيك الإسقاط السيكولوجي والتناقض الوجداني، وغوصه في قاع المجتمع، وتصويره الفذ لآلام وتطلعات المطحونين، ورُقيه الفني المفعم بجرعات مكثفة من التكنيك القصصي المنسوج بمهارة فنية في الشكل والمضمون.

الهوامش

1. أحمد عبد المعطي حجازي، (العقاد متعدد وكثير وصعب)، دبي الثقافية (دبي)، العدد 107، (أبريل 2014م)، ص 23.
2. فريد بركات، مقدمة الطبعة الثانية، في: أحمد محفوظ عمر، الأعمال القصصية الكاملة، (صنعاء: وزارة الثقافة، ط1، 2010م)، ص 13.
3. عبد العزيز المقالح – تقديم – مرجع سابق، ص 7–8.
4. جونتر أورت، دراسات في القصة اليمنية القصيرة، (صنعاء: مركز عبادي للدراسات والنشر، ط1، 2004م)، ص 72.
5. جهاد فاضل، (أول الطريق إلى الأدب)، العربي (الكويت)، العدد600، (نوفمبر2008م)، ص 210.
6. حوار مع القاص/أحمد محفوظ عمر، مجلة الكتاب (صنعاء)، العدد 3–4، (2006م)، ص 83.
7. حوار مع جوليا كريستيفا، نزوى (عمان)، العدد 55، (يوليو 2008م)، ص 111.
8. حوار مع باولو كويليو، العربي، العدد 563، (أكتوبر 2005م)، ص 107.
9. محمد خضير، السرد والكتاب (دبي: دبي الثقافية، 36، مايو 2010م)، ص 51.
10. حوار مع القاص/ أحمد محفوظ عمر، مرجع سابق، ص 82.
11. حوار مع أمير تاج السر، دبي الثقافية، العدد 107، (أبريل 2014م)، ص 121.
12. أحمد محفوظ عمر، الأعمال القصصية الكاملة، مرجع سابق، ص 151.
13. حوار مع القاص/ أحمد محفوظ عمر، مرجع سابق، ص 82.
14. محاضرة غاوكيسنغجيان بالأكاديمية السويدية خلال تسليم جائزة نوبل له لسنة 2000م، مجلة الرافد (الشارقة)، العدد 153، (مايو 2010م)، ص 49–50.
15. أحمد محفوظ عمر، الأعمال القصصية الكاملة، مرجع سابق، ص 151.
16. المرجع السابق، ص 153.
17. المرجع السابق، ص 155.
18. المرجع السابق، ص 155.
19. المرجع السابق، ص 152.
20. علم الاجتماع: المفاهيم الأساسية، تحرير: جون سكوت، ترجمة: محمد عثمان، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط2، 2013م)، ص 213–214.

21. أحمد محفوظ عمر، المجموعة القصصية الكاملة، مرجع سابق، ص 153.
22. مجموعة من المؤلفين، المعجم الشامل لترجمة مصطلحات علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي، (الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط1، 2013م)، ص 357.
23. محمد شكري، الخبز الحافي، (بيروت: دار الساقي، ط9، 2006م)، ص 29.
24. بلند الحيدري، قصة: عندما يأتي المساء، صحيفة 26 سبتمبر (صنعاء)، العدد 957، (17/5/2001م)، ص 25.
25. انظر: أحمد عبد الرحمن المعلمي، القات في الأدب اليمني والفقه الإسلامي، (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ط1، 1988م)، ص 71–72.
26. ديوان عبد العزيز المقالح، (بيروت: دار العودة، ط2، 1980م)، ص 479.
27. قصة «المروحة» في: أحمد محفوظ عمر، الأعمال القصصية الكاملة، مرجع سابق، ص 69، 72.
28. حوار مع القاص/ أحمد محفوظ عمر، مرجع سابق، ص 80.
29. أنظر: قصة «الأيام المحترقة»، «الليل الطويل» في: أحمد محفوظ عمر، الأعمال القصصية الكاملة، مرجع سابق، ص 115، 134.
30. قصة «الأجراس الصامتة»، مرجع سابق، ص 107.
31. ستانوبيني، (كتاب في الغابة)، مجلة الدوحة (الدوحة)، العدد 78، (أبريل 2014م)، ص 31.
32. أحمد محفوظ عمر، الأعمال القصصية الكاملة، مرجع سابق، ص 14–15.
33. المرجع السابق، ص 229–230.
34. قصص على الهواء، عرض واختيار: وجيه السيد، العربي، العدد 666، (مايو 2014م)، ص 152.
35. قصة «الطلقة»، في: أحمد محفوظ عمر، الأعمال القصصية الكاملة، مرجع سابق، ص 145.
36. حوار مع ريموند كارفر، ترجمة: نجاح الجبيلي، نزوى، العدد 78، (أبريل 2014م)، ص 170.
37. رمضان بسطاويس، (قراءة نص الحياة اليومية)، العربي، العدد 582، (مايو2007م)، ص 108.

الفصل الثالث

صحيفة متألقة «الأيام» العدنية

1- توظيف حاذق للكلمة

2- الصحافة وأهل الشوكة

3- حجب "الأيام" ومصادرتها

- ملحقات

مدخل

في هـذا الفصـل نتتبع بعين متبصـرة تألـق صحيفة الأيـام والآلام التي عانـت منها في مسـيرتها الإعلامية والتنويرية ونرصد بدقة سلسـلة المرارات التي تجرعتها صحيفة الأيام العدنية.

ثم نعزز هذا الفصل بملحقات وهي عبارة عن مقالات كتبتها تضامناً مع صحيفة الأيام شـارحاً الظلم الذي حل بها. وهذه المقالات كُتبت في الفترة من مارس 2010م – أغسطس 2014م، ونشرت في صحيفة الأيام ماعدا النزر اليسير منها.

متى سيرفع الظلم عن «صحيفة الأيام»؟!

1- الأيام توظيف حاذق للكلمة[1]:

قال المفكر جمال الدين الأفغاني: «صاحب القلم لا يحتاج إلى عصا»، والناشـران هشام وتمام باشراحيل، لا يحتاجان إلى مدفعية وبوازيك وطيران لنسـف الآخرين، فهمـا يؤمنان بالكلمة الأمينة وحريتهـا وأناقتها، ويعتصمان بـروح المحبـة والتسـامح. إنهمـا يحملان السـلام والمودة للجميـع، لأنهما تربيا في كنف أسـرة متحضّرة، وتشـبّعا بالثقافة والديمقراطية والوئام المدني، كأسمى ما ترنو إليه النفوس.

لا تربطهمـا أي صلـة بالنوايـا الشـريرة، ولا بهواجـس تعكيـر الأمـن الاجتماعي، ولا يمارسان الدعارة السياسية والأخلاقية.. إنهما بريئان.. إنهما يحملان القلم.. ويسيران على خطى والدهما الراحل، عميد (الأيام)، الأستاذ محمد علي باشـراحيل، الذي يقول: «إن الشـعب بحاجة لمن يشـعره بسلامة حياتـه ومصيـره»، إنهما يؤمنان أشـد الإيمان بأن القلم سـلاح أمضى وأقوى

من المتاريس والأسوار، القلم سلاح ينوّر البصر والبصيرة، ويمهّد السبيل للخطوات النجيبة الصادقة، إذا ما استخدم استخداماً نزيهاً.

لقد قال عبد العزيز جاويش، الذي ترأس صحيفة «اللواء» المصرية، عام 1908:

«أيها القلم: لو كنت سيفاً لأغمدتك في صدور من يحاربونك، أو سهماً لأنفذتك في أعماق قلوبهم، ولو كنت جواداً لوجدت لك في ميادين النزال مجالاً للكر والفر، ولكنك ذلك العود الذي أيسر ما ينال منه عدوه أن يعالجه بالمبراة فيشقه، أو بالأصابع فيكسره. ولتكن أيها القلم ما شاءوا لك. إما نائماً إلى حين أو ميتاً أبد الآبدين، فقد تركت عيوناً لا يغدوها النوم، وقلوباً لا يملكها اليأس، وأيدياً لا تخاف السلاسل والأغلال، وأرواحاً تفدي الحرية والاستقلال»[2].

إن تكميم الأفواه وتكسير الأقلام وإغلاق الصحف، لا يخدم بأي حال من الأحوال مسيرة الديمقراطية، فأولى أولويات الحياة الديمقراطية هي إطلاق حرية التعبير واحترام الكلمة الصادقة. وتنمية الديمقراطية في المجتمع، لا يمكن أن تحدث في ظل محاصرة الأقلام وحجزها، ومضايقة الصحف وتقديمها للمحاكمة وتلبيسها شبهات جنائية. فهناك حريات أربع كمؤشر للمجتمع الديمقراطي بسطها الرئيس الأمريكي الأسبق روزفلت، وهي: 1- حرية التعبير 2- حرية الاعتقاد 3- التحرر من الخوف 4- التحرر من العوز.

فإعلان الديمقراطية والتعددية الحزبية والحرية الفكرية والثقافية، ليس كافياً للانتقال صوب المجتمع الديمقراطي، إن لم يتواكب مع ذلك ممارسات سليمة تحمل عمق ومضمون روح الديمقراطية الحقة، فلا تقاس الديمقراطية، فقط، بعدد الأحزاب السياسية، وعدد الصحف، والانتخابات، وشعارات حقوق الإنسان، إنما تقاس بمدى ما تقدمه من تنمية اقتصادية

واجتماعيـة وثقافيـة، بمدى ما تقدمه من تنمية بشـرية، وما تمنحه من حريات وحقوق للمجتمع.

لعلنـي لا أجانـب الصـواب إن قلـت: إن صحيفة «الأيام»، تعتبر نبراسـاً مضيئاً في فضاء الصحافة اليمنية، ومدرسـة فريدة في فن الصحافة والإخراج الصحفـي، والصياغـة الخبريـة والتوظيف الحـاذق للكلمة، والعطـاء المبدع والمتجـدد فـي الشـكل والمضمون فهـي تجيد فـن التقاط الخبـر وصياغته، وبحـس فني تروي عطـش القراء بمقالات صحفية معتبـرة ومثيرة في الوقت عينه. إنها تتميز بحراك نوعي وجرأة وشجاعة وانفتاح واعٍ ومتزن. فلها نكهة خاصة ومتميزة، وتجد لها وقعاً حسناً في نفوس القراء، وتلتصق بشدة بحركة إيقاع الشارع اليمني، وتختلط بعامة الناس، بمن مسّتهم البأساء والضراء على أفضل وجه مستطاع.

إن الدفاع عن «الأيام» وعن الناشـرين هشـام وتمام باشراحيل، هو دفاع عن حرية الكلمة، هو دفاع عن الانتظام العام والشفافية والنقاء.

2- الصحافة وأهل الشوكة:

منذ صدور أول صحيفة في العالم في فرنسـا عام 1529م، وفي المنطقة العربية في مصر عام 1828م «الوقائع المصرية»، وصحيفة صنعاء عام 1879م، وصحيفـة عـدن عام 1900، كان الهاجس الأكبر المسـيطر علـى أهل القوة.. كيفية قص أجنحة الصحافة وتدجينها وجعلها مشلولة الحركة وبطيئة المشي وقليلـة الأنـوار حتى لا تضـيء المناطق المظلمة في دهاليـز الروح ولا تفتح مضائق الأذهان.

فالصحافة الحُرة واجبها تعرية الأوضاع وكسـر شـرنقة الأوهام وكشف المسـتور وملامسـة أصابع الحقيقة ودعم النماء والقيـم المدنية والأخلاقية، ومحاربـة الفسـاد والاعتسـاف والانهيـار الأخلاقـي والمجتمعـي، وتحذيـر

الغافلين من مغبة التسويف والمماطلة في إصلاح ما أفسده الدهر قبل أن تغرق السفينة وتشتعل الحرائق الصغيرة والكبيرة في أحشاء وأطراف المجتمع. إنها تعطينا البصيرة الواضحة إننا نقف اليوم على شفير الهاوية.

فثمة بون شاسع بين التحريض والتنوير، فالتحريض بث الأقاويل والشائعات والأخبار الكاذبة عن وقائع وهمية، الهدف منها تزييف الوعي وصناعة الخيبة والألم والخوف والهزات النفسية وإشعال الفتنة وإرباك أجهزة المجتمع والمنظمات المدنية عن القيام بدورها التنموي والضبطي والتنويري لعامة الناس.

أما الضغط على جهاز الإنذار وتنوير العقول وفتح أعين الهيئات النظامية والأفراد على الأعطاب والتحذير من خطورة الأخطاء وتكرارها، والتأكيد على ضرورة إصلاح الزلل الذي ينشأ في غميس الواقع ووضع الإصبع على الجرح، فهذه أمور جليلة تصب في خانة الخير العام وتجنبنا الانحراف عن جادة الفضيلة.

حرية التعبير تتقاطع مع العقلية الشمولية والمسالك الهمجية واستعراض عضلات القوة، وتتقاطع مع أساليب التضييق والحجر وكتم الأنفاس ومضايقة أهل العقل والرأي والمنتمين إلى رحم الكلمة وإنزال العقوبات بحقهم بطرق خشنة ومتعسفة تجرح روح الحرية والفضاء الديمقراطي العام.

فالمشكلة التي تفترس حياتنا، أن الحرية التي نمارسها تعطى بيد وتصادر باليد الأخرى تحت حجج ومصوغات تندرج ضمن إطار فلسفة التبرير، ويتم التلاعب بالأنظمة والقوانين حسب الأهواء.

وتنشرح قلوب المرضى عندما تستجدي بعض الأصوات حقوقها، فهذه الأفئدة جذلة عندما تضرب قلوب الناس الذلة والمسكنة، وتبح أصواتها وهي تصرخ، كما صرخ ذلك الزنجي المقهور في الولايات المتحدة الأمريكية في منتصف القرن التاسع عشر:

«أعطونا حقوقنا.. عاملونا كبشر، نفذوا مبادئ إعلانكم الخالد»[3].

إننا نعيش حياة كاريكاتورية وتراجيدية مؤلمة نجد تعابيرها في مفردات حياتنا اليومية، ولعل أصدق تعبير، هو ما أقدم عليه الرسام الكاريكاتوري المصري بهجت عثمان، عندما اعتزل الرسم احتجاجاً على الأوضاع المتردية في المنطقة العربية، حيث قال إن حياتنا «أكثر إضحاكاً من أي كاريكاتير أرسمه»[4].

3- حجب ومصادرة الأيام:

قد يجهل البعض أن بقاء «الأيام» والصحف والمجلات الحرة على قيد الحياة هو تعبير ساطع عن ديمقراطية نابضة بالحيوية، ونقد المجتمع ومؤسساته ينفع ولا يضر، يقوي ولا يضعف، يصلح ولا يفسد حياة الناس، ويقوي من مدماك الممارسات الديمقراطية السليمة.

فهذه الصحيفة التي تأسست على يد الأستاذ/ محمد علي باشراحيل عام 1958م، أوقفت بقرار من وزير الإعلام حسن اللوزي بتاريخ 5 مايو 2009م، بمعية بعض الصحف (النداء، الشارع، المصدر، الديار، الوطني)، وعادت كل الصحف للاشتغال في فضاء الصحافة عدا «الأيام» التي ما يزال الحجر قائماً عليها بصورة مبهمة وانتقائية.

«يبلغ عدد موظفي «الأيام» 164 موظفاً في عدن، إلى جانب 48 مراسلاً خارج م/ عدن والمحافظات الأخرى، وتملك مكتبين رئيسيين في صنعاء والمكلا، بالإضافة إلى عشرة مكاتب فرعية في المحافظات... وتبلغ عدد نقاط البيع التي توقف فيها توزيع الأيام 648 نقطة بيع، و1185 من الباعة المتجولين»[5].

فلو افترضنا أن كل فرد يعمل في «الأيام» أو يعتاش بطريقة غير مباشرة من الصحيفة (2045)، يعيل أسرة مكونة من خمسة أفراد، فإن الخاسرين من

وراء توقيف «الأيام»، يقدر بـ (10225) مواطناً، ما يفاقم الفقر والبطالة في المجتمع، ويضيف حمولة ثقيلة على ظهر المجتمع وأفراده الذين يعيشون بوجه عام على شيء من القلة والشظف. حيث أشارت دراسة حديثة إلى (تراجع مستوى دخل 4 و74٪ من الأسر اليمنية خلال العام الجاري مقارنة بمستوى دخلها خلال العام الماضي)[6].

وفي نفس المنحنى، فإن خسارة الأيام خلال أربعة أشهر (مايو، يونيو، يوليو، أغسطس 2009)، تقدر بـ756 مليون ريال (خسارة شهرية تقدر بـ 181 مليوناً و800 ألف ريال). أما خسارة مؤسسة الأيام من 5 يناير 2010م – 31 أكتوبر 2011م، حسب ما أوردته صحيفة القضية في عددها 64، فهو على النحو التالي[7]:

- مبيعات «الأيام» السياسي – الخسارة المقدرة 3,4 مليار ريال يمني.
- مبيعات «الأيام» الرياضي – الخسارة المقدرة 828 مليون ريال يمني.
- إعلانات صحيفة «الأيام» السياسي – الخسارة المقدرة 2,8 مليارات ريال يمني.
- إعلانات صحيفة «الأيام» الرياضي – الخسارة المقدرة 664 مليون ريال يمني.
- قيمة الأعمال التجاري والطباعة – الخسارة المقدرة 450 مليون ريال يمني.
- توزيع الصحف والمجلات الأجنبية – الخسارة المقدرة 224 مليون ريال يمني.
- الدورات والبرامج والأنشطة والأعمال – الخسارة المقدرة 6 ملايين دولار أمريكي.

وبالرغم من أن اليمن تزخر بكم هائل من الصحف والمجلات، حيث

يصـدر فـي الجمهوريـة اليمنيـة ما يقـارب مـن 140 صحيفة ومجلـة، إلا أن «للأيام» نكهة خاصة وفرادة مميزة، ولا توجد صحيفة يمنية بقوة وتأثير الأيام حيث تصدر يومياً 75000 نسخة، ولهذا انهالت عليها المؤامرات وكثر الحقد عليهـا لأنهـا وضعت الأصبع على الجرح وصنعت رأياً عاماً مناهضاً للفسـاد والتسيّب والفوضى القاتلة.

وليس من الإنصاف حجز أعدادها وحجبها عن الصدور والسكوت عن الممارسات المتعسفة ضد «الأيام» والاعتداء عليها بقوة السلاح مثلما حدث فـي 13 مايـو 2009م، وقبـل ذلك في صنعـاء يوم الثلاثـاء 12 فبراير 2008م. وليـس من العدالة أن يظـل أحمد عمر العبادي، الذي دافع عن مبنى «الأيام» في صنعاء بشجاعة نادرة وبروح المروءة والنبل والإنصاف في السجن.

وثمة سلسلة من المرارات تجرّعتها «الأيام» نذكر منها:

1. 12/ 2/ 2008م – هجـوم علـى مبنـى الأيـام فـي صنعـاء واعتقـال حارسها أحمد عمر العبادي المرقشي.
2. 1/ 5/ 2009م – متقطعـون فـي المـلاح م/ ردفان يصـادرون أعداد الأيام.
3. 3/ 5/ 2009م – مصادرة أعداد الأيام في نقطتي العلم ودار سعد.
4. 5/ 5/ 2009م – قرار من وزير الإعلام بإغلاق صحيفة الأيام.
5. 13/ 5/ 2009م – هجوم مسلح على الأيام من قبل الأمن.
6. 4/ 1/ 2010م – هجـوم مسـلح مـن قبل الأمن على مؤسسـة الأيام واعتقال هشام باشراحيل ونجليه هاني ومحمد وآخرين.
7. 24/ 3/ 2010م – الإفراج عن الأستاذ هشام باشراحيل من السجن.
8. 9/ 5/ 2010م – الإفراج عن نجلي هشـام باشـراحيل هاني ومحمد من السجن.
9. 12/ 5/ 2010م – توجهات رئاسية لم تنفذ بفتح صحيفة الأيام.

10. منعت المراجع المسؤولة في عام 2010م تجديد جواز سفر الأستاذ هشام باشراحيل ومنعته من السفر وبعد حين من اللف والدوران تم تجديد الجواز وسافر هشام للعلاج في الخارج.
11. 11/ 7/ 2010م – محكمة جنوب غرب صنعاء تحكم بإعدام حارس الأيام أحمد عمر العبادي المرقشي.
12. 25/ 6/ 2011م – محكمة الاستئناف تقر حكم إعدام أحمد عمر العبادي المرقشي.

يقول جيم بوملحة – رئيس الاتحاد الدولي للصحفيين:

«لن نقبل باضطهاد الصحفيين ولا باعتقالهم أو فرض الرقابة عليهم بأي شكل من الأشكال... إن هذه البلاد لن تسير في طريق الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان إذا استمر اضطهاد الصحفيين والاعتداء على حقوقهم»[8].

ولن تستقيم حرية الصحافة والكلمة النظيفة طالما يستمر الحجر والحجز والإغلاق لصحيفة «الأيام»، ولن تستقيم حرية الصحافة في أجواء يخيم عليها التضييق والخنق المحاصرة لصحيفة «الأيام» وتجرجر «الأيام» بصورة متعمدة إلى المحاكم بتهم كيدية متعسفة.

الصحافة الجادة مهنة المتاعب قد تؤدي بأهلها إلى المهالك، والشريف في هذا الحقل تُقطع أنامله، وتُطحن عظامه، ويُصادر صوته، وتُفقأ عيناه، ويُطارد في قلب الليل وخبيص النهار بالباطل والهوى لأنه بؤرة نابضة ومتوهجة بالحق، على عكس التافهين بين يدي صاحبة الجلالة «الصحافة» الذين تُزين أسماؤهم وتُقام لهم حفلات وولائم التكريم ويتحصلون على النياشين والشهادات والهدايا والعطايا ويأكلون من الموائد الدسمة لتحسين صورة الوجع الموحش والتعاسة والحزن، لتزيين صورة الحياة الأليمة المفعمة بالطنين والفهلوة والتهويش.

أصحاب الصحف والأقلام الحرة والعقول النيرة يعيشون حياة قلقة

مترعـة بالمخاطـر كمـن يذهب إلـى رحلة مجهولـة العواقب ويمشـون فوق صفيح ساخن وعلى أسلاك خطرة ومرهونة حياتهم بجرة قلم.

فصحيفـة «الأيـام» صوت من أصـوات الحق في فضـاء الصحافة، تفتح شـهية القارئ على القراءة وتعكس الواقع بمهنية نزيهة وعالية الجودة بمنأى عـن المغالطات المنطقية والزائفـة. فحرية الصحافة دون «الأيام» والأصوات الشريفة الأخرى لوحة ديكورية معطوبة، وضرب من القوقعة الفارغة الخالية من المهنية النزيهة وفن التشويق الصحفي.

سـنقع في وهم مريض لو اعتقدنا أنه بمصادرة الصحافة الحرة والكلمة النظيفة سنعالج أمراض ومعضلات الواقع الكئيب.

أيـن صحيفـة «الأيام»؟ أيـن الأخبار التـي تنعش الذاكـرة؟ أين جرعات المعرفة ورعشـة التسـاؤل التي تسري في دورتنا الدموية عندما نقرأ «الأيام»؟ أين المقالات المشـحونة بالصدق وأين الاسـتطلاعات اللذيذة؟ وأين الخبر الطازج وأين الصور المدهشة؟ وأين التكنيك الصحفي اللبيب؟

أيـن أصـوات الباعـة الصغار واليافعين التي نسـمع صداهـا في الفضاء: الأيام.. الأيام.. الأيام...؟

أيـن الصباحـات الندية.. صباح «الأيام»؟ أين «الأيـام» التي تهز وجداننا ومشاعرنا وتتغلغل بسلاسة في عقولنا؟

أين «الأيام» التي تتخاطفها الأيدي وتلهج بها الألسن؟

أشـعر بعطـش لقـراءة «الأيام»، أشـعر بلوعة، أشـعر بشـوق لا حدود له لـ «الأيام».

ويظـل السـؤال منتصبـاً ينهـش عقلي: متى سـتخرج «الأيـام» من جوف الليل؟ متى ستنقشع الغيوم عن «الأيام»؟

إن حجـب صحيفة «الأيـام» ومصادرة أعدادها ومنعها عن الصدور فعل مشـين، وتصرف خبيث ومتعسـف، لا يؤدي إلى السـكينة وإنما إلى سـخونة

الفضاء العام وبذلك تنكشف زيف الكلمات والشعارات المجلجلة.

فالأخوة في مؤسسة «الأيام» وعلى رأسهم هشام وتمام باشراحيل يؤمنون بالرسالة العظيمة للصحافة والتي يأتي في صدارتها تنوير العامة وكشف الحقائق بشفافية، فلا تستقيم حرية الصحافة في فضاء الخوف والمصادرة والمنع والتهديد وتقطيع أوصال الحقيقة و»من يعيش في خوف لن يكون حراً أبداً» «هوراس»[9].

والهم الذي يؤرق ضميرنا: لماذا العنف والتغليظ والقسوة والبطش والاعتساف والتهور في استخدام القوة ضد الصحف وأهل الرأي وحملة الأقلام النظيفة؟!

«فيندهش المرء كثيراً من أولئك الذين لا يألون جهداً في تعقب أصحاب الأقلام والتربص بهم، في الوقت الذي لا يرفعون صوتاً ضد الذين ينهبون خيرات البلاد، أو ضد الذين يستبدون بالناس أو ضد الذين أفقروا الجموع، أو ضد الذين يفرطون بالسيادة الوطنية)[10].

من العار أن تبقى صحيفة الأيام مقموعة تطاردها الرصاصات وتنهشها الكلاب وتخنقها القبضة الحديدية وتُعذب وتُقتل باسم القانون والانتظام العام.

فعلى المراجع المسؤولة في وزارة الإعلام والحكومة الموقرة أن تعيد الاعتبار لصحيفة الأيام. فصحيفة الأيام مظلومة قُمعت بوحشية لأنها صوت مدني نظيف.

إننا نصرخ مع كل الشرفاء بصوتٍ عالٍ: أرفعوا أيديكم عن الأيام! فلا بد أن يُعاد الحق إلى نصابه ولا بد أن تعود صحيفة الأيام إلى الصدور دون قيود ومماحكات وبدون سياسة لي الذراع وقعقعة السيوف وقطع الألسن. إننا ننتظر بفارغ الصبر عودة صحيفة الأيام التي اخترقت جدار الصمت ورفعت راية الثورة قبل غيرها من الخيرين.

الهوامش

1. د. سمير عبد الرحمن الشميري، في فضاء الكلمة الحرة، (صنعاء: مركز عبادي للدراسات والنشر، 2008م)، ص 72–73.
2. أنور الجندي، المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر في مائة عام 1840–1940م (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت)، ص 145.
3. راسل جاكوبي، نهاية اليوتوبيا، ترجمة: فاروق عبد القادر، (الكويت: سلسلة كتب عالم المعرفة 269، مايو 2001م)، ص 181.
4. العربي (الكويت)، العدد 538، (سبتمبر 2003م)، ص 77.
5. الوطني (عدن)، العدد 50، (2/ 7/ 2009م)، ص 14.
6. الحياة (صنعاء)، العدد 5، (27/ 8/ 2009م)، ص 15.
7. جهاد محسن، «القضية» ترصد الخسائر التي تكبدتها مؤسسة الأيام»، القضية (عدن)، العدد 64، (31/ 10/ 2011م)، ص 5.
8. كلمة جيم بوملحة – رئيس الاتحاد الدولي للصحفيين في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الرابع لنقابة الصحفيين اليمنيين، يوم السبت 14/ 3/ 2009م. الأيام (عدن)، السنة 28، العدد 5668، (16/ 3/ 2009م)، ص 8.
9. د. سمير عبد الرحمن الشميري، صحيفة «الأيام» التي تهز قلوبنا، الطريق (عدن)، السنة 17، العدد 630، (10/ 8/ 2009م)، ص 8.
10. ناصر عراق، حجازي ومحنة المبدعين، دبي الثقافية (دبي)، العدد 28، (سبتمبر 2007م)، ص 162.

ملحقات

مقالات تضامنية مع صحيفة «الأيام»

ملحق رقم (1)

لو كان لي سلطان لأطلقت سراح هشام باشراحيل

أشعر بغصة ألم في حنجرتي عندما أرى المثقفين وحملة الأقلام ورؤساء الصحف والمجلات يُجرجرون إلى المحاكم ويتعرضون للمهانات والإذلال والخطف والقمع المادي والرمزي ويُحكم عليهم بالسجن وتكميم الأفواه وكسر الأقلام.

لو كان لي سلطان لأطلقت سراح الأستاذ/ هشام باشراحيل (رئيس تحرير صحيفة الأيام) ونجليه هاني ومحمد من السجن، لو كان لي سلطان لأوقفت محاكمة الصحفيين وحفظت آدميتهم وجعلتهم يعيشون بمنأى عن قبضة الخوف وزمهرير الوحشة وذل الحياة ومهانات القمع وكابوس القهر.

فالأستاذ/ هشام باشراحيل، يعاني من مرض القلب «لقد أجرى عملية القلب المفتوح»، والسكر، والضغط، وهشاشة العظام، وضعف البصر، وأمراض أخرى، ويعاني من مضض روحي.. فليس من العزة والشهامة الانقضاض على رجل جريح.

ماذا يعني أن نحاكم الصحفي على رأيه، عندما يحاول هز عرش التحجر، ويبتعد عن العقليات القديمة المدمرة لروح التسامح والحوار والاجتهاد؟

فالحكم على الأستاذ أحمد المغلس (رئيس تحرير الثقافية) بثلاثة أشهر سجن مع وقف التنفيذ وإيقافه من العمل لمدة سنة كاملة، والسجن سنة كاملة للكاتب معاذ الأشهبي، أمر يحتاج إلى تمحيص ومراجعة، وقبل ذلك

بقليل ولأول مرة في تاريخ الصحافة اليمنية يصدر حكم ضد قلم نسائي جريء حاول أن يخترق العتمة ويقاوم فساداً عميماً في المجتمع ويشير بسبابته إلى الجرح والخلل العضوي والبنيوي والأخلاقي وإلى الكائنات الجلفة التي تخطف اللقمة من أفواه الفقراء، فقلم المثقفة أنيسة محمد علي عثمان لا يساير الأهواء والشهوات ومشحون بالمعاني والدلالات التنويرية ودقة الاستبصار.

وكم أنا حزين عندما أرى القتلة وقطاع الطرق وناهبي الأموال طلقاء لا يمسهم السوء ويتمتعون بحرية مطلقة.

أُصاب بكمد وتوجع عندما تتدهور حرية الكلمة والنهضة العقلية وينتشر التعصب والجهل والاستبداد، (ما يؤذينا، ما يمزقنا، ما يبعثرنا، هو النظر إلى الخلف، أن نتطلع إلى الوراء ونفكر فيما جرى لنا، فلا نستطيع أن نقف للتأمل، ولا نقدر على التقدم إلى الأمام، فندور حول أنفسنا، نتقصّى هنا وهناك أثراً لجريمة لم نرتكبها، ونتفحص دليلاً على ماضٍ سحيق، كأننا عمال آثار في حفريات البارحة) «يحيى جابر».

إننا محاصرون بجهل وفقر وتعصب وتكفير وخوف، إننا محاصرون بترسانة من العادات والعقد الجاهلة، العادات القاتلة لحرية الفكر والكاتمة للنفوس.

وأكثر ما يدميني الرقابة الخشنة والتلصّص الأرعن والقمع الفكري البليد ومصادرة الكلمة الجسورة، فلا نريد العودة إلى ذلك الزمن الذي عبّر عنه الشاعر محمد محمود الزبيري:

الناس بين مكبل في رجله قيد وفي فمه البليغ لجام
والاجتماع جريمة أزلية والعلم إثم والكلام حرام

إن العيش في مناخات القهر والظلم والعسف يجلب أضراراً جسيمة للمجتمعات ويترك فسحة ذهبية للنهب والقسوة والمكر والخداع والتكفير

وشطحات اللامعقول والتلذذ بفاكهة الفساد والعنجهية والتعالي الأبله.

لقد قال مرة الأستاذ/ سعيد يقطين (المثقف العربي مهمش ومهشم دائماً. إذاً المطلـوب منـه أن يمثل دور الشـاعر المداح، وأن يكـون كالبحتري الذي كان يمشي في موكب من العبيد. أما إذا كان غير هذا، وانخرط في السياسة، فلينتظر مصير الشـعراء الذين نُكل بهم، أو تعرضوا للحرق أو الإعدام لأنهم أعداء للحاكم وزنادقة والتهم المسوغة للحكم جاهزة).

يقـف المثقـف والصحفي اليوم بين ناريين محرقتين، نار العسـف، ونار التكفيـر، فالمتربصـون كثيرون أعـداء النور يكشـرون بأنيابهم صوب الوجوه المستنيرة، إننا نعيش في زمن صعب معبأ بالإرهاب والعنف والتخويف وهذا ما عبر عنه الشاعر صلاح عبد الصبور عندما قال:

هذا زمن الحق الضائع

لا يعرف فيه مقتول من قاتله ومتى قتله

ورؤوس الناس على جثث الحيوانات

ورؤوس الحيوانات على جثث الناس

فتحسّس رأسك

فتحسّس رأسك

لمـاذا لا ننظـر إلـى الأمـام؟ ولمـاذا لا نسـامح؟ ولماذا لا نوسـع نافذة الحرية بدلاً من تضييق حجمها وجعلها كثقب إبرة؟ ولماذا لا نشجع العقول المتبصـرة ونهجر الفضاء الخانق للحريات؟ لماذا لا نغادر أسـوار الشـمولية ونكف عن إهانة العقل وقص أجنحة الكلمات المشعشعة في دهاليز الظلام؟ ولماذا يقبع الأسـتاذ هشام باشـراحيل ونجلاه هاني ومحمد في السجن دون محاكمـة؟ وإلـى متى سـتظل صحيفة «الأيام» و»الطريـق» مغلقتين؟ وهل من محاكمة عادلة؟

علينـا أن نناصر أصحاب الأقلام الشـريفة وحملة الأفـكار النبيلة، علينا

أن نتضامن مع «الأيام»، والأستاذين/ هشـام وتمام باشـراحيل ومع «الثقافية» والأسـتاذ/ أحمد المغلـس والكاتب معاذ الأشـهبي، والأسـتاذ/ أيمن محمد ناصـر «رئيـس تحرير صحيفـة الطريق»، والأسـتاذ/ محمد المقالح، وشـفيع العبـد، علينـا أن نتضامن مع صلاح السـقلدي، وأنيسـة محمـد علي عثمان، وفؤاد راشد، والمحامي محمد ناجي علاو، والدكتور حسين مثنى العاقل... وغيرهم، لأن (الذئب لم يكن ذئباً لو لم تكن الخراف خرافاً) «وليم شكسبير».

ملحق رقم (2)

هل يحق لهشام باشراحيل الحصول على بطاقة هوية وجواز سفر؟

صحيفـة «الأيـام» صحيفة حافلة بالنجاح منـذ أن بدأت خطواتها الأولى علـى يد الأسـتاذ/ محمد علـي باشـراحيل 1958م، وخلال مسـيرتها المترعة بالفلاح واجهت صعوبات لا تُحصى ومشت فوق صفيح ساخن تنشد الحرية والأمل والنماء للجميع.

مارسـت الحريـة بوعـي ولم تكتـرث بالدسـائس والممارسـات الخبيثة وبلغت حداً بعيداً في العمق والمهارة الصحفية، فأصبحت ملء السمع والبصر جميلة الجرس عالية اللذة، رغم أنها محاطة بحقول شائكة من الألغام.

ولمـا لا أضيـف أن «الأيـام» تحملـت الحماقـات والضربـات المؤلمـة برباطـة جـأش، لأنهـا كانـت تكشـف المستور وتعـري الأوضـاع المعطوبة بموضوعية وبمهنية عالية الجودة، وثمة سلسلة طويلة من المرارات تجرعتها «الأيام» التي أغلقت بقرار من وزير الإعلام في 5 مايو 2009م. ورغم وجود توجيهـات رئاسـية بفتـح صحيفة الأيام، وإنهاء كافة الملفـات العالقة، إلا أنه حتـى اللحظـة لم تعـاود الصدور وما زال حارسـها في السـجن (أحمد عمر العبادي المرقشي)، وفي عين الوقت يتعاظم مرض الأستاذ/ هشام باشراحيل، ويتعرض لأرق وسهاد موجع وأحكام قاسية ومتسرعة ولابتزاز غير مشروع.

والمحزن أن المراجع المسؤولة رفضت صرف بطاقة هوية وجواز سفر للأسـتاذ هشـام باشراحيل وعائلته ومُنع من السفر إلى الخارج للعلاج، فحق

السـفر والعلاج حق ضمنه الدسـتور اليمني والمواثيق العالمية، ولقد جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان 1948م:

- لـكل إنسـان، في كل مكان الحـق في الحياة والحريـة وفي الأمان على شخصه.
- لكل إنسان، في كل مكان، الحق بأن يعترف له بالشخصية القانونية.
- لكل فرد حق في حرية التنقل وفي اختيار محل إقامته داخل حدود الدولة.
- لكل فرد حق في مغادرة أي بلد بما في ذلك بلده، وفي العودة إلى بلده.

تعيش أسـرة هشـام وتمام باشـراحيل حالة من العزلة إن لم نقل الإقامة الجبرية غير المعلنة. فهشـام باشـراحيل تفتك به الأمراض الخطيرة (القلب، السـكر، الضغط، هشاشة العظام، ضعف البصر، ولا يقوى على النهوض من الفراش...)، ويعاني من انقباض الصدر ووجع القلب وكيد الزمان.

يكتـوي بنيـران الأصدقـاء الذيـن أداروا ظهورهـم «للأيـام» وتنكـروا للصداقات، فحالهم يشبه قول الشاعر:

إنـي لأغمـض عينـي ثـم أفتحهـا   علـى كثيـر ولكـن لا أرى أحـداً

أيـن نقابة الصحفيين ومنظمـات المجتمع المدني والأحزاب ومنظمات حقوق الإنسـان؟! لقد قصروا في السـؤال عن هشـام وتمام باشراحيل وهاني ومحمد وأحمد عمر العبادي المرقشـي، لقد قصروا في السـؤال عن صحيفة "الأيام".

فهشـام باشـراحيل تنهال على رأسـه المطارق وتُوجه إليه طعنات قاسيه لكرامته، إلا أنه لا يزال شامخاً لا يتلون ولا يغير قبعته ومكياج وجهه.

هل يحق لهذا الرجل الحصول على بطاقة هوية وجواز سفر؟ هل يحق له السفر للعلاج؟ أم أن الموت قدره المحتوم في صومعته «الأيام».

ملحق رقم (3)

«الأيام» صوت مدني مقموع

مـن يـزور الرزميـت (كريتر – عدن)، سـيرى مبنى مؤسسـة الأيام قاعداً فوق كرسـي الهدوء مشـوهاً بالرصاصات وآثار العدوان شـاخصة أوضح من الشمس في رابعة النهار. ومثلما تم الاعتداء بوحشية على صحيفة الأيام، يتم الاعتداء بهمجية على مدينة عدن، حيث أدموا جسـد هذه المدينة بتحرشـات أليمـة تفـرض الظلمة على كل شـيء، فطمروا البحر وابتلعـوا الرمل وزرعوا الشـوك وخدشـوا روح المدنيـة في الصميـم وأهانوا قاطنيها وأُسـيء معاملة البشر حتى صاروا على حافة البكاء يعيشون في دوامة من العذاب.

ولعـل أبـرز مثال على ذلك البسـط الخشـن والمتوحش علـى المتنفس السـياحي الواقـع مـا بيـن عدن مـول – وفندق ميركـور بالاسـتناد على القوة الغاشـمة وعلاقـة البغي والعـدوان في ظل نظام فج ووضيع قتل البسـمة في الشـفاه ودمر الانتظام العام ومفردات التمدن وحطم مشاعر الدفء والسكينة والمحبـة والوداد وحول حياتنا إلى حلبة للصراع وهتك الأعراض والبلطجة والفسق والجهل والكراهية العمياء.

عديدة هي المحن والمناوشات والدسائس التي عاشتها وتعيشها صحيفة «الأيـام»، فلقـد حوربت بشـتى الطرق والوسـائل الأخلاقية وغيـر الأخلاقية واسـتخدم أهـل القـوة الأسـلحة المباحـة وغيـر المباحـة وتعرضـت للقمع والتهميـش والمصادرة والإفقـار المتعمد والتدمير المادي والمعنوي من قبل صُنـاع الخراب والقـوة المعطلة للنهوض الحضاري، وجُلدت بسـياط ألفاظ حادة ورُشقت بالتهم والأباطيل والشائعات.

إننا نقدم دعوة حارة للتضامن مع مؤسسة الأيام، دعوة حارة للتضامن مع السجين المعذب أحمد عمر العبادي المرقشي الذي حكمت عليه المحكمة بالإعدام.

إنـي أشـعر بثقـة كبيـرة أن الأيـام سـتنتصر، فانتصارها لن يكون سـهلاً، فالأسـتاذ هشـام باشـراحيل صاحب الصيت الطيب والمكانة المرموقة، يكره الانتصار السـهل، وشـقيقه تمام لا يستسـلم للباطل، فمؤسسـة الأيام ترفض الجلوس تحت مظلة المذلة والهوان. لقد رفضوا العسـف والخنوع وحملوا فأس التغيير ودفعوا ثمناً باهظاً مادياً ونفسياً وصحياً لتحطيم العتمة الدامسة.

فصحيفة الأيام مظلومة سومها العذاب لأنها انخرطت في سؤال الحرية والتنميـة المدنيـة وقاومـت الأجهـزة ومخالـب العسـكر والفسـاد واخترقت حجـاب الخـوف، فـلا بـد أن يُعاد الحق إلـى نصابه ولا بـد أن تعود صحيفة الأيـام إلـى الصدور دون قيود ومماحكات وبدون سياسـة لي الذراع وقعقعة السيوف وقطع الألسن.

إننـا ننتظـر بلوعة حـراء عودة صحيفـة الأيام التي ثقبت جـدار الصمت ورفعت راية الثورة قبل غيرها من الخيرين، ونطالب بتعويضات مادية ومعنوية لمؤسسة الأيام. فثمة أسئلة تعصف بذهني في البرهة الراهنة:

أيـن القضـاء النزيه؟ وأين الحكومة الموقرة؟ وأين مبادئ ثورة الشـباب السلمية التي جاءت لرفع الظلم عن كاهل المظلومين؟ وهل ما زالت القيود والأقفـاص الصغيـرة والكبيرة تطوق الأعناق؟ وإلى متى سـيظل قانون القوة والغطرسة والغرور يخنق صوت الأيام ويتحايل على الإنصاف وبيت العدل؟

لا تجعلونا نقول كما قال الشاعر المصري أمل دنقل (1940–1983م):

لا تحلموا بعالم سعيد

فخلف كل قيصر يموت: قيصر جديد.

ملحق رقم (4)

ظلم يخنق صحيفة الأيام

الذين يرفضون السير في طريق النفاق ولا ينخرطون في موكب الولاء للسلطان، يتعرضون للبطش والتنكيل ولعذابات بئيسة ومعاملات دنيئة أكثرها بعداً عن الكرامة والآدمية، مثل:

الموت أو الاغتيال، أمراض وإعاقات مستديمة، المؤاذاة والتطفيش، التهميش، التهديد والوعيد، الاعتقال والسجن، التعذيب، الإقصاء من الوظيفة أو الفصل من العمل (خليك في البيت)، المحاربة في الرزق والتضييق ومصادرة الأموال والممتلكات بطريقة قاسية، الاعتداء الجسدي والعنف الرمزي والمعنوي، الاتهامات الكيدية والتجريم، المحاكمة الظالمة، التشكيك في الهوية، المنع من التنقل والسفر، سحب ومصادرة وثائق الهوية الشخصية والعائلية، عدم تجديد جواز السفر والبطاقة الشخصية والعائلية، القذف والإهانات والفبركة والنميمة والتحرش بأفراد العائلة ومضايقتهم، المراقبة الصارمة للحركات والعبارات والتصرفات والإيماءات الجسدية والروحية، فض مغاليق المراسلات واقتحام المحرمات، التنصت على المكالمات الهاتفية، اختراق البريد الإلكتروني وتدمير المحتويات، زرع أحاسيس الفزع والوحشة والرعب في قلوب الشجعان، تقديم الإغراءات طبقاً لمنهج إفساد من لم يُفسَد.

فكل هذه الوسائل والأساليب الممقوتة تعرض لها المرحوم هشام باشراحيل وشقيقه تمام وأبناؤه هاني ومحمد وباشراحيل وعائلته الكريمة

وأسرة صحيفة «الأيام»، لأنها صحيفة غير جبانة ولا متملقة.

عليّ دين أخلاقي أود الجهر به ألا وهو، أنه من الصعب السكوت عن الظلم الذي لحق بصحيفة «الأيام»، التي عانت من الأذى والويلات والاعتداءات الغاشمة والتقارير والوشايات الحاقدة، وارتكبت الأجهزة أخطاء بشعة ضد صحيفة «الأيام» ودمرت صوت الصحافة الحُرة وخربت وأفسدت حرية الرأي، ذلك لأن الأيام كانت تحذر من مخاطر الطغيان والشمولية وتشير بسبابتها إلى الخروم والسلبيات وإلى اتساع رقعة الفساد المتوغل في عصب الدولة. لقد تصرفت الأيام بمهنية عالية وانتصرت أخلاقياً غير آبهة بالأراجيف والأكاذيب السامة ولا بنيران الطلقات القاتلة التي وُجهت إلى رأسها.

سيدي الرئيس: هناك جُبناء وأوغاد يدافعون عن الأيام ويطعنونها من الخلف، إنهم يمارسون سياسة الثعالب، لأنه كما قال الشاعر أحمد شوقي:

مخطئ من ظن يوماً   أن للثعلب دينا

إننا نحب ترابنا الوطني وأهلنا ولا نريد أن تموت النبضات الحية أمام أعيننا، فأخلاقيات "الأيام" ونهجها يلم الشمل ويوحدنا على الهم العام ويكشف العيوب والأمراض التي تمزق نسيج وحدة المجتمع على عكس نهج العصابات المدمرة للعمران، فالفاسدون يحملون جرثومة الفناء لكل ما هو طاهر ونقي في حياتنا ويقودوننا إلى مزيد من التشظي والتفتت.

إن الوقت يمر بسرعة وننتظر رد الاعتبار «للأيام» نريد العدالة والحق، نريد تمزيق حبال الظلم التي تطوق عنق صحيفة «الأيام».

لقد فعلت الحكومة خيراً عندما قررت تعويض صحيفة «الأيام»، ونتمنى أن ينفذ هذا القرار بأسرع ما تيسر من الوقت.

سيدي الرئيس: نريد منك البسالة والشجاعة وكلمة حق تعيد «للأيام» رونقها وكرامتها في زمن غير أصيل، وأن تكون أمثولة في المدافعة عن الحق

ونصـرة المظلوميـن، فمن العيب في فترة رئاسـتكم أن تظـل صحيفة «الأيام» مغلقة ومجرجرة في المحاكم ومقموعة، قابعة فوق الأشواك والمسامير، ومن العيـب أن يظـل المظلوم أحمد عمر العبادي المرقشـي مسـجوناً على خلفية قضية كيدية تعرفون تفاصيلها وأسرارها منذ 12/2/2008م.

نريد أن تنتصر إرادة الشجعان على إرادة الثعالب وإرادة الحق والقانون علـى إرادة الفوضـى والفسـاد وإرادة الحريـة علـى إرادة القمـع، فالقوة كما يقـول الزعيـم الهنـدي المهاتما غاندي: «لا تأتي من الإمكانات الجسـدية بل من عزيمة الإرادة».

سـيدي الرئيـس: نريـد منكم قراراً صريحـاً يلمع في ظلمة دامسـة يرفع الظلـم عـن صحيفة مجروحة فـي الصميم، دمرهـا العنـف والتغليظ وعبثت بكرامتها نفوس مريضة مشحونة بالفساد والحقد والحسد والكراهية.

فالحـوار الوطنـي يحتاج إلى خطوات تمهيديـة وجريئة في الفضاء العام تعيد الثقة للنفوس المنكسـرة في الجنوب والتراب الوطني، ومن ضمن هذه الخطـوات النجيبة رفـع الظلم عن صحيفة «الأيام»، وتعويضها بشـكل عادل عن الخسائر المادية والمعنوية التي تكبدتها منذُ عام 2008م.

إننا ننتظر القرار الشـجاع الذي يعيد للأيام نضارتها ووهجها للمسـاهمة في عمارة الأرض ونهضة العقل وتشكيل الرأي العام النابه والمتبصر.

ملحق رقم (5)

عزيزي هشام: يريدون تحويل الناس إلى لصوص وبلاطجة

دار «الأيام» في الرزميت أنيس بتواضعه وشاخصة على جدرانه رصاصات العدوان، فهذا الدار ليس داراً للعنف والصدام المسلح، بل دار ألفة وسلام يطوق الزائرين بمشاعر الدفء والسكينة، وتحت هذا السقف العدني الجميل تشع أنوار المحبة والوداد وتنمو عاطفة الوفاء والوعي المستنير المناهض لأمراء الفساد، لقد حثت صحيفة الأيام الناس على مقاومة العفن والقمع والهيمنة وانتهاب الثروات، فتعرضت لاعتداءات ظالمة ومحن وإكراهات وفتن وقسوة بلا حدود.

وينبغي لي أن أقول، إن المرحوم/ هشام باشراحيل الذي انتقل إلى الرفيق الأعلى يوم السبت 16/ 6/ 2012م، أحب عدن حباً جماً ببشرها وجغرافيتها وعاداتها وتقاليدها وتمازج حضاراتها وتاريخها العتيق، أحب رؤية الراجلين والراجلات في الشارع بوجوههم وملابسهم وألوانهم ولهجة أصواتهم النقية التي تعزز التلاحم الوجداني، وتطبّع بأخلاق وخصال وتسامح مدينة عدن المستلقية على شاطئ البحر.

فللبحر والجبال والهواء والتراب والسماء والأزقة والشوارع والحارات والمنارات والسدود والقلاع والمبارز والمساجد والكنائس والمعابد والمقاهي والمباني والمدارس والملاعب والبشر وقع أليف في سويداء قلب هشام باشراحيل.

لقد انهالت المطارق بشدة على رؤوس هشام وتمام وعائلة باشراحيل

ومؤسسة الأيام في سنوات عجاف من الاستبداد والمضايقات والبطش العسكري، ومات الأستاذ هشام وفي صدره مرارة ثقيلة الوطء.

لقد كان آخر عهد لي به قبل سفره للعلاج إلى برلين يوم الثلاثاء 24/ 4/ 2012م، كان متذمراً من أصحاب الوشايات الباطلة ممن لا أخلاق ولا دين ولا ثقافة ولا ضمائر لهم، متذمراً من ميوعة الزمن واختلاط الوراق.

لقد قاوم الفقيد هشام عدواً ماكراً يجيد فن الظهور والتخفي، كثير الأقنعة والملابس والفهلوة والكذب. كان يتحدث وبكاء يتكسر في صدره من ممارسات دنيئة لعصابة شريرة، أما الأمنية التي يلهج بها لجلاسه الأوفياء هي: «**محاكمة رأس النظام في المحاكم الوطنية والإقليمية والدولية**».

ومات هشام بهيبته وحضوره القوي ولم يُحاكم الرجل ولم يُحاكم النظام... ما حدث فقط إن المحكمة الجزائية أنهت الدعوة ضد المرحوم هشام باشراحيل يوم الاثنين 10/ 9/ 2012م، وواصلت محاكمة صحيفة الأيام حتى يوم الثلاثاء 13/ 3/ 2013م، حيث أقرت إغلاق ملف قضية الأيام وكيدية التهم الموجهة لصحيفة الأيام.

إننا نعيش حياة زميتة مفعمة بالتحايل والمكر: لماذا لم تعوض صحيفة الأيام حتى اليوم؟ ولماذا لم تُحاكم الجهات التي حطمت مؤسسة الأيام ومارست القمع والقهر والدكتاتورية والكراهية العمياء ضد الأيام؟ لماذا لم يُطلق سراح حارس الأيام أحمد عمر العبادي المرقشي؟

لقد أطلقت السلطات سراح معتقلين جنوبيين يوم الاثنين 29/ 4/ 2013م، وأطلقت سراح 17 شاباً من أنصار الثورة السلمية يوم الخميس 6/ 6/ 2013م، وأطلقت سراح 7 حوثيين يوم الخميس 13/ 6/ 2013م، وفي كل مرة كنت أظن أن المرقشي واحداً منهم، فلقد اعتقلته السلطات إثر الهجوم البربري على مبنى صحيفة الأيام في صنعاء يوم 12/ 2/ 2008م وتم إلباسه تهمة كيدية ضمن سياق مسلسل تآمري وضعته الأجهزة لتدمير صحيفة الأيام ولقلعها من

حلبة الصحافة والإعلام وصناعة الرأي العام، في حين أن الأجهزة تتساهل في القبض على قتلة الشابين العدنيين حسن جعفر أمان وخالد محمد الخطيب اللذين قتلا في صنعاء يوم الأربعاء 15/ 5/ 2013م من قبل عناصر قبلية بطريقة مرعبة بالغة القسوة وبدون أسباب مقنعة.

كم يحز في النفس ونحن نرى الإصرار العجيب لأهل القوة على مواصلة الظلم العظيم لصحيفة الأيام، وأخذتهم العزة بالإثم بعدم الاكتراث بالعدالة وحقوق الإنسان وحرية الصحافة.

ولا ضير أن أضيف، أن اللجنة الفنية للحوار الوطني أقرت يوم الاثنين 27/ 8/ 2012م النقاط العشرين ومن ضمنها تعويض صحيفة الأيام وإطلاق سراح أحمد عمر العبادي المرقشي، وحكومة الوفاق الوطني أقرت تعويض الأيام، ومحكمة الصحافة والمطبوعات أصدرت حكماً يوم الثلاثاء 7/ 5/ 2013م بتعويض صحيفة أخبار اليوم 250 مليون ريال جراء الخسائر التي لحقت بها أثناء الثورة الشعبية، أما تعويض الأيام وإطلاق سراح المرقشي فما زالا محل نظر لدى دوائر صنع القرار التي تتعامل بمبدأ الكيد والمراوغة، وترفض تنفيذ قرار رئيس الجمهورية عبد ربه منصور رقم (329) بتاريخ 13/ 1/ 2013م والقاضي بالإفراج عن السجين المرقشي وإغلاق قضية الأيام بشقيها الجنائي والمدني. وتتجه الضغوط صوب تعويض الأيام مقابل تخلي الأيام عن السجين المرقشي وهذا أمر غير مقبول مطلقاً لدى صحيفة الأيام.

هل تريدون من الأستاذ تمام باشراحيل وهاني ومحمد وباشراحيل وأسرة الأيام الكريمة أن يتحولوا إلى قطاع طرق وصعاليك وبلاطجة لحل قضية الأيام؟ هل تريدون منهم أن يغلقوا ميناء عدن ومطار عدن الدولي ويختطفون السواح الأجانب ويعطلون العمل في مصفاة عدن ويقطعون الطرقات العامة ويستأجرون القبائل والعصابات والبلاطجة للمدافعة عن حقوقهم؟!!

إننـا نعيـش في كنف نظـام يدفع النـاس بقوة صوب الفوضـى والابتزاز والصعلكـة، وعـدم الامتثال للقانون للحصول على الحقوق المسـلوبة. فمن يقـوم بعمليـة الفوضـى والصعلكة والحرابـة تحترمه السـلطات وتكافئه على تصرفاتـه المنحرفـة وتدفع له العطايا والهبات مثلما تعمـل مع القبائل الذين يخربون خطوط الكهرباء ويفجرون أنابيب النفط والغاز ويعكرون صفو حياة 25 مليون يمني تدفع لهم الدولة 13 مليار ريال يمني سنوياً فضلا عن الهبات والعطايـا والمكافـآت الأخـرى. وفي ظل هـذه الأوضـاع المتلاطمة أقدمت مجاميـع من قبيلة المراقشـة من أبين يوم الاثنيـن 17/ 6/ 2013م ويوم الثلاثاء 18/ 6/ 2013م علـى قطـع الطريـق العام عـدن– حضرموت وخطـف الجنود والسيارات للضغط على الحكومة لإطلاق سراح السجين المظلوم/ المرقشي المضرب عن الطعام منذ يوم الخميس 6/ 6/ 2013م.

عزيـزي وصديقي المرحوم/ هشـام باشـراحيل، الوجـع الموحش الذي نهشـك والأصابـع التـي ضغطـت علـى حلقومك ما زالـت هـي الفاعلة في السـاحة، فما أشـبه الليلة بالبارحة، أو كما يُقال: الآية هي الآية والخطبة هي الخطبـة والجمعـة هي الجمعة «وما يحدث في الشـارع الآن يؤكد أننا نعيش في وطن بلا دولة»، حسب تعبير الأستاذ/ فاروق جويدة.

ملحق رقم (6)

في ذكرى رحيل هشام باشراحيل

لا نستطيع أن نتقدم قيد أنملة ولا نشتم نسمة الحرية ولا أن نقف على أرضية آمنة، ولا نستطيع أن نستمتع بزرقة البحر وسعة السماء في فضاء مفتوح من التسامح والتلاقح والتساكن والتثاقف وجودة العلاقات الإنسانية، في ظل أنظمة جهنمية غايتها قهر الإنسان والسيطرة على أنفاس المجتمع بالتنصت والمراقبة، والهيمنة على دقات قلوب الكائنات البشرية بالأحذية والخوذات العسكرية والتعبئة الضدية من قبل كائنات ذميمة مسلحة حتى الأسنان بالحقد والكراهية العمياء للفضيلة والقيم الأخلاقية وآدمية الإنسان.

تقول الروائية السورية هيفاء البيطار: «لا شيء قادر على اعتقال الحرية حين تنفجر في قلوب الناس، لأن الحرية والكرامة كالهواء والماء لا يمكن اعتقالهما».

عندما كان المرحوم هشام باشراحيل (1944–2012م) مسجوناً مع نجليه هاني ومحمد هشام بعد أن اعتقلتهم مؤسسة القوة في 4/ 1/ 2010م إثر الهجوم الغاشم على مؤسسة الأيام قلت حينها: «إن هشام باشراحيل يعاني من أمراض حادة ومزمنة وليس من العزة والشهامة الانقضاض على رجل مريض». لقد هاجمته الوحوش البشرية بمخالبها الحادة وتداخلت أحداث كثيرة في حياته. وتوالت المحن والدسائس عندما أدار ظهره للسلطة وأخذ يتنفس ألم الآخرين ويكشف عذابات الناس وعنجهية النظام، الذي وطأ بأقدامه أعناق الرجال على صدر صحيفة الأيام، وتلقى تهديدات صريحة من أهل القوة بالحتف، وتعرض لعقوبات قاسية ورقابة شديدة وخنق لصحيفة

الأيام، ولم يطأطئ رأسه حتى في ظل الهجمات المسلحة على مؤسسة الأيام والتي امتدت إلى غرفة نومه مستهدفة رأسه ورأس أخيه تمام وأفراد عائلته والعاملين والمتضامنين مع صحيفة الأيام.

ذات مرة كنت أتفرس في وجهه وأسمع زفرات من سعير قلبه وهو يحكي لي عن المضايقات والاعتداءات على مؤسسة الأيام، وفجأة حكى لي عن طفولته ومغامراته وشغفه بصيد الغزلان في صدر شبابه، حين كان قناصاً ماهراً يقتحم المهالك ويطارد الغزلان ببندقية صيد عتيقة في براري بئر فضل وبئر أحمد ووصولاً إلى فاتحة مدينة الوهط... كنت أستمع إلى صوته القوي الرنان رغم اعتلال صحته الذي يجمع ما بين الألم والمتعة ويطير بنا في مرابع الطفولة وبهاء الزمان المجيد وفي خضم جراحات محفورة في الذاكرة.

لقد انتهت فصول حياته بالمرض والوجع والموت وتحمل الأذى والقذى في زمن قاحل وبليد. رحل عن حياتنا الأستاذ/ هشام باشراحيل وما زلنا نعيش على وقع الوعود السرابية بتعويض صحيفة الأيام وإطلاق سراح المعتقل/ أحمد عمر العبادي المرقشي والذي اعتقل في حادثة الهجوم على مقر صحيفة الأيام بصنعاء يوم 12/ 2/ 2008م وما زالت أيادٍ خفية تلعب بملف هذا الرجل المظلوم للي عنق صحيفة الأيام وخنق صوتها المسموع باتهامات ملفقة ذات بعد سياسي.

يداهمنا خوف نبيل بإطالة أمد سجن أحمد عمر العبادي ولربما إعدامه خلسة بطرق ملتوية وبالقفز فوق أسوار القانون في ظل سيادة الفوضى والاعتساف.

رحمة الله عليك يا أستاذ/ هشام باشراحيل.. لقد كنت من طينة استثنائية سامية الارتفاع، فتحت صدرك وعقلك للناس ودافعت مع أخيك تمام عبر صحيفة الأيام عن القضية الجنوبية والمظلومين في التراب الوطني بمروءة

ونخوة، وأكدت في رحلة حياتك الشاقة أن شعاع شمس الصباح سينبجس قريباً من جوف الليل.

ولقد قال الرسام العالمي سلفادور دالي: «لا تستطيع أن تقتلع عبير زهرة حتى لو سحقتها بقدميك»، فمن الصعب قتل الكلمة الحرة واجتثاث صحيفة الأيام ونسيان المرحوم/ هشام باشراحيل.

ملحق رقم (7)

أنقذوا حياة أحمد عمر العبادي

ليعرف الجميع أني لست من هواة القفز فوق الأسوار والممنوعات، بل من هواة البحث عن الحق والمدافعة عن الإنصاف في مساحة شاسعة من العتمة والجهل والظلم.

أحياناً أعض أصبعي ندماً على كتاباتي التي لم تسعف المظلوم ولم تنبّه الغافل إلى الحق.

«أجلس كي أكتب، ماذا أكتب؟
ما جدوى القول؟
يا أهلي، يا بلدي، يا شعبي
ما أحقر أن أجلس كي أكتب
في هذا اليوم
هل أحمي أهلي بالكلمة؟
هل أنقذ بلدي بالكلمة؟
كل الكلمات اليوم
ملح لا يورق أو يزهر
في هذا الليل" (فدوى طوقان).

قبل حين كان يستبد بي السؤال:

إلى متى سيظل أحمد عمر العبادي في السجن؟ متى ستحتضنه مدينة عدن؟ متى ستطأ قدم هذا الرجل منطقة العريش وحي السعادة والسلام في خورمكسر؟ متى سيشاهد ولده عبد الحكيم وأفراد أسرته وجيرانه وأصدقاءه؟

أمـا اليوم فأقرأ خبراً شـلّ نفسـي وجرح روحي وخنـق صوتي وأصابني بالدوار:

لقـد حكمـت المحكمـة يوم الأحـد 11/ 7/ 2010م، بإعـدام أحمد عمر العبادي المرقشي.

أجزم أن الأخ أحمد عمر العبادي لا يخاف الموت، حيث ظل يبحث عن الشـهادة في كل المطارح تحت راية الحق، ذهب للقتال في سـبعينيات القرن العشـرين إلى جنوب لبنان لمناصرة الحق ضـد العدوان الصهيوني، وأجترح مآثـر عظيمة ترفع الرؤوس وكان يطلب الشـهادة في معارك البطولة والفداء. أمـا اليـوم فتحكـم عليه المحكمـة حكماً قاسـياً وغير مستسـاغ وبحاجة إلى مراجعة، على خلفية أحداث معجونة بروح السياسـة وعلى همزة وصل قوية بصحيفة «الأيام» ورئيس تحريرها الأستاذ/ هشـام باشراحيل، ومدير تحريرها الأسـتاذ تمام باشـراحيل، فلقد تعرضت هذه الصحيفة للأذى والابتلاء لأنها لا تجيد لغة التزلف ورش العطور وحمل المباخر، فصبرت على المكاره ولم تسلم من الفبركات والحيل الماكرة.

وثمة سلسلة طويلة من المرارات تجرعتها «الأيام» نذكر منها:

1. 12/ 2/ 2008م، هجـوم علـى مبنـى «الأيـام» فـي صنعـاء واعتقـال حارسها أحمد عمر العبادي.
2. 1/ 5/ 2009م، متقطعـون فـي المـلاح م. ردفـان يصـادرون أعـداد «الأيام».
3. 3/ 5/ 2009م، مصادرة أعداد الأيام في نقطتي العلم ودار سعد.
4. 5/ 5/ 2009م، قرار من وزير الإعلام بإغلاق صحيفة «الأيام».
5. 13/ 5/ 2009م، هجوم مسلح على «الأيام».
6. 4/ 1/ 2010م، هجوم مسلح على «الأيام» واعتقال هشام باشراحيل ونجليه هاني ومحمد وآخرين.

7. 24/ 3/ 2010م، الإفراج عن الأستاذ هشام باشراحيل من السجن.
8. 9/ 5/ 2010م، الإفراج عن نجلي هشام باشراحيل هاني ومحمد من السجن.
9. 12/ 5/ 2010م، توجيهات رئاسية بفتح صحيفة الأيام، وإنهاء كافة الملفات العالقة الخاصة بمؤسسة الأيام.
10. منعت المراجع المسئولة تجديد جواز سفر الأستاذ هشام باشراحيل، ومنعته من السفر للعلاج.
11. 11/ 7/ 2010م، محكمة جنوب غرب صنعاء تحكم بإعدام حارس «الأيام» أحمد عمر العبادي المرقشي.

وهل يعقل أن يعدم هذا الرجل بهذه السهولة وبهذه الطريقة العجيبة، ولا شك أن الأخ أحمد عمر العبادي يحفظ جيداً ما قاله الفارس المغوار خالد بن الوليد وهو على فراش الموت:

(لقد شهدت مئة زحف أو زهاءها – وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربةُ بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح، وها أنذا أموت في فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء).

ولا أنسى أن أشير أننا نحترم القضاء النزيه غير المسيّس، نحترم بيت العدل، نحترم النظام والقانون العادل، نحترم المواطنة المتساوية وحقوق الإنسان.

ولدينا أمل كبير أن تتدخل منظمات حقوق الإنسان لإعادة الأمور إلى نصابها وأن تعدل المحكمة من حكمها. فقضية الأخ أحمد عمر العبادي قضية رأي عام. فهذا الرجل مظلوم نطحته الأحداث والمآسي ويسير دوماً في غابة من الأشواك والذئاب الماكرة المتربصة وتحتاج قضيته إلى عفو رئاسي من قبل الرئيس علي عبد الله صالح (وعظمة الرجال تُقاس بمدى استعدادهم للعفو والتسامح) ليف تولستوي.

ملحق رقم (8)

إني أسمع أنين هذا الرجل المظلوم

إني أسـمع أنين هذا الرجل لمظلوم بأذني، لقد حكم عليه بالإعدام يوم الأحد الموافق 11/ 7/ 2010م، بصورة قاسـية لكسـر شـوكته وإخراس صوته الذي يرفض الخنوع والمسكنة ومشاهد الذل والواقع القبيح.

فأحمـد عمـر العبـادي المرقشـي صريـح وحر وشـجاع لا يتسـاكن مع كابوس القمع والقهر وعلاقات البغي والعدوان، ومشحون بالرجولة وشهامة الفرسـان. وهو على مسـافة شـبر واحد من الموت لا يزال رافعاً رأسـه بأنفة وكبرياء، فهو من أصحاب الشمم العالية. إن قضيته سياسية ألبست ثوباً جنائياً، لقد دافع عن الحق يوم 12/ 2/ 2008م، لصد مهاجمين أرادوا الاستيلاء بقوة السـلاح على مبنى صحيفة «الأيام» في صنعاء بغير وجه حق، ووقف ببسـالة إلى جانب هشام وتمام باشراحيل في صراعهما ضد الباطل.

إن هذا الرجل يحترم النظام والقانون العادل، مثلما تحترمه أسرة «الأيام»، فكان دفاعه شرعياً كحارس على مبنى «الأيام» وهذا ما تؤكد عليه المادة (27) من قانون الجرائم والعقوبات حيث تنص هذه المادة:

«تقوم حالة الدفاع الشرعي إذا واجه المدافع خطراً حالاً من جريمة على نفسـه أو عرضـه أو مالـه أو نفـس الغير أو عرضه أو مالـه، وكان من المتعذر عليـه الالتجـاء إلى السـلطات العامة لاتقاء هذا الخطر في الوقت المناسـب، ويجوز للمدافع عندئذ أن يدفع الخطر بما يلزم لرده وبالوسيلة المناسبة».

لا تذلـوا أصحاب الشـمم العالية، لأن ذلـك خطر على المجتمع يحول الأفراد والجماعات إلى دجاج وخرفان من السهولة التهامها، فهؤلاء يشكلون

عامل قوة للمجتمع لا عامل ضعف.

«فالمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف» (حديث شريف).

وليس من الإنسانية بمكان أن يُضرب أحمد عمر العبادي بقسوة في السجن وتُكسر يده بطريقة حاقدة وملتوية في اعتداء غاشم عليه يوم الخميس الموافق 5/ 8/ 2010م.

كما أنه ليس من الكياسة أن يذل ويجرجر الأستاذ/ هشام باشراحيل (رئيس تحرير صحيفة الأيام) يوم الاثنين الموافق 26/ 7/ 2010م في مطار عدن الدولي ويمنع من السفر ويصادر جواز سفره وبعد عودته إلى المنزل يسمح له بمغادرة البلاد للعلاج، فهذه تصرفات غير رشيدة لا يقرها العقلاء «إننا جميعاً كبشر نتكون من الضعف والخطأ، فلِمَ لا يغفر أحدنا للآخر ويسامحه» (فولتير).

عندما أصدر رئيس الجمهورية عفواً عن السجناء في يوم السبت 17/ 7/ 2010م، كنت أهجس أن المناضل أحمد عمر العبادي الذي قاتل في سبعينيات القرن العشرين في جنوب لبنان دفاعاً عن كرامة الأمة أحد هؤلاء، فخاب ظني.

لماذا لا يُطلق سراح بقية السجناء ومنهم أحمد عمر العبادي؟ من حق أحمد عمر العبادي أن يخرج من السجن وينعم بالحرية، لقد أحرقه الشوق إلى العدل، من حقه أن يعيش بمنأى عن كوابيس الذل والموت والعسف والسجون والمنافي والاغتراب والآهات الحزينة الصاعدة من جوفه. فمن حق أسرته أن تعيش حياة بلا خوف ولا قلق وفي سلام نفسي وروحي وبدني، ومن حق الشاب عبد الحكيم أحمد عمر العبادي أن يرتاح، لقد تمزقت أحذيته ونحل جسمه من الطلوع إلى صنعاء والنزول إلى عدن ومتابعة المراجع المسؤولة لإطلاق سراح أبيه.

إن ما يوقد النار ويشعل الحرائق هو بقاء أحمد عمر العبادي في السجن

وتعرضه لاعتداءات بدنية ونفسية خارج نطاق الأنظمة والأعراف الإنسانية، ومع ذلك يظل صامداً، وكأنه يقول كما قال أحد أبطال روايات الروائي العالمي اليوناني كزانتزاكس: «أنا لا أطمع في شيء.. لا أخاف من شيء.. أنا حر».

فاصبر يا أحمد رغم الألم الذي يذبحك في آناء الليل وأطراف النهار، فالصبر «مذاقه مر لكن ثماره حلوة شهية»، كما قال أحد المفكرين، وقال الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه:

﴿... **وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾ «صدق الله العظيم».

إن هذا الرجل مظلوم يُسلخ بسكاكين حادة، لأنه لا يعرف المداهنة والكذب ويرفض زيف العلاقات البشرية وسطحيتها، فهو صادق في كلامه لا تنقصه الصراحة حيث يقول:

«أفيقوا من سباتكم العميق وصمتكم الجبان وقولوا كلمة حق ضد الباطل.. التاريخ لن يرحمكم.. والشعب سوف يسألكم غداً من أين لكم هذا؟».

ملحق رقم (9)

إعدام المرقشي وصمة عار على جبين العدالة

نعيش حياة قاسية بالغة الحدة والعنف، وثمة قضايا كبرى شغلت الرأي العام: القضية الجنوبية، حرب صعدة، الإرهاب، إسقاط النظام.

وفي هذه المعمعة تشهد الساحة الوطنية صراعاً لاهباً، واضطرابات عنيفة، واعتصامات واحتجاجات ومسيرات، وانفجارات واصطدامات مسلحة، وأزمة خانقة في الغاز والكهرباء والبترول والماء والديزل والمواد الاستهلاكية، وتفكك صواميل مؤسسة الدولة، وزلزلة الاستقرار، وسباق هوس وجنون ومعاناة ضر وبؤس وانفجار دمامل الجروح هنا وهناك، وطغيان لغة السلاح على لغة العقل والحوار، وقسوة الفاقة والفوضى والتشرد، وانكسارات وخيبات أمل لا تُحصى.

فهذا الفضاء العام المترجرج ببؤسه وخرابه العام المنذر بالشؤم، قد حجب عنا قضايا كثيرة منها قضية السجين أحمد عمر العبادي المرقشي. حجب عنا قضية «صحيفة الأيام» والظلم الواقع على هشام وتمام باشراحيل والمرض الذي ينهش جسد الطيب هشام باشراحيل.

إننا نعيش في حقبة حالكة الظلام، وكم أنا حزين عندما أسمع بسقوط قتلى وجرحى وباستشهاد شباب في ربيع العمر مثل ذلك الشاب البريء يوسف أحمد صالح عمر النجدي الذي سقط شهيداً يوم الاثنين 2/ 5/ 2011م في حي السعادة – خورمكسر (عدن)، ومثل النهاية التراجيدية لحياة الطيب الذكر الدكتور/ جياب محمد علي السعدي الذي استشهد برصاصات غادرة في موكب تشييع جثمان الشهيد أحمد درويش يوم الجمعة 25/ 6/ 2011م.

كما أنا حزين عندما أسمع أن السجين المظلوم أحمد عمر العبادي المرقشي حكمت عليه المحكمة بالإعدام بتاريخ 11/ 7/ 2010م، ومحكمة الاستئناف تقر بإعدامه يوم السبت 25/ 6/ 2011م، دون رأفة أو شفقة بعد رحلة عذاب ورعب وموت نفسي وروحي للبطل أحمد عمر في السجن لجرم لم يرتكبه.

لقد أكدت في غير مرة أن أحمد عمر العبادي المرقشي صريح وحر وشجاع لا يتساكن مع كابوس القمع والقهر وعلاقات البغي والعدوان، ومشحون بالرجولة وشهامة الفرسان، وهو على مسافة شبر واحد من الموت لا يزال رافعاً رأسه بأنفة وكبرياء، فهو من أصحاب الشمم العالية. إن قضيته سياسية أُلبست ثوباً جنائياً، لقد دافع عن الحق يوم 12/ 2/ 2008م لصد مهاجمين أرادوا الاستيلاء بقوة السلاح على مبنى «صحيفة الأيام» في صنعاء بغير وجه حق، ووقف ببسالة إلى جانب هشام وتمام باشراحيل ومؤسسة الأيام في صراعهم ضد الباطل.

إن المناضل أحمد عمر العبادي المرقشي بريء وقضيته واضحة كشمس في رابعة النهار، وتنفيذ حكم الإعدام بحق المرقشي جريمة كبرى ووصمة عار في جبين العدالة وذبح لأحلامنا الطامحة للخروج من الليل الدامس ولكسر الأغلال والقيود وتثبيت مبدأ المواطنة المتساوية.

وثمة سؤال يدق أبوابنا: هل نائب الرئيس عبدربه منصور سيقف إلى جانب الحق؟ وهل سيتجرأ في إصدار عفو عن المقهور والمظلوم أحمد عمر العبادي المرقشي؟!!

إن أحمد عمر العبادي المرقشي بريء غير مطبوع على الشر والخيانة وحياته ممهورة بالشرف والأمانة والكفاح والشقاء والمعاناة لا يحب السير في مواكب النفاق ويكره خسة الأخلاق ولؤم الطباع إنه رجل شجاع: (والشجاعة لا تعني غياب الخوف، بل الانتصار عليه، الرجل الشجاع ليس من لا يعرف الخوف بل من يتمكن من قهره). «نيلسون منديلا».

ملحق رقم (10)

إعدام المرقشي صدمة للوعي والضمير الإنساني

كنت أتمنى أن نبدأ صفحة جديدة بعد انتهاء أشغال مؤتمر الحوار الوطني بترميم النفوس وتطبيق النقاط الـ 31 لتطبيع الأوضاع وإعادة العزة للمهانين والطمأنينة للخائفين والمال المغصوب للمنهوبين، وتعويض صحيفة الأيام المظلومة وإطلاق سراح حارسا أحمد عمر العبادي المرقشي، ولكن أن نبدأ بإعدام أحمد عمر العبادي أمر جليل الخطر له دلالات عظيمة وهي:

أن الأوضاع ستظل كما هي وأن أهل القوة والفساد هم القابضون على زمام الأمور وأن النظام المستبد لم يندحر وأن التغير المنشود بعيد المنال.

لم يُقتل أحمد عمر العبادي المرقشي في ثمانينيات القرن العشرين على أيدي الصهاينة في جنوب لبنان عندما حارب إلى جانب المقاومة اللبنانية الفلسطينية، ومن العار أن يعدم اليوم بصورة غاشمة على أيدي أبناء جلدته ممن يدّعون العفة والشهامة والإنصاف ويتدثرون بالقيم الإسلامية والإنسانية النبيلة ويقلبون الحقائق رأساً على عقب ويحولون المقهور الذي مات ألف مرة في غياهب السجون إلى مجرم وقاتل، بينما القتلة والسفاحون يسرحون ويمرحون على طول وعرض التراب الوطني وتكافئهم الدولة بالهبات والعطايا وتشجعهم على مزيد من القتل والفوضى والتدمير والخراب المجتمعي.

أجزم أن أحمد عمر العبادي ليس قاتلاً بل إنه كان مدافعاً عن الحق، إنه برئ كسرت أضلعه عربات الظالمين الذين لا يمكنهم العيش تحت سماء العدالة والإنصاف والمواطنة الواحدة، ولا يروق لهم أن يعيش الناس بأمن

وطمأنينة بمنأى عن البطش والهيمنة والنهب والغنيمة واسترقاق البشر.

فما زلنا نعيش في كنف نظام يرتكز على شرعية الغلبة والعنف والقهر للمواطنين، فالعدالة والمواطنة المتساوية التي ننشدها ليست إلا فسفوسة على طرف الفم وطموح لم يتحقق بعد على أرض الواقع.

أوجه دعوة حارة للرئيس عبد ربه منصور هادي أن ينظر بعين الإنصاف لقضية صحيفة الأيام وحارسها المرقشي وأن يصدر عفواً رئاسياً عن السجين المرقشي المتهم بجريمة لم يرتكبها. ونقول له كما قال رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم «أدرأوا الحدود بالشبهات» وفي حديث آخر «قد يدوم الحكم على الشرك ولكنه لا يدوم على الظلم».

إن الحكم بالإعدام على المرقشي الصادر يوم الخميس 19/ 12/ 2013م لون من ألوان المكايدة والمكر السياسي الذي يضر بقضية العدالة ويؤكد أننا نسير في فضاء مترع بالغش والافتراء والاعتساف ومشحون بالريبة والشك وأن شعارات الحرية والديمقراطية ودولة الحق والقانون والمواطنة المتساوية ألحان تردد في المحافل والمهرجانات الصاخبة لتضليل الرأي العام ودغدغة أحلام البسطاء وليس للخروج من شرنقة الجهل والتخلف والحقب الحالكة الظلام.

إعدام المرقشي خطأ بالغ القسوة وصدمة للوعي والضمير الإنساني الحي وانتصار لقانون الغطرسة والغرور وعقلية التآمر والإقصاء.

فإجراءات المحاكمة للمرقشي غير سليمة والحكم غير عادل في قضية سياسية بامتياز.

إننا نتضامن بقوة مع مؤسسة الأيام، نتضامن بقوة مع أحمد عمر العبادي المرقشي ونقول له كما قال أحد المفكرين:

«يهزم الضعيف القوي إذا كانت القضية عادلة»، فقضيتك عادلة يا أحمد عمر، ونبتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يخرج الحق من خاصرة الباطل.